من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب

المثقفون العرب والغرب

أحمد الشيخ

المركز العربى للدراسات الغربية

الكتاب : المثقفون العرب والغرب

الكاتب : أحمد الشيخ

الطبعة الأولى

سنة النشر : يناير ٢٠٠٠

رقم الإيداع : ٣٧٨٩/ ٢٠٠٠

الترقيم الدولى . I.S.B.N
977-6000-00-2

الناشر : المركز العربى للدراسات الغربية

المدير المسئول : صلاح الشيخ - أحمد الشيخ

العنوان :القاهرة - الألف مسكن - ممر ٤ - ١٣٧ ب

تليفون : ٤٩٣٣٤٧٦

المثقفون العرب والغرب

تقديم الكتاب

فى بداية العام الماضى، عندما صدر كتابنا «حوار الاستشراق»، لم أكن أتوقع أن يحظى بمثل هذه الحفاوة التى حظى بها، ولم أكن أتوقع كذلك أن يحظى بقدر كبير من سوء الفهم، كالذى تبدى فى بعض وجهات النظر، التى سادت فى عدد من الندوات والكتابات أثناء مناقشة الكتاب . ومبعث دهشتى هو تلك المفارقة الغريبة، فالكتاب ظهر ومن أهدافه الرئيسية العمل على تبديد سوء الفهم، هنا أو هناك، فإذا به يقع بدوره ضحية، لسوء الفهم الذى قام من أجل محاربته .

وبعد فترة تأمل، من جانبى، توصلت إلى قناعة راسخة، وهى أن الحديث والكتابة فى القضايا المتعلقة بالاستشراق والاستغراب، يتضمن بالضرورة سوء فهم، شاء المرء أو لم يشأ، فهذه القضايا تلقى بظلالها على طريقة التناول والتحليلات والآراء الخاصة بكل مؤلف، كما تلقى بظلالها أيضا على القراء والمستعمين، وقبل أن يبدأ فعل الاستماع أو القراءة ! فالحوار قبل أن يبدأ تجده بالفعل محاصراً بأحكام وصور معدة سلفا وتجده مسبوقا بقدر كبير من الحماسة. أو الغضب، أو الرغبة المتعجلة لإبداء الرأى فى هذه القضايا الشائكة .

وربما يطرح سوء الفهم هذا قضية التفاهم وحدودها بين الثقافات المختلفة. فالنموذج العملى الذى قدمته فى حوارى مع المستشرقين تم النظر إليه فى ندوة باريس على أنه يتضمن هجوما ونقداً وإحراجا كبيراً لرموز الاستشراق الفرنسى المعاصر بمختلف أجياله ، بينما تم النظر، فى ندوات القاهرة، إلى الحوار على أنه يتضمن ميلا واضحا تجاه المستشرقين، بل ودفاعا عنهم، ومنحهم مساحة كبيرة من الكلام دون تعقيب أو تفنيد لوجهات نظرهم. بل اعتبر البعض أن الحوار يفرض آراء المستشرقين وأذواقهم على أبناء الثقافة العربية!

هذا الاختلاف فـى تقييم حوار الاستـشراق يطرح بالفعل ما نـسميه دائما بقـضية «الحدود بين الثقـافات»، والتى لم تعالج بعد فى ثقـافتنا بالصورة التى تستـحقها، ولم تدرس بعد فى أبعادها المنهجية والمعرفية .

وربما لا تكون الحدود بين الثقافات هى المصدر الوحيد لسوء الفهم الذى نتحدث عنه. قد يرجع ذلك أيضاً إلى استخدامنا مصطلحات قـديمة وغير معاصرة، كالاستشراق والاستغـراب، بالإضافة إلى أن الزمن قـد شحنها بشحنات أيـديولوجية تجعلـها موضع اشتباه دائم فى هذه الضفـة أو تلك. فالسمعة التى يتمتع بها مـصطلح «الاستشراق» فى الثقافة العربـية والإسلامية غنية عن الوصف أو التعريـف. والشىء ذاته ينطبق أيضاً على مصطلح «الاستغراب» الذى يخيف ويعزع بعـض الدوائر الغربية. وقد تكون هذه السمعة السيئة لـمصطلحى الاستشراق والاستـغراب، مسؤولة إلى حد بعيـد عن تحويل الأنظار بعيـداً عن القضايا الهامـة والمعاصرة التـى عولجت أثناء هذا الحوار، والتـى تفتح،فى نظرى، آفاقاً جديدة فى النظر والعمل ونحن على أعتاب الألفية الجديدة.

وربما يكون لفن الحوار، أو المـحاورة، مسؤولية كبيرة فى هذا الشـأن، فالثقافة التى يفتش أبـناؤها دائماً عن الإجابات،قبل الـتساؤلات، وعن الخلاصات والنـتائج قد يربكها فن الحوار، لأن النتائج والخلاصات لا تظهر فى نهاية الحوار، فنحن فى ثقافتنا، وحياتنا، قد تعودنـا على الاهتمام أكثر بالأجوبة حتى قبل أن نسـتمع للسؤال، وقبل أن تتضح لنا معالمه . وننسى أن السؤال قد يكون أكثر أهمية من الإجابات، لأنه يفتح آفاقاً أرحب نحو التـفكير. وننسى كـذلك أن السؤال قد يفـضى إلى توجهات جـديدة تحرك المياه الراكدة ، كما أنه فى أحيان كثيرة قد يحمل فى طياته الإجابة التى نفتش عنها دون أن ندرى.

ونزعم، بـالرغم من ذلك، أن حـوار الاسـتشـراق فى الكـتاب الأول، وحـوار الاستغراب فى هذا الكتاب، والذى تم فى النصف الثانى من عقد الثمانينيات، قد أفضيا

إلى مجموعة من النتائج والقضايا التى أصبحت منتشرة على نطاق واسع فيما بعد، وليس أقلها أهمية طرحنا لمسألة الاستغراب على النحو الذى قمنا به. والذى أفضى إلى جذب انتباه عدد من الباحثين، والمؤسسات البحثية، إلى ضرورة تجديد إدراكنا للغرب من خلال تأسيس مراكز بحث علمية تنهض بهذه المهمة من أجل تصحيح الخلل القائم وكان من نتائج طرحنا لمسألة الاستغراب، أن أعيد النظر فى الكثير من القضايا، ومن أهمها ضرورة إدراك جديد لطبيعة البعثات العلمية فى العواصم الغربية وضرورة أن ندرس المحيط الغربى فى المجالات التى يكون من شأنها تصحيح التفاوت بيننا وبينه، لا أن ندرس موضوعات عربية فى عواصم غربية، كما يفعل أغلب باحثينا فى مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية .

كما أننا لم نذهب، فى هذا الحوار، مذهب الذين يعملون على إخفاء الصراعات والتوترات القائمة بالفعل، وكتبنا فى أكثر من مكان، أن التوتر الراهن الذى تشهده العلاقة بين الشرق والغرب، أو بين الشمال والجنوب، أو بين «العالم الحر» والعالم غير الحر! يدعونا إلى التساؤل عما إذا كان هناك وعى جديد فى العالم العربى بدأ يتبلور فى السنوات الأخيرة إزاء الغرب؟ وأين ينتشر أكثر داخل المجتمع العربى؟ وما هى تلك الشرائح الاجتماعية المؤهلة أكثر من غيرها لدعم هذه الرؤية الجديدة إزاء الغرب بكل ما يمثله علميا وسياسيا وثقافيا وحضاريا؟ ثم لماذا يبزغ هذا الوعى الجديد فى الشرق العربى والإسلامى. فى هذه الفترة بالذات، وليس قبلها أو بعدها، وعلى أية أنقاض يتقدم هذا الوعى الجديد بالغرب؟ وبالتالى ما هى النتائج - الإيجابية والسلبية - المرافقة لانتشاره فى الأمد القريب والبعيد على حد سواء؟

لا نزعم أننا طرحنا - ونطرح - هذه التساؤلات فى سياق محايد، لأننا لا نعتقد بوجود هذا «الحياد العلمى» فى قضايا تنتمى إلى مجال الصراعات التى تتطلب بالضرورة تحديد مواقع المتحاورين أو المتصارعين، كما أننا لا نزعم، أننا نملك إجابات كاملة

وقاطعة عن هذه التساؤلات، وإنما نحاول أن نتلمس إجابات لها، وأن نشجع ونحرض الآخرين على ذلك، من أجل إضاءة العديد من الجوانب المرتبطة بمثل هذه التساؤلات والتى نعتقد بأهميتها فى الوقت الراهن.

من المؤكد، بالنسبة لنا، أن هناك ما يبرر الحديث عن ظهور وعى جديد فى الشرق العربى والإسلامى، مخالف للصورة التقليدية التى نمتلكها عن الغرب منذ قرنين على وجه التحديد. ومؤشرات هذا الوعى الجديد تكمن أولاً فى حدوث ما يشبه الانقلاب فى صورة الغرب بصفة عامة داخل المجتمعات العربية والإسلامية، وذلك لدى قطاعات لا يمكن الاستهانة بها أو التقليل من شأنها. إذ لم تعد صورة الغرب اليوم لدى هذه الفئات هى الصورة ذاتها التى بدأت مع عصر النهضة العربية وفتح القنوات بهدف التفاعل والأخذ عن هذا الغرب المتقدم .

الآن، نجد الأمر على درجة كبيرة من الاختلاف. فصورة الغرب فى مجتمعاتنا كفّت عن سحرها القديم. لم يعد الغرب فى الوعى الصريح أو الضمنى للعديد من شرائح ومثقفى هذه المجتمعات هو غرب العلم والحضارة والقيم والآداب الإنسانية الرفيعة، إنما هو ذلك «الغرب السياسى» فى المقام الأول.

كما أن ما يبرر لنا الحديث عن هذا الوعى الجديد أننا لا نراه مقتصرا فقط على الحركات الدينية المتشددة، والتى تحمل موقفا مناهضا للغرب بالفطرة! وإنما هناك أيضا حدوث تحول جذرى لدى بعض المثقفين العرب، الذين كانوا ينتمون فى السابق إلى التيار العلمانى، بينما هم الآن يركزون أكثر فأكثر على نقد التبعية الثقافية للغرب، وأنه لا ينبغى الاقتصار فقط على نقد التبعية السياسية والاقتصادية والإعلامية .

وهؤلاء المثقفون العرب الذين يقولون بنقد التبعية الثقافية للغرب ليسوا من القلة، وأطروحاتهم تجد من يتبناها ويدافع عنها باستمرار. على أن أهم ملامح ظهور وعى جديد إزاء الغرب يتمثل فى انحسار ظاهرة التغريب، وانحسار دور المثقفين العرب الذين

كانوا ينشرون صوراً جذابة وبراقة عن حضارة الغرب وثقافته وقيمه ومناهجه فى النظر والتحليل. ومع انحسار دور هؤلاء «المستشرقين العرب» وسقوط الأقنعة الأيديولوجية والشعارات الخالية من محتواها الوطنى والقومى عن الحداثة والتواصل مع الثقافات الأخرى، أصبح الطريق ممهداً لبروز مثل هذا الوعى الجديد، فانحسار «الاستشراق العربى» هو فى حد ذاته دليل ساطع على تبلور بديل آخر ورؤية أخرى للغرب.

وليس من قبيل المصادفة، أن تطرح هذه المرحلة الجديدة - من الوعى بطبيعة العلاقة مع الغرب - الكثير من الشكوك حول تكوين ومسار الوعى العربى والإسلامى منذ بداية فترة النهضة العربية الحديثة وحتى الآن، وحول الدور الذى نهض به بعض المثقفين العرب فى تكوين هذا الوعى بالغرب. كما أنه ليس من قبيل المصادفة أيضا أن تثار الشكوك اليوم حول الدور الذى ينهض به بعض المثقفين العرب باتجاه ترميم صورة الغرب بطرق مختلفة داخل مجتمعات الشرق العربى، وللإبقاء على هذا الوعى القديم وتلك الصورة الجذابة عن الغرب فى بلادنا .

وهذا الفريق، فى اعتقادنا، لا يقتصر على بعض المثقفين العرب فى المهجر، الذين يعملون فى مراكز أبحاث أو جامعات أو دور نشر وصحف غربية، بل هناك من لا يزال يدعم ويؤيد هذا الفريق وأطروحاته داخل مجتمعاتنا، بحيث يدفعهم سوء الأوضاع السائدة إلى إدراك خاطئ للغرب وإسقاط «وعى زائف» على حضارته وإنجازاته وقدراته التى تمتلك العلم والمعرفة والفكر وربما كل شئ !!. هذا الفريق من المثقفين العرب، سواء من هاجر منه أو من يزال يفكر فى الهجرة، يعيش فى الواقع مأزقاً حقيقياً، ومن دون أن يسعى إلى الخروج منه بصورة مشرفة، ولقد سبق لنا أن ساهمنا فى الحديث عن هؤلاء المستشرقين العرب، وفى تحليل آليات عمل هذا الاستشرق العربى. ولقد تركز هذا التحليل أساساً حول المناهج المستخدمة وحول الموقف من الغرب اليوم ، من خلال مطالبنا الملحة بضرورة مراجعة قنوات اتصالنا به من بعثات تعليمية، إلى مراكز ترجمة وإعلام، وصولاً إلى المؤسسات الدبلوماسية.. حيث كان هدفنا، ولا يزال، هو

تنشيط وتجديد فهمنا للغرب والمطالبة بتحديد أكثر وضوحاً لحدود التعايش، والتمايز بين الثقافة العربية والثقافة الغربية. ولم ننطلق أبداً من موقف عدائى بالفطرة لكل ما هو غربى، بل كانت حملتنا أساساً موجهة ضد هؤلاء المستشرقين العرب، وضد الدور الذى ينهضون به فى نطاق هذه المعادلة الصعبة بيننا وبين الغرب .

كان هذا الفريق المتغرب من المثقفين العرب يندب حاله قائلا : لماذا العودة من جديد إلى الحديث عن الشرق فى مواجهة الغرب؟ ألم نتجاوز بعد مرحلة اصطناع كيانات وهمية لا وجود لها فى الواقع؟ أليس هذا الحديث استعادة لصياغة قديمة عن شرق روحانى فى مواجهة غرب مادى؟ ولماذا لا تقولون عالما متقدماً فى مواجهة عالم متخلف؟ أو شمال فى مواجهة جنوب؟

فى الحقيقة لم يكن هذا الفريق المتغرب من المثقفين العرب يريد رواج هذه المعادلة من جديد، مع أنهم يعلمون جيداً أن مصطلح الغرب دائم الحضور فى الغرب ذاته، ويعلمون جيداً أن من يتابع إنتاج المثقفين فى هذه البلدان الأوروبية والأمريكية يجد أن غالبية الإنتاجات الثقافية دائما ما يتم الإشارة إليها بالارتباط مع صفة الغربى. فيقال الشعر الغربى، الرسم الغربى،الموسيقى الغربية . . . بينما لا يريد هذا النفر المتغرب من مثقفينا أن نشير إلى أصولنا وملامحنا وهويتنا الثقافية والروحية.

فنحن هنا مع هذا النفر المتغرب، نعيش مفارقة لا نعرف كيف نفسرها : بين غرب يعى ذاته جيداً، ولا ينسى الإشارة دائما إلى أصوله وذاته، بينما الوجه الآخر للعملة - أى الشرق - يريدون له أن تغيب ملامحه وهويته الذاتية ، وأن يتحدث أبناؤه عن الثقافة العالمية، وعن ضرورة الأخذ والعطاء من الثقافات الأخرى، من دون تحديد لمواقع التبادل والتفاعل، لذلك كان استياؤهم واضحاً من رواج صياغة شرق فى مواجهة غرب، لأنها صياغة تبرز البعد الثقافى والحضارى وتبرز أهمية الثقافة الذاتية للشعوب فى الصراع الراهن.

وقد ساهم حوار الاستشراق والاستغراب، فى طرح مسألة تمثيل الثقافة العربية فى الحوار المقترح مع الثقافة الغربية. والتساؤل حول الكيفية التى يمكن بها تمثيل الثقافة العربية فى مثل هذا الحوار الذى نعتقد بأهميته للجانبين. ومن البديهى، بالنسبة لنا، التأكيد على أن بعض المثقفين العرب فى المهجر لا يمكن لهم أن يقوموا بهذا الدور الذى يمثل حقيقة وجوهر الثقافة العربية ، لأنهم يعيشون وضعاً حرجاً بين ثقافتين ولغتين وواقعين، وبالتالى يمنعهم هذا الوضع الحرج من تمثيل الثقافة العربية بصورة أصيلة. كما أن بعضهم، خاصة الذين أمضوا أكثر من ثلاثين أو أربعين عاما خارج أوطانهم، قد وصلوا إلى مرحلة من «العالمية»! أنستهم لغات وأفكار وعادات ومناهج النظرة المحلية لأوطانهم الأصلية، بل لا يخجل هذا البعض من رفض البديهات التى لا يختلف بشأنها أحد حول واقع وجود نظرة ورؤية وطنية وقومية من جهة، ورؤية أو نظرة خارجية إلى مجتمعاتنا من جهة أخرى.

وفى هذا النطاق ينشط هؤلاء المثقفون العرب المتغربون فى نقد كل المقومات الأساسية والثابتة، التى تشكل هوية هذه الأمة وملامح نظرتها الوطنية والقومية، ويثيرون الشكوك حول الجذور الحضارية العربية التى تشكل أرضاً خصبة لمقاومة السلطات الاستبدادية القائمة، وفى الوقت نفسه مقاومة هذا الغرب السياسى، ليس فقط على الصعيد العسكرى والاقتصادى والسياسى، بل أيضا على الصعيد الثقافى والحضارى.

فكيف يمثل الثقافة العربية من يقوم بنقد مقوماتها الأساسية؟ وماذا يتبقى له بعد إقصاء هذه المقومات كى يتحاور، من خلاله، مع الثقافة الغربية؟ بالطبع ليس هناك من يرفض نقد الأوضاع الثقافية السائدة، أو غيرها، لكن عندما يكون النقد موجها إلى تفكيك البنيات الأساسية لهذه الثقافة، فإن الأمر يدعو إلى التساؤل عن موقع هذا النقد ومشروعيته فى هذا الوقت. إذ لا يعرف المرء حقاً كيف يفسر موقف بعض المثقفين العرب فى المهجر، خاصة عندما يستمع لأحدهم، فى إحدى الندوات فى باريس، يتحدث عن اللغة

العربية بوصفها لغة ميتة، فى الوقت الذى يكتب فيه باللغة الفرنسية. كما لا يعرف المرء كيف يفسر هجوم البعض الآخر منهم على الدين، كدين فى حد ذاته، وليس كحركات دينية متطرفة، وذلك باسم الدعوة إلى معركة إبستمولوجية . فهل هذا الفريق المتطرف من المثقفين العرب يمكن أن يمثل الثقافة العربية بمجملها، أم يمثل ما هو هامشى فيها؟

الشئ المؤكد بالنسبة لنا، أن لهؤلاء المثقفين العرب فى المهجر دوراً لا يستطيع أحد أن ينكره عليهم، لكنه فى كل الأحوال لا يمكن أن يكون دور تمثيل الثقافة العربية فى حوارها مع الثقافة الغربية اليوم. وبالتالى على الأجهزة الثقافية الغربية المهتمة بمثل هذا الحوار، إذا كان اهتمامها صادقا، أن تكف عن الحوار مع من يشابهونها، عليها أن تبحث عما هو مختلف عنها،وإلا فلماذا الحوار إذاً؟ من الأجدى، فى هذه الحالة، أن يسمى المونولوج أو الحوار مع الذات. . إذ كيف يطلبون من هؤلاء المستشرقين العرب أن يمثلوا ثقافة شعوبهم الأصلية وهم على مسافة بعيدة عنها، وكيف يمكن لهم أن يقدموا صوراً عن واقعم وهم غرباء عنه؟! منطق الحوار يفترض الحوار مع الآخر، وليس مع اشباه الأنا . بالطبع نحن مع الحوار لكن نريد هذا الحوار حواراً مباشراً، مع رموز ومقومات الثقافة العربية . أما فيما يتعلق بالحوار فى ثقافتنا العربية والإسلامية، فالأمر يحتاج منا إلى جرأة وشجاعة أكثر للاعتراف أولاً بأن ممارساتنا، على أصعدة كثيرة، لا تعطى لمبدأ الحوار الداخلى الأهمية التى يستحقها . فما بالنا بالحوار مع الآخر وما يفترضه من شروط كثيرة لم تتحقق بعد لإنضاج مثل هذا الحوار، ناهيك عن عوامل ومبررات الصراع التى تحول دون بدايات الحوار الحقيقى.

كان من المفترض أن يحمل هذا الكتاب اسم حوار الاستغراب» كامتداد لكتابنا

الأول «حوار الاستشراق»، لكن واقع أننا نستخدم مصطلحات تثير القلق والتوتر، فضلاً عن التباسها على كثير من القراء، جعلنا نختار عنوانا مغايراً وهو «المثقفون العرب والغرب»، ورغم شيوعه إلا أنه أكثر انطباقاً على مضمون الكتاب وموقف مثقفينا من الغرب اليوم .

أحمد الشيخ

القاهرة : ٢٣ شوال ١٤٢٠ هـ
٣٠ يناير ٢٠٠٠ م

تمت أغلب هذه الحوارات، فى النصف الثانى من عقد الثمانينيات، ونشرت فى مجلة الفرسان، ومجلة الأسبوع العربى. فحوارى مع زكى نجيب محمود، فؤاد زكريا، فتحى رضوان ، محمد عزيز الحبابى، مصطفى صفوان، أنور عبد الملك، على فهمى خشيم، السيد ياسين، الحبيب الجنحانى، علال سيناصر، سميح فرسون، كرم خله، رينيه حبشى، أمين معلوف، نشرت جميعها فى مجلة الفرسان، أما حواراتى مع محمود القيعى، محسن مهدى، أنور لوقا، عز الدين قلوز، والقسم الأخير من حوارى مع فؤاد زكريا ،فقد نشرت بمجلة الأسبوع العربى، ولم تنشر من قبل حواراتى مع أنطوان المقدسى، ومحمد النيرب وندوة المركز العربى للدراسات الغربية مع حسن حنفى فى باريس (١٩٩٠) .

زكى نجيب محمود

خلافنا مع الغرب وَهْم متبادل



الحديث مع زكى نجيب محمود له متعته الخاصة ، فنحن هنا نتحاور مع مفكر يتميز بأسلوب أدبى رفيع عندما يصوغ أفكاره ، بحيث نجد أنفسنا أمام مفكر اتضحت أفكاره لنفسه ولقرائه، فهو لا يتحدث إلا عندما يكون القالب الذى يخرج فيه الحديث على قدر من الوضوح لا يحمل أدنى درجات الالتباس . . .

والحديث مع زكى نجيب محمود له أهميته الخاصة أيضاً وهى أهمية لا تنبع فقط من كونه أبرز المفكرين العرب حضوراً وإنتاجاً على مدار أكثر من نصف قرن أغنى فيها المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات فى حقول الأدب والفكر والفن ، بل لأنه كذلك أحد المنارات الهامة التى أدركنا من خلالها الغرب عبر ترجماته ومؤلفاته وما اشتملت عليه من مواقف تعبر عن إدراك معين للغرب ابتداء من كتابه الصغير «الشرق الفنان» وحتى كتبه الأخيرة فى تجديد الفكر العربى .

وموقف زكى نجيب محمود من الغرب موقف متميز ومثير للانتباه ويستحق أن يُروى بلغة صاحبه ،إذ بدأ بداية بها ميل شديد نحو الغرب أثناء مرحلة الشباب والدراسة ، وكما يصف فى سيرته «قصة عقل» : «كان منطقى منذ الأربعينيات فصاعدا فى وجوب الأخذ عن ثقافة الغرب منطقا بسيطا لا تعقيد فيه ولا التواء ، فما دمت قد رأيت فرقا شاسعاً بيننا وبينهم فى الحفاظ على حقوق الإنسان وكرامته، وفى تقدم العلوم والفنون ، وفى درجة الثراء والرخاء ونظافة العيش، وغزارة الإحساس بالحياة ، فلماذا لا ننقل إلى أرضنا مثل هذه الشجرة الفينانة المورقة المثمرة ، لعلنا نفئ إلى ظلها ونأكل من

ثمارها . . . لم تكن تدعونى إلى ثقافة الغرب صيحة مجنونة مفتونة بظواهر كاذبة ، بل هى دعوة دفعنى إليها ما رأيته من مكانة رفيعة للإنسان، كل إنسان من حيث هو إنسان وكفى ، فعندئذ قارنت - رغم أنفى - بين ما رأيته هناك وما كنت أعلمه عن قيمة الإنسان فى ثقافتنا .» ، وبعد انتهاء دراسته أخذ يدعو إلى اقتفاء أثر الغرب فى جميع النواحى. وكتب كتابه الشهير « شروق من الغرب » داعياً للانفتاح على حضارة الغرب كمصدر وحيد للنهضة . ويشير فى « قصة عقل » إلى موقفه فى هذه الفترة : « لم أكن فى تلك الأيام أفرق بين ما يجوز نقله عن الغرب وثقافته ومالا يجوز ، فكل ما عندهم واجب النقل إلينا مادمنا بحاجة إلى نتائجه . . . ، هكذا كان الرأى عندى حتى لقد بلغت فيه حدوداً من التطرف لم يعرف لنفسه حيطة أو حذراً » . وقد وصل زكى نجيب محمود بالفعل إلى القول بأن الوسيلة الوحيدة التى ينتفع بها من التراث هى « أن يلقى فى النار » ، وأنه « لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً ، وعشنا مع من يعيشون عصرنا علما وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم » ، لكن مع مروره من مرحلة الشباب إلى مرحلة النضج والحكمة بدأ يتحول من جديد . وقد عبر عن بداية هذا التحول فى مقدمة كتابه « تجديد الفكر العربى »: « لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات فى معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربى على مهل ، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبى - قديم أو جديد - حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام ، الفكر الأوروبى دراسة وهو طالب ، والفكر الأوروبى تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوروبى مسلاته كلما أراد التسلية فى أوقات الفراغ ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب فى التراث العربى لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة ، كالأشباح الغامضة يلمحها وهى طافية على أسطر الكاتبين » .

وأصبح تفكير زكى نجيب محمود منذ عام ١٩٧٠يتمحور حول سؤال طرحه ساعياً

أن يجد له جوابا مقبولاً وهو : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه أو فى صياغه » أخرى له : كيف السبيل إلى ثقافة موحدة ، يعيشها مثقف حى فى عصرنا . هذا ، بحيث يندمج فيه المنقول والأصيل فى نظرية واحدة ؟ وبين تراثنا الذى بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها؟ وحاول جاهداً اكتشاف هذه الإجابة ، فى كتبه الصادرة بدءاً من هذا التاريخ : تجديد الفكر العربى (١٩٧١) ، المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى (١٩٧٢) ، ثقافتنا فى مواجهة العصر (١٩٧٦) ، مجتمع جديد أو الكارثة (١٩٧٨) فى حياتنا العقلية (١٩٧٩) م ن زاوية فلسفية (١٩٧٩) هذا العصر وثقافته (١٩٨٠) ،هموم المثقفين (١٩٨١) ، قشور ولباب (١٩٨١) ، قصة عقل (١٩٨٣) ، قيم من التراث (١٩٨٤) ، عربى بين ثقافتين (١٩٩٠) ، حصاد السنين (١٩٩٢) ، وعبر هذه الكتب العديدة وغيرها مما لم نذكره خاصة « الشرق الفنان »، وجد زكى نجيب محمود الإجابة عن تساؤلاته فى القول بثنائية حضارية أو ثقافية على أن يكون التراث العربى الإسلامى هو الطرف الأول من هذه الثنائية المقترحة ، وثقافه العصر (الغرب) هى الطرف الثانى ، وعبر التوفيق بين هاتين الثقافتين نكون عرباً بتراثنا ومعاصرين بالقضايا والمشكلات التى نعيشها ، وبذلك نستلهم التراث ونحتك بالغرب احتكاكا يجعلنا نأخذ ما عنده ونعطيه ما عندنا .

ويقدم زكى نجيب محمود فى كتابه "ثقافتنا فى مواجهة العصر " نموذجا بليغا لهذه الثنائية الحضارية ولإمكانية التوفيق بين ثقافتين . ويرى أن الموقف الحضارى للأمة العربية اليوم يتركز فى سؤالين ، الأول هو : ماهى أهم العناصر التى نعنيها حين نتحدث عن الشخصية العربية الأصيلة ؟ أما السؤال الثانى فهو : ماهى أهم العناصر التى تتألف منها بنية الثقافة العصرية ؟ ويقدم طائفة من المقومات الأساسية الضاربة بجذورها فى أعماق تراثنا يقابلها موقف مضاد للحضارة التى نعاصرها (الغربية) ، وحاول أن يبين فى كل حالة من الحالات التى ذكرها كيف يمكن أن تحدث المصالحة بين الضدين فى قضايا تتعلق بالموقف إزاء الله والكون والإنسان وتجاوز الواقع المادى إلى ما وراءه

مـن غيب ، والتعامل مع الطبيعة المكانية ثم لغتنا التى تحمل ميراثنا فى أوعيتها . ومن خلال هذه المقومات أو النماذج قدم زكى نجيب محمود - كما يقول - ما يشبه الخريطة لما يمكن عمله، توفيقا بين الأصالة والمعاصرة .

من هذا المنطلق كان الحديث مع زكى نجيب محمود ضرورياً فى نطاق الحوار مع مفكرينا العرب عـن موقفنا من الغرب اليوم . ورغم متـاعبه الصحية فقد اسـتقبلنا زكى نجيب محمود بترحاب كبير ووافق على أن نجرى معه حواراً حول قضايا يعلم مسبقاً أنها لا تفترض حـواراً هادئاً ، وحاولنا قدر الإمكان أن لا نـرهقه بكثير من الأسـئلة حتى لا نقطع عليه أسلوبه الجميل فى صياغة أفـكاره . ولأنه لم يعد فى مرحلة صحية تسمح له بالإصغاء العميق للتساؤلات التى تفتح مجالاً للخلاف .

◆ قبل أن أبدأ الـحديث معه طـرحت أمامه التسـاؤل الذى انتهى إليـه بعض أقطاب الاستشـراق المعاصر من أنـه لا توجد دراسات ورؤى من الشرق إزاء الغـرب توازى ما أعطاه الغرب من أبحاث ودراسات عن الشرق . طرحنا هذا الـتساؤل على مفكرنا الكبير وسألناه إن كان يقبل ما طرحه المستشرقون أم يعترض عليه فقال لنا :

● تعميم الادعاء الـقائل بأننا هنا فى الشرق العربى لا ندرس الغـرب بمثل ما يدرسنا الغرب ، فيه تجاوز للواقع ، ذلك أننا إذا استعرضنا الفكر العربى منذ أول القرن الماضى - عندما انفتحت أبوابنا على الغرب - لوجدنا أنفسنا طوال هذه المدة ننقل عن الغرب ما استطعنا نقله ولم يكن هذا النقل مجرد ترجمة لـما يكتبونه وإنما هو درس لما يكتبونه ، وبالتالى تحوير وتبديل وتفسير وبث لوجهات نظرنا داخل عمليات النقل هذه . بل إننا لو حللنا ما يعـرض على طلابنا فى المدارس والجامـعات لوجدنا أن الكثيـر جداً من المادة المعروضة هى ذاتها ما يعرض على الطلاب فى الجامعات الأوروبية ، فنحن لم نتردد فى الأخذ عـن الغرب كل مـا ينتجـونه من علم وصـور فنيـة وأدبية والكثـير من الـنظريات السيـاسية أو الاقتـصادية أو حتى الاجتـماعية . كـذلك الآداب الغربية كـالأدب الفرنسى

والأدب الانكليزى تجد لها فى جامعاتنا أقساماً خاصة فضلا عن أن أقسام الأدب العربى تدرس لطلابها كل المذاهب النقدية الموجودة فى أوروبا وأمريكا . كل فلسفات الغرب أيضا بجميع تياراتها تجدها موضوعاً للدراسة عند طلابنا بصورة رسمية على أيدى أساتذة أفاضل يتفرقون شيعاً ومذاهب . فهنالك من يحتضن الوجودية وهناك من يحتضن الظاهراتية (الظواهرية) وهناك من يحتضن البراجماتية ، وهكذا تكون الحصيلة التى يخرج بها طالب الفلسفة هى حصيلة فيها هذه العناصر كلها . فيكون الطالب على دراية بما يقوله الغرب فى هذا الاتجاه أو ذاك . ثم إذا تركنا هذه الشرائح الدراسية الجامعية بمختلف أنواعها وتساءلنا فى نطاق الفكر العام والثقافة العامة . ماذا نكتب نحن فى صحفنا ومجلاتنا ذات المستوى المقبول ؟ إننا نكتب فى الغالب عن أهم ما يقال فى الغرب من مختلف المجالات . فإذا حدث تحول فى الرواية فى اتجاه ما . يكتب عندنا عن مثل هذا التحول الجديد ، وكثيراً جداً ما يصادف هذا التحول هوىً لدى أديب لنا فيحتضن هذا الاتجاه الجديد وينشئ أدبه على هذا الأساس ، فإذا تصادف أن انحرف الفن المسرحى أو فن الشعر انحرافاً حديثاً فى بعض الآداب الأوروبية وجدنا بين أدبائنا من يلتقط هذا الخيط الجديد ويصطنعه لنفسه فى ما يبدع .

نعلم جميعاً أن ما يسمى بالشعر الحديث فى الوطن العربى هو انعكاس لبعض التحولات التى طرأت على الشعر فى الغرب وهذا ينطبق على سائر فروع الأدب ، وهكذا فما من ميدان من ميادين السياسة والاقتصاد والتعليم فى الغرب إلا وله صداه عندنا سواء قبلناه أو عدّلناه . وبالتالى لا يمكن أن نقول إننا هنا - فى هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة - فى واد والغرب فى واد آخر . وليس صحيحاً ان يقال إننا فى هذا الجانب من حياتنا على غير وعى بما ينتجه الغرب أو على غير دراسة نقدية لما ينتجه . . . وربما كان القائلون من أبناء الغرب وعلمائه بأنهم يدرسوننا ونحن لا ندرسهم انما يقصدون هذا الجانب الذى يمس الرؤى الثقافية الخاصة . وهنا نقول : نعم ، قد حدث أن كثيرين من السادة المستشرقين قد تولوا هذا الجانب منا بالدرس أكثر مما توليناهم

نحن بالدرس فى هذا الجانب من الحياة ، الذى يشمل دنيا القيم التى يبنى على أساسها جانب كبير من نشاطات الحياة اليومية العامة والخاصة .

ففى إطار القيم بما تشمله من عقيدة دينية أحياناً وتقاليدنا التاريخية أحياناً أخرى يوجد الاختلاف بيننا وبين الغرب ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الغرب نفسه إذا نظرنا إلى شعوبه وجدنا بينها زوايا من الاختلاف حادة أحياناً ومنفرجة أحياناً أخرى فليس الإنجليزى فى رؤيته العامة والخاصة كالفرنسى . . . وبالتالى فى مجال القيم حدث ويحدث شىء من سوء التصور المتبادل بيننا وبين الغرب ، فبينما هم يصورون تراثنا لأنفسهم كما يحلو لهم ، نحن أيضا نتصور عنهم ما نتصور عن طرائفهم فى النظر والحياة .

◆ **هل سوء التصور المتبادل الذى أشرت إليه يطرح أمامنا مشكلة حدود التعايش الممكنة والمستحيلة بين العقلية العربية - إذا جاز التعبير - والعقلية الغربية ؟**

● الحقيقة التى لا مراء فيها هى أن الذى وسع هذه الفجوة الخلافية بيننا هو ظن ممزوج بكثير من الوهم عندنا وعندهم على حد سواء . وهذا الظن مرجعه وَهْم يقول بأن العقلية العربية مختلفة من أساسها عن العقلية الغربية وذلك ما أرفضه رفضاً قاطعاً ، فليست العقلية العربية مغرقة فى الدروشة الصوفية كما قد يتصورون وإنما يتميز العقل العربى بأن جمع بفطرته بين العقل والوجدان بدرجة انعكست فى ثقافته أكثر جدا مما انعكست فى أية ثقافة أخرى ، فإذا جاز لنا ان نقول إن وجهة نظر الغرب انما هى استمرار للرؤية اليونانية والتى هى رؤية منطقية الاطار ، فيها تحليل وفيها استدلال لنتائج من مقدمات ؛ ثم إذا جاز لنا فى الوقت نفسه ان نقول إن هناك ثقافات قديمة أخرى قامت فى الشرق الأقصى وكان قيامها على أساس الرؤية الحدسية المباشرة التى لا استدلال فيها وإنما خبرة حية مباشرة وإدراك بالبصيرة كما هى الحال فى إدراك الفنان أو المتصوفة ، أقول بعد ذلك أن العقل العربى كما ظهر فى تراثه فقد مارس الرؤيتين معاً

فى حياة واحدة ، وإذا كانت هذه المزاوجـة بين عقل ووجدان هى التى مكنت العربى من أن ينقل الفلسفة اليـونانية بأسرها من جهة وأن ينقل التصوف الـهندى والفارسى من جهة أخرى، فمعنى ذلك أنه بـهذه القدرة ذاتها يستطيع العربى الآن أن يعـيش فى الوقت نفسه فنونه وآدابه . هذا هو الأمر الواقع الـذى أجد أن كثيرين من مفكرى الغـرب وكثيرين من مفكرى العرب لا يرونه على حقـيقته ، فبينما يظن المفكر الغربى أننا لا نسـتطيع بطبيعتنا ان نهضم حضارته وثقافته ، نرى بعض مفكرينا أيضا يتصورون أن الغربى من جهة أخرى لا يستطيع أن يرانا على حـقيقتنا . ولعل بعض السر فى هذه المغـالطة أو الرؤية الخاطئة من الطرفـين مـعاً هو الظن بـأن الإسلام شيء مـختلف كـل الاختلاف عـن المسـيحـية واليهودية ممـا يجعل الغربى يتصور أننا من الناحـية الثقافية على قدر كبـير من الاختلاف عنه ، لكن إذا هم أمعنوا الـنظر فى هذه الديانات الثلاثة ، ورأوا فيهـا أوجه التكامل بدلاً من أن يبحثوا فـيها عن أوجه التباين لرأوا أنها جمـيعا كلمة إلهية واحدة جـاءت بتعبيرات مختلفة ويكفى أن أبانا جميعاً هو إبراهيم عليه السلام .

◆ **فى بداية الحـديث عندما طرحت عليك مـا يقوله بعض المـستشرقـين من أننا لا ندرسهم فى الغـرب مثلما يدرسوننا فـى الشرق . إجابتك هى أن ما ندرسـه فى مدارسنا وجامعاتنا هو ذاته ما يدرس فى الغرب وأننا فى مجلاتنا وأجهزتنا الإعلامية والثقافية ننقل للقارئ العربى صـوراً عن أهم ما يقال عن الغرب ، حتى أنـه إذا حدث تحول هناك فى هذا المجال أو ذاك وجدنا صداه لدى كتابنا ومفكرينا وفنانينا . لكن ألا تعتقد أن فى هذا سوء فهم لأنفسنا باختيارنا أليس فى هذا النقـل- الذى طال أمده - نوع من التبعية لثقافة الغرب وسوء فهم له ولنا ؟**

● الواقع أن حضارة العـصر ، وما يطبعها من وجه ثقـافى ، لابد بحكم الضرورة أن تكون ينبوعاً موحـداً لكل الشعوب التى تعيش فى هذا العصـر وهو ضرب من المحال أن ينطوى شعب من الشعوب على تراثه الحضارى غاضاً بصره عن حضارة العصر لأنه حتى

لو فعل ذلك فسيفاجأ بأسلحة العصر تغزوه فى دقيقة واحدة ، وبالتالى علينا أن نأخذ من هذا الينبوع الحضـارى الموحد بقدر طاقتنا على الأخذ ولا أرى عـيباً فى ذلك لأن الأمر مطروح امام الجميع ، فالمسألة ليست تبعـية وإنما مشاركة حضارية ، وهذه المشاركة لا تمنع شعباً من الشعوب من الاحتفاظ بهويته الشخصية لأن هذه الهوية قوامها فروع أخرى تضاف إلى التيار الحضارى العام ، فالهوية تظهر فى ما ننفرد به .

◆ **لكن كيف يظهر ما ننفرد به وأخطار النقل والأخذ عن الينبوع الحضارى الموحد ما زالت طاغية وتهدد بإغراق كل الخصائص التى ننفـرد بها وتشكل هويتنا الوطنية والقومية عبر السنين ؟**

● ليس هناك شك . فى أن الينبوع الحضارى المـوحد مركزه الغرب اليوم ، لكن قد لا يجرح هويتنا أن تشارك بالأخذ من الينبوع لأن مركـزه الغرب . فى اعتقادى أن التبعية ليست فى العلم ولـكن فى الثقافة التى تشكل الـهوية التى ينبغى أن ينفرد بـها كل شعب . . . فالعلاقات الأسـرية عندنا لها طابع معين . فى إنجلترا لـها طابع آخر ، فلو قلدت ما عندهم فى أسرتى لكانت تبعية عـمياء . لكن إذا درست فلسفة العلم عند «راسل» هل نسمـى ذلك تبعـية ؟! لا أعتـقد ذلك لأن فلسـفة العلم مـوضوع مـشترك بيـنى وبينه ، وبالتـالى لا أرى أن هناك تبعـية بأى معـنى من المعـانى فى العلوم وإننى أتـساءل : هل نستطيع أن ننتج علماً وحدنا ؟!

◆ **هذا عن العلوم الطبيعـية لكن ماذا تقول فى العلوم الإنسانية التى موضـوعها البشر بما تعنيه كلمة البشر من أبعاد متناقضة ومتصارعة ؟**

● لا تبعية فـى العلوم الإنسانية أيضا . تنشـأ الاختلافات فقط عند التطبـيق العملـى لهذه العلوم ، فإذا قلنا إن الإنسان متنافس ومتنازع بفطرته مع الآخرين ، فهذا قول ينطبق على الشرقى والغربى معاً ، لكن عندما نتحدث عن صور هذا التنافس والتنازع نجد هناك إمكانية للحديث عن الاختلاف والهوية .

ما الذى يشكل هذه الهوية فى تصورك ؟

فى حياة الإنسان مواقف هامة تقتضى ردود أفعال معينة إزاء الميلاد والزواج والموت ، ومثل علاقة ربة الأسرة بأفرادها ، علاقة الجار بالجار ، وعلاقة كبير السن بصغير السن . . . أمثال هذه المواقف عادة ما يكون لها ردود أفعال تقليدية يتعارف عليها كل شعب على انفراد ، ومن مجموعة ردود الأفعال على هذه المواقف تتكون هوية هذا الشعب ، أضف إلى ذلك علاقة الإنسان بالغيب . وبما يسمى بأولياء الله الصالحين ، أو علاقة الإنسان بماضيه وآثاره التاريخية . . . كل هذه الأشياء وغيرها يمكن جمعها وتحليلها فتجد فيها الميدان الذى منه تنبع الملامح القومية التى تشكل الهوية . . . فإذا كان هناك فرح ومأتم فى نفس اليوم وفى نفس المبنى فمن الذى يخلى السبيل أمام الآخر ؟ من البديهى أن يكون رد الفعل عندنا أن أصحاب الفرح يؤجلون احتفالاتهم ويصمتون إكراماً لأهل المأتم وليس العكس، هذه رؤية ورد فعل وقيمة من القيم ربما قد لا يوافق عليها الإنجليزى مثلاً . . . وهكذا فإن أمثال هذه الأشياء هى التى تحدد الهوية فى القيم وفى السلوك .

◆ **ماذا عن دور التراث فى تكوين هذه الهوية ؟**

● التراث يعطينا عدة أشياء لا غنى عنها فى تكوين الهوية ، أهمها اللغة وفى تصورى أنه أهم جانب فى هوية الإنسان لان لغته هى عقله وهى وجدانه ، هى ملتقى الفرعين معاً ، فمن التراث نأخذ اللغة جاهزة ولا نصنعها ، ونأخذ منه كثيراً جداً من قيم الحياة بمعنى ماذا يكون الأفضل ؟ ما الذى يجعل الإنسان بطلاً أو نذلا؟ ما الذى يجعل الرجل فاضلاً وما الذى يبعده عن الفضيلة ؟ وهكذا نأخذ من التراث هذا المقياسى أى مجموعة القيم المقبول منها والمرفوض أيضا .

◆ **من خلال استقرائك لمجمل الشروط السياسية والثقافية السائدة فى العالم العربى اليوم ، هل تعتقد أن هناك مؤشرات تشير لرؤية جديدة وموقف جديد من الغرب يختلف**

عن الموقف الذى اتخذناه منذ بداية النهضة العربية والانفتاح على الغرب ؟!

● أفراد الجماعات المتطرفة فى الدين من حيث المظهر الذى يتخذونه والمنحى الفكرى الذى يعادون به الغرب وما إلى ذلك هو فى نظرى نابع أساساً عن قهر حضارى ، يعنى لم نستطع أن نغترف من بحر الحضارة العصرية لنكون مع هذا الغرب تحت سقف واحد فأردنا أن ندافع عن هذا العجز بأن جعلناه مذهباً واتجاهاً، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فى هذه المرحلة بالذات من حياتنا هناك اضطراب اجتماعى واقتصادى وسياسى نشأ نتيجة ظروف كثيرة من بينها زرع اسرائيل فى هذه المنطقة ، وصعوبة التحول من القديم إلى الجديد بسرعة كافية ، ولكن فوق هذا كله فى عقيدتى إن هذه الجماعات لجأت إلى ما لجأت إليه صدوراً عن جهل لعدم الاطلاع الكافى بالقراءة والسفر، ولو علموا بما كان ينبغى أن يعلموا به لانقشع الكثير من هذه الأوهام التى يعيشونها .

فتحـــى رضـــوان

كراهيتنا للغرب مشروعة

فتحى رضوان من الشخصيات الهامة فى التاريخ السياسى والثقافى لمصر . والدور الرائد الذى نهض به على مدار أكثر من نصف قرن لايختلف بشأنه الكثيرون سواء قبل ثورة ١٩٥٢ أو بعدها . فعندما تخرج فى الجامعة عام ١٩٣٣ انخرط فى العمل الوطنى، وقاد مع زميله أحمد حسين تيار " مصر الفتاة " الذى جذب الشباب نحو العمل السياسى والوطنى . . . وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ كان فتحى رضوان فى السجن فخرج منه إلى الوزارة وعمل وزيراً فى عدة وزارات من أهمها وزارة الثقافة والإرشاد القومى . وأصدرت وزارة الثقافة فى عهد فتحى رضوان مجلة «المجلة» فى يناير ١٩٥٧ ، ومجلة نهضة أفريقيا، وأنشأ مركز الفنون الشعبية كأول مؤسسة علمية لتسجيل التراث الشعبى بمختلف أنواعه .وفى عهده تم إنشاء «البرنامج الثانى» فى الإذاعة وهو برنامج ثقافى . وتم إنشاء معاهد للباليه والموسيقى والسينما ومسرح للعرائس . وذلك فى الفترة من سبتمبر ١٩٥٢ حتى ترك الوزارة فى أكتوبر ١٩٥٨ . . ألف فتحى رضوان أكثر من ثلاثين كتابا فى مجال التراجم والسير، والدراسات الوطنية والقومية والإسلامية وفى مجال الأدب والفن، ومن أهمها : غاندى، محمد الثائر الأعظم، مصطفى كامل، هذا الشرق العربى، الإسلام ومشكلات الفكر، فلسفة التشريع الإسلامى، عصر ورجال، مشهورون ومنسيون، مومس تؤلف كتابا، شافع ونافع، يوميات محام صغير، الخليج العاشق . كما كتب فتحى رضوان، على امتداد نصف قرن، مئات المقالات الأدبية بعضها صدر فى كتب ، وبعضها الآخر ينتظر من يجمعها ويصدرها فى كتب .

أما موقف فتحى رضوان من الغرب فيمكن رصده من البدايات الأولى لفترة الشباب حين فكر، بعد تخرجه من الجامعة، فى عقد مؤتمر للطلبة الشرقيين من طوكيو

حتى الدار البيضاء . ثم بعد ذلك مع تطور وعيه الفكرى والسياسى، حين وصل إلى فهم عميق لمعنى الثقافة القومية، فهو يقول :

. . . لا أعنى بالثقافة، الجامعات، ولا مدى انتشار العلم بين أفراد الأمة، إنما أعنى الثقافة القومية التى هى خليط من العقيدة والتراث الفكرى الموروث، فهى حينما تكون نابضة حية ويكون الشعب متماسكا قويا، لا تفعل فيه الأحداث ولا تهزه المحن، بل إن هذه الثقافة ذاتها تدفعه إلى العمل والابتكار والتجديد ثم تهيئ له فرص الفيض على غيره من الأمم . . . وإذا أردنا أن تحمى أنفسنا من الاستعمار بأنواعه الثلاثة، السياسى والاقتصادى والعسكرى، وأن نحصنها منه، فلنحم ثقافتنا ولنجعلها أساساً لحياتنا، تنعكس صورها فى أعيادنا، وفى حياتنا اليومية، وفى حياتنا العامة . فالثقافة القومية هى خط الدفاع الأساسى الذى يسبق الخطوط الاقتصادية والعسكرية، بل هو الخط الذى يحمى تلك الخطوط، أو إن أردت الدقة هو الذى يخلقها خلقا . (الهلال - يناير ١٩٥٦) .

ويحدد فتحى رضوان موقفه من الغرب، فى تاريخ لاحق، بصورة أكثر وضوحا وحسماً عندما تحدث عن «حرب الحضارات» حيث يرى أن ما يتلهب به قلب الاستعمار الغربى من مطمع هو طمس الحضارة الخاصة ببلادنا والتى نشأت على شاطئ النيل ودجلة والفرات، وانتشرت فى الدنيا كأنها فى عصور موغلة فى القدم، وحملت أسماء عديدة فرعونية، يونانية، رومانية، عربية، عثمانية، كما حملت أسماء أخرى : إسلامية، مسيحية، يهودية، انتزاع جذور هذه الحضارة، يؤدى بطبيعة الحال، إلى القضاء على أقوى عناصر المقاومة فى منطقة الشرق العربى، لأن هذة المنطقة بعد إنقطاع صلتها بماضيها الحضارى، تيسر إندماجها فى الغرب، وذوباتها فى منطقه، واصطناع أساليبه ومناهجه، وانعدام الإحساس بالعدوان الحاصل عليها، بإعتبارها امتداداً للغرب .

ويرى فتحى رضوان أنه بالفعل " منذ بدأت عملية تغريب العرب، ونزعهم تدريجيا، وبدأب واستمرار من أصولهم الثقافية، وسماتهم الحضارية . . وإذا اتخذنا مصر، وما تم فيها، نموذجاً لتطبيق قواعد عملية التغريب وفتح أبواب الثقافة الأوربية لتلتهم كل ماهو عربى وماهو إسلامى وماهو شرقى، وتأكيد ترسيخ كل ماهو أوروبى،

وكل ماهو غربى، وإقامة العقبات والحواجز فى وجه إحياء الماضى أو بعثه، فإننا نجد أن الخطوة الأولى فى هـذه الخطة هى تسريح الجيش وتأليف قوة عسكرية ضعيفة تكاد تكون بلا سلاح، قوامهـا جنود مرضى وجهلة وفقراء يرأسهم ضبـاط لايعرفون من العلم العام إلا قشورة، ومن العلم العسكرى إلا السير فى المواكب وحمل بنادق فارغة من الذخيرة، وسيوف لامعة لم تستعمل قط ثم فك الأسطول المصرى، وبيعه لشركات أجنبية وتحويله إلى شركة ملاحة تجارية .. (الهلال - يونية ١٩٨٣) .

وفتحى رضوان يطلقون عليه، فى مصر، لقب « شيخ المناضلين » وبرغم أن اللقب يحمل قدراً من الإثارة لاتتفق مع مايعنيه النضال والكفاح إلا أن الذين يعرفون هذا الرجل جيداً، ويعرفون كفاحه المستمر أكثر من نصف قرن، يعرفون أن هذا اللقب استحقه فتحى رضوان عن جدارة، فالرجل طاقة وطنية لم تنضب ينابيعها، ولم يمتد الوهن واليأس إلى خلاياها حتى فى أحلك اللحظات . وكان ثالث زعماء الحزب الوطنى المصرى الذى أسسه مصطفى كامل فى بداية هذا القرن. وشارك فى تمكين ثورة يوليو فى بداية انطلاقتهـا، ولا يزال يتحرك فى مصر دفاعاً عن حقوق الإنسان فى الوطن العربى.

فى لقائنا الأول مع فتحى رضوان دار الحديث فى مكتبه عن إمكانات وحدود التغيير السياسى فى مصر . وفى اللقاء الثانى كان لنا معه هذا الحوار، فى إطار سلسلة الأحاديث حول موقفنا من الغرب اليوم، وكان الحديث مع فتحى رضوان ثرياً ومتشعباً وامتد ليشمل قضايا كثيرة بدأنا الحوار بتقديم فكرة موجزة لمحاورنا عن الإطار الذى تدور فيه سلسلة الأحاديث الباحثة عن استقراء موقف جديد من الغرب . فتساءل الأستاذ فتحى رضوان :

● من أى زاوية تريد أن نبدأ الحديث ؟ هل نبحث فى ترشيد علاقتنا بالغرب أم نبحث أولا عن طبيعة هذه العلاقة لكى نعرف عناصرها وكى نحكم فى المستقبل على أسس مدروسة .

◆ **أفتش أولاً عن ملامح هذا الموقف الجديد فى رؤية الغرب والتعامل معه، وكانت نقطة الانطلاق هى «سوء الفهم» المتضمن فى رؤية الغربيين لنا ثم رد بعض المستشرقين**

بأننا لدينـا سوء فهم أيضاً لـلغرب وأننا لم ندرس الغـرب بصورة موازية لدراسـة الغرب لمجتمعات الشرق .

● تحدثت معهم عن « سوء فهم »، وفى الواقع فـإن المسألة هى « سوء نية » أساساً لأن لديهم الـقدرة أكثـر منا فى الدراسـة والوصول إلـى حقائـق الأمور وبلغـة أكثـر دقة ووضوحاً، فهم لديهم الكوادر ومناهج البحث والـتبويب، لكن مشكلتهم أنهم لايريدون أن يتعرفوا على الحقائق بسبب الصراعات السائدة بيننا وبينهم بدءاً من قضية فلسطين إلى بقية قضـايا التحرر . . . كل هذه الأمور تجعلهم عاجـزين عن أن يصلوا إلى إدراك جيد وحقيقى . فالمسألة ليست سوء فهم بل سوء نية .

◆ لكنهم يقولون إن سوء الفهم موجود لدينا، وأننا لانعرف حقيقة هذا الغرب معرفة متعمّقة،وكل ما نملكه هو أحكام عامة جائرة وأننا لم نصل إلى مرحلة الاهتمام والفضول بمعرفة هذا الغرب معرفة دقيقة، وان الإبداعات الكبرى فى شتى ميادين النشاط الإنسانى هى إنجازات غربية، ولا نملك نحن ما نقدمه أو نضيفه إلى حضارة الغرب . . فهل تقبل مثل هذا الطرح ؟

● لا أستطيع أن أقبل مثل هذا الكلام . إنهم فى الغرب غـير منصفين ومتجنون علينا . إنهم معتدون علـينا، ليس فقط على صعيد إصدار الأحكام الجـائرة والظالمة بل أيضاً على الصعـيد المادى بالغزو والاحتـلال ولمدة قرون . . . فلا يجوز مطلقـاً بعد كل هذا التاريخ الاستـعمارى أن يقول بعضهم نحن مـتجنون عليهم لأننا لم نستـعمر بلادهم ولم نقتـحم ديارهم ولم نؤلف الكتـب للطعن فى أنبيـائهم وقادتهم، كـما فعلوا فى الـكتابة مجـلداً وراء مجلـد، للطعن فى الإسـلام وحيـاتنا بصـورة ساخـرة، إنهم ظالمـون لنا، وإنكارهم أنهم ظالمون لنا فيه تجنٍ أيضاً .

وهل نسوا الجزائر التـى ظلت محتلة أكثر من قرن ونصـف، ومصر أقل من قرن، وهل نسـوا أنهم فرضوا علـينا حضارة لأهداف غـير حضـارية . لو كانوا قـد وجدوا أن حضارتنـا متخلفة وأرادوا أن يأخـذوا بيدنا، لكان منطقـهم مقبولاً، فهـل جاؤوا ووجدوا شعوبنا تأكل اللحم البشرى ؟! ولا تؤمن بالـعقل الإنسانى . لكنهم جاؤوا ووجدونا دعاة سلام ومحبـة وإنسانية، وأننا صدرنا إليـهم أفضل ما عندنا وهو المسـيحية، فالمسـيحية

إنتاجنـا، والمسيح هو ابن الشرق العـربى، نشأ هنا وتربى هنا، وتعلم هنا، والذين ذهبوا إلى أوروبا وغزوا أفـضل أنواع الغزو وأشرفـها هم بطرس الرسول والقـديس مرقص . . وغيرهم، هم أيضاً أبناء هذا الشرق العربى .

نحن أهدينا إليهـم شيئا يتعلقون بـه ويتمسكون به ثم يقتلونـنا بعد ذلك من أجله، والتـاريخ يشهـد على ما أقـول . ألم يأت الصليـبيـون ثلاثة قرون ليـحتلوا أرضـنا باسم الصليب الذى أرسلناه إليهم، فهـل هناك تجنٍ العن من هذا وأسوأ من هذا . هل أرسلوا لنا شيئـاً يساوى المسيحيـة، أو يساوى اليهودية، أو يساوى الإسـلام . كل هذه الرسائل صـدرت من أرضنـا نحن، ومن إنـتـاجنا نحـن . فكان يـجب على هـؤلاء، لو كـانوا منصفـين، أن يقولوا : أيها الـشرق العربى نحن مـدينون لك بأجمل مـا لدينا . . ومـن ثم، نحن لا نستطيع أن نتهم أبداً بالتجنى أو التشويه .

الحقيقـة أن اختلاط السياسة بالـعلم، يفسد العلم، ويجعل الوصـول إلى الحقائق أمراً مستحيلاً، وأنا أريد أن أسأل هؤلاء "العلماء" الغربيين ما الذى جنينا فيه عليهم ؟

نحن لمـسنا الغـرب لمس اليـد ولم نقـرأ عنه فى كـتب، ولم ندرسـه عن طريق الفلـسفات - القديمـة أو الحديثة - نحن درسنا الغرب من الواقع وعرفنا أسـاليبه ودوافعه على الطبيعة، عرفنـا جيوشه الغازية، ومحاولاته المستمرة فـى مسخ عقولنا فى المدارس التى كانـوا يقيمـونها ويفرضـون على أولادنا وبناتنا أن يتـعلموا بهـا ابتزازاً لحاجـتنا إلى التعليم، فنحن عندما نـرسل أولادنا لمدارس الليسيه فإنهم يتعلمـون قدراً كبيراً من سب وقذف كل ما هو شرقى وعربى ومسـلم وذلك فى كتب التاريخ. . . ومع ذلك نرسل لهم أولادنا لأننا نسـلم بأن العلم الصـحيح عندهم . وهـذا يدل على ثلاثة أشيـاء، أننا أولاً نحب العلم والـدليل أننا نرسل أولادنا لهم، وثانـياً أننا متـسامحون وأنـه على الرغم من الطريقـة التى تعـامل بهـا عقـولنا على أيدى الـذين يعلمـوننا كنا نشـيد بـهم وبدورهم، ويتـحدث أولادنا الذين درسـوا فى مـدارس الليـسـيه والـفرير والـمدارس الأنـجليـزية والأمريكية، عن النظام والنظـافة واحترام المواعيد وحسن العلاقـة بين الأستاذ والطالب، فالاشادة بهم تبدو واضحة فى كثير من المواقف، وهى إشادة من القلب مما يدل على أن الشرقى عنـدما يجد أى مظهـر من مظاهر التقدم والإنـسانية وحسن الـمعاملة فإنـه يقابله

بأضعاف قيمة هذا الشئ الآتى من الغرب، ثم إننا علّمنا أولادنا - بل إن أعظم علمائنا أرسلناهم ليتعلموا فى جامعات السوربون وأكسفورد وكمبردج والكوليج دو فرانس . وكلك بقية أبناء الشرق مثل غاندى ونهرو اللذين تعلما فى جامعات إنجلترا .

نحن أقدم فى الحضارة وأعرق فى العلم، ولأننا موطن الرسالات الدينية الكبرى - اليهودية - المسيحية . الإسلام - فنحن أكثر تسامحاً منهم وأشد انحيازاً للعلم منهم، مع أن الأمية تفتك بنا، ومع أن المرض يقتلنا، ومع هذا نحن حريصون على العلم وتقدير العلماء وإشادتنا بفضل الغرب تفوق كل تصور، مع ذلك نحن نعرف من حضارتهم الشئ الكثير ونحن نعترف بأن لدى الغرب الكثير من الإنجازات من ناحية وطرائق البحث العلمى المنهجى القائم على التجربة والتطبيق والاستقصاء، وفى كل مجالات نشاطنا نتحدث عن شكسبير وديكنز وفكتور هوجو وسارتر وتشيكوف وشوبنهار وجوته كأنهم مفاخرنا، فماذا يراد منا أكثر من هذا !؟ وما هى الطريقة - التى يقترحونها لنا ! - لكى نعرف الغرب على صورة حقيقية أكثر من قراءة الآثار التى أصدورها، وجمعها، وترجمتها، والتأثر بها، والتمتع بما تحتويه، ولا أظن أن يطلب من أى جماعة إنسانية كى تعرف جماعة أخرى أكثر مما عملناه نحن . لم نقصر أبداً، بل هم الذين قصروا وجنوا علينا، لأن السبق الحضارى فى القرون الأخيرة أعطاهم فرصة أن يحكمونا وصدّروا لنا أسوأ ما عندهم من التعصب الشديد للمذهب حتى ولو كان مذهباً يدعو للتسامح، فحروبهم الدينية كانت كفيلة بأن تنفر الشرقى المتسامح منهم إلا أنه لا يزال يتحدث عن حضارتهم وعن تقدمهم . . .

◆ **إذا سمحت لى أريد إن أقول أن موقفنا من الغرب وإدراكنا له يحمل «سوء فهم» أيضاً . وجهة نظرى هذه تختلف جذرياً عن وجهة نظر المستشرق، فأنا أرى أننا وصلنا لمرحلة لم نعد نعرف فيها ما يميزنا عن الغير، فبالنسبة لنا إذا كنا قد فتحنا قنوات مع الغرب منذ أكثر من قرنين وكنا نعرف فى البداية ما نريده من الغرب، كنا نعيش فى تخلف ونسعى إلى التقاط ما هو متقدم لدى الغرب، أما اليوم فأعتقد أننا فقدنا تدريجيا، الإحساس بهويتنا، وننقل عن الغرب نقلا لا نعرف منه ماذا نريد، فأصبح لدينا فى واقعنا وفى مختلف المجالات نوع من الغرب المحلى أو الاستشراق العربى، فإذا كان هناك المستشرق الغربى الذى ينظر إلى واقعى وحضارتى وثقافتى من الخارج - من خلال**

معـايير فى النظر والرؤية - فـهناك أيضاً المـستشرق الـعربى الذى ينظر إلى واقـعه من الخارج أيضا وكأنه ليس ابن هذه الثقافة أو منتمياً لها أو امتداداً لتاريخها، وهنا ما أقصده بسوء فهـمنا للغرب من وجهـة نظرى أنا وليس من وجهـة نظر المستشـرق الغربى الذى يسعى بالطبع إلى تعميق ظاهرة الاستشراق المحلى لأنه يؤدى الدور نفسه لصالح الغرب، وبصورة أفضل من المستشرق الغربى ذاته، فـهل تعتقد، بهذا المعنى، أن هناك سوء فهم للغرب متعمداً من جانب بعض باحثينا وسوء فهم لنا بالتالى، وبحيث أننا فقدنا ما يميزنا كجماعة إنسانية ؟

● نحن نمر بمحنة صحية، على المسـتوى الثقافى والحضارى، لأننا عندما بدأنا ندرك حـضـارة الغـرب، وعلّمنـا أولادنا فى مـدارسـه فى الداخـل والخـارج، فى مـختـلف المجالات، فى فـروع العلم الحية والعلوم الإنسـانية، وحاولنا أن نقتحـم هذه المجالات التى كانت محرمة علينا منذ بدأ الاستعمار الغربى منذ عام ١٨٨٢إلى ما بعد ١٩٣٦ - فى مصر، وكـان هناك أمر صريح من الغـرب بتنحيتنا عن مجـالات العلم الحقيـقية، مع أن مجالات العلم الحقـيقية أخذت منا، فنحن الذين علمناهـم، وباحثوهم الاوائل - روجر وفرنسيس بيكون - يعترفون بأنهم نقلوا العلـم التجريبى من علماء المسلمين فى الأندلس لتعلم العـلم - لما استطاعوا أن يبـدأوا حياتهم العلميـة الحديثة وأن الثوب الجـامعى فى الجماعات الغربية ليس الا العباءة الإسلاميـة التى كان يرتديها المعلم فى المسجد . ولقد كانت الاكتشافات العلمية فى هذا الوقت وقبله من إنتاج العقل العربى الإسلامى . فنحن أمة علم بالمعنى الحرفى لكلمة عـلم . نحن الذين أسسنا العلم . ولا توجد أمة صنعت علماً بكامله من الألف إلى الياء مثلما فعلنـا نحن فى علم الجبر . هذه أشـياء لا يعرفها أولادنا الآن .

◆ **إذا كانوا لا يعرفون ذلك فنحن نعيش محنة تراجيدية .**

● المشكلـة أنه لم تعد هناك مؤسـسات ثقافية تـصل الناس بجذورهم . أما بالنـسبة للأزهر - باخـتصـار - فلا يوجـد شئ اسمـه كليـة طب الأزهر، علوم الأزهر وهنـدسة الأزهر وزراعة الأزهر، لأنهـا تحتوى على أضـعف الطلاب واضعف الأسـاتذة - بالطبع هناك الشـهادات فالأسـتاذ الذى لا يجد لـه مكاناً وترفضـه الكليات الأخـرى يذهب إلى كليات الأزهر، والطالب الذى يحصل على أقل الـدرجات ولا يجد له مكاناً فى الكليات

يذهب لكليات الأزهر، وبالتالى تجمع هناك أسوأ الأساتذة، وأسوأ الطلاب، برغم أن الأزهر هو الجامعة الأصيلة التى علمت العلوم الحديثة، فلم يكن هناك من قبل شئ اسمه علوم دينية وعلوم مدنية، فكان الأستاذ يدرس الحديث أو الفقه ثم الجبر أو الهندسة أو الجغرافية، وكان رأيى أن نجعل ثانوية الأزهر ست أو سبع سنين ونختار الطلبة الأفذاذ وليس الذين لا تؤهلهم درجاتهم لأى كلية جامعية، ونصرف عليهم ونجعلهم يدرسون العلم الإسلامى والعلم الحديث معاً . وعندما ينتهى من المرحلة الثانوية ينتقل إلى الجامعة، وبذلك يكون قد ألمّ بالعلوم الدينية والعلوم الحديثة، وتختار كليات الأزهر فى هذه الحالة من الطلاب الأزهريين الذين عاشوا فى ظلال العلوم الدينية ولم ينقطعوا عن علوم العصر، فيصير الطالب عالماً ازهرياً عن حق . ومن هذا الطريق نصل الحاضر بالماضى صلة حقيقية غير مفتعلة . أنا أريد الأزهرى بكل خصائصه وبالعلم الأزهرى كاملا وبعد ذلك أعطيه العلم الحديث، فتراثنا القديم ملىء بثروات وكنوز هائلة من حيث الفكر والوصول إلى أعماق الحقائق، لكن عليك أن تخوض أهوالاً من أجل إعادة تبويبها ومراجعتها وتنقيحها وإعادة بنائها، واستبعاد ما لا يلزم منها وإحلال ما هو جديد مكانه.. نحن صلتنا بأنفسنا مقطوعة ومن هنا يجب أن نعيد هذه الصلة مع أنفسنا ولإنجاز ذلك لابد أن توجد جامعة، وهى موجودة فعلا - جامعة الأزهر - وتكون مهمتها اختيار أفذاذ الناس من المصريين والعرب الذين يبدو على وجوههم النجابة وعلى أبدانهم الصحة، للنهوض بهذا المشروع .

◆ **هل تعتقد أن الاتصال بذاتنا يعتمد فقط على جامعة الأزهر؟**

● الأزهر هو المثل الذى يمكن أن يحتذى به بعد ذلك، ولا تنس أن جامعات الغرب الكبرى هى جامعات لاهوت أولا، السوربون أسسها كاردينال، جامعة هارفارد تحمل اسم قسيس، ترك نصف ثروته لتأسيس كلية تعلم اللاهوت فقط، ومع الوقت أضافوا لها كلية للتربية من أجل إعداد القسس ثم تتالت الكليات بعد ذلك، وعلينا نحن أن نبتدئ باللاهوت (الدين) كى يصل بنا إلى الترجمة والأدب، وعندما تكون السوربون وهارفارد وكمبردج بدأت كليات لاهوت تقليداً للأزهر ومحاكاة له، فلماذا لا نعيد ما بدأنا به، لماذا لا يدرس النشء العلوم التراثية كلها منذ دخوله المدرسة وحتى وصوله على أعتاب المرحلة الجامعية وحتى يتشرب هذه العلوم بطريقة طبيعية وميسرة وليس بصورة منفرة

كما هو شائع الآن.

إذاً فلنشيد نحن بناءنا الخاص بالطرق العلمية الحديثة مع توفير الروح العربية، وهذا هو المطلوب فى كافة المجالات، علينا أن نقدم لمواطنينا شيئاً يتعلقون به، وبدلاً من أن نعظهم عن أهمية العلم القديم وعظمته، علينا أن نعلّمهم هذا العلم أولا . فالمواطن العربى على استعداد أن ينتمى لذاته مرة أخرى بل هو تواق إلى ذلك لكنه لا يجد سبيلا لأنه لا يوجد أمامه سوى دعوات ومقالات صغيرة تتحدث عن الانتماء والهوية كمجرد كلمات ثم يجد المواطن نفسه بعد ذلك فى حالة فراغ، علينا أن نعيد هذا المواطن إلى ماضيه كاملا ونربطه فى ذات الوقت بما هو حديث، أى أن يعيش لحظة الانتماء بصورة جيدة، ولحظة الحاضر بصورة جيدة أيضاً . وللأسف ما هو قائم لا يكشف عن انتماء ولا عن استيعاب لما هو حديث، تجد الشخص يحدثك عن كتب من التراث، من دون أن يقرأ عنها شيئاً، وكذلك تجد على الجهة الأخرى من يحدثك فى الثقافة، عن شوبنهور هيغل، سارتر، برنار شو، ومن دون أن يقرأ كتاباً واحداً لأى منهم، أنه يقرأ فقط أسماء ويعتقد أنه يعرفها جيداً" لمجرد أنه حفظ بعض هذه الأسماء وقد تعجب إذ قلت لك إننى قرأت مؤخراً كتاباً عن آل سعود، فإذا بالمترجم العربى ينقل الأسماء كما هى فى النص الأجنبى دون أن يدقق فى واقع الكلمة العربية فمنطقة الإحساء بالسعودية يكتبها الإحصاء وأشياء من هذا القبيل . المشكلة أن هذا المترجم لا يعرف أصلا تاريخ المنطقة العربية ولا أسماءها ولا أقاليمها، ومن هنا أنا أدعو إلى الإهتمام بالأزهر بوصفه «المشتل» حتى يخرج لى أناساً أدفع ببعض منهم للإشراف على لجان التأليف والترجمة والنشر . وبعضهم رؤساء تحرير للصحف، وبعضهم وزراء.. لأنهم يجمعون بين العلم القديم على طريقة صحيحة والعلم الحديث بوسائله المعروفة، وبذلك يستطيعون أن يربطوا بيننا وبين الماضى بأساليب الحاضر، ويصلوا بين هذا الماضى وهذا الحاضر بطريقة صحية وليس بالوعظ والإرشاد .

ألا تعتقد أنه من شروط الوصول إلى هذه المـرحلة المتقدمة أن يكون هناك وعى ذاتى متقدم ومتخلص من حالة الوعى المغترب أولا، وكى يتم البناء على أصول صحيحة بعد ذلك ؟

الذين يعرفون الماضى قليلون جداً لـذلك لابد أن يكون هناك هذا المشتل، ليعلم الناس كيف يفكرون وكيف يكتبون، لأن الكتابة بالـطريقة المغتربة تشوه الناس، والكتابة بالطريقة القديمة تنفرهم .

◆ **ألاحظ أن نقد وعينا بالغرب لا يحتل مساحة بارزة فيما تطرحه من آراء إصلاحية، فلكى أبنى بناء أصيلاً – أكرر – لا بد أن أقاون قليلا هذا التعلق المريض بالغرب.**

● بالطبع يوجـد هذا التعلق الشـديد بالغرب فأنا أحـياناً أقرأ بعض الكتـب فأجد أن المؤلف يصـر على أن يكتب بجوار بعض الكلـمات مرادفها الفـرنسى من دون أن يكون القارئ الـعربى فى حـاجة إلى ذلك . فمـثلا تكتـب كلمة عـقلانية وبجـوارها مرادفـها الفرنسى، من الـطبيعى أن تكتب الكلـمة بالفرنسيـة عندما يكون المصطلـح الفرنسى هو الأساس ونقل إلى العربـية مثلما يقول السورى مـثلا «شركة مغفلة» وتقـول نحن «شركة مساهمة» فهنا من المشروع أن نكتب المصطلح الفرنسى لأن الترجمة العربية قد لا تكون موفقـة هنا أو هناك . لكن لا معنى لأن تكتب كلمـة باب أو شباك وبجوارها مـا يرادفها بالفرنسية. . .

◆ **إذا سمحت لى أريد أن ألح مرة أخرى فى طرح التساؤل، فى إطار البناء واستعادة الذات، أريد أن أعرف مدى تصورك لأهمية إدراك جـديد للغرب، ووعى جديد بالغرب قادر على أن يضعه فى حدوده الجغرافية والحضارية ألا يسبق البناء وعى ذاتى متقدم؟**

● ما هو الـوعى؟ أنا ضد استـخدام كثـير من التـعبيرات، فـبدلا من أن نقـول نعلم الأولاد، يتحدثون عن بنـاء الإنسان . وأنا لا أعرف ما المقصـود ببناء الإنسان، أنا أرى

هذا اغتراباً فى استخدام مصطلحات ذات رونق . . . فالذين يتحدثون عن البناء عليهم أن يعرفوا أن القضية هى أن نزيد عدد المدارس، ونرتفع بمستوى التعليم ومناهجه، ونعالج المرضى . . . هذا هو البناء . وأنا رأيى لكى نضع الغرب فى حجمه الطبيعى ونتخلص من محاكاته والمباهاة بأننا تعلمنا فى مدارسه وجامعاته . علينا أن نجد منافساً له فى أراضينا ولا يمكن أن أنجح فى خلق منافس للغرب إلا إذا عرف أولادنا الشرق بصورة جيدة وجذابة وممتعة .

◆ **لكن وأنا أفعل هذا أصطدم بما هو موجود فى الواقع الآن، وبالتالى قد يكون الانتظار حتى أستطيع الوصول لمرحلة المنافسة والمقارنة أمراً لا جدوى منه وربما قد يظل انتظاراً دائماً !!**

● أنا لا أتحدث عن تعليم الناس كلها دفعة واحدة، بل أبدأ بعمل مشتل يفرز قادة وروداً فى كافة المجالات. مثلما فعل رفاعة رافع الطهطاوى الذى ألف كتابين أو ثلاثة لا تزال تفعل فعلها حتى الآن، وكذلك الذين صنعوا النهضة المصرية فى عهد محمد على وما تلا ذلك - لم يتجاوز عددهم خمسين شخصاً - ذهبوا إلى الغرب وتعلموا وعادوا بعلمهم إلى بلادهم ولم تغلبهم أبداً محبتهم لفرنسا وإعجابهم بها، ولم يصلوا إلى مرحلة التنكر لبلادهم .

◆ **من خلال استقرائك للواقع اليوم ولعلاقة الشرق بالغرب. . هل تعتقد أن هناك موقفاً جديداً من الغرب يتبلور هذه الأيام بصورة مغايرة لما عاصرناه ؟**

● هذا بدأ فعلا مع اندلاع الثورة الإيرانية وظهور الخمينى، الذى يعتبر الحضارة الغربية حضارة فارغة وجوفاء وأنه يجب علينا أن نتحرر منها ومن تأثيرها علينا، أى التخلص من الغناء الغربى والعادات الغربية والملابس الغربية، كل هذه الأمور تطارد وتحارب حرباً سياسية وليست حرباً عقلية، لكن هناك من جهة أخرى عودة إلى الشخصية العربية والشرقية والإسلامية وميل إلى مزيد من العلم والمعرفة بأصولنا وهذا

شئ جميل وينتظر أن ينمو . وطبعاً هذا مصحوب فى بعض الأحيان بكراهية شديدة للغرب، وهى كراهية مشروع، لأن الغرب لا يزال يطاردنا بطريقة سيئة جداً . لكن أنا بلا شك مدين لهذا الغرب بكل الميكانيكيات والآليات التى تسمى تكنولوجيا، وأنا لا أرفضها أبداً، وقد أرفض ما تنتجه من تبعية عقلية للآلة ومصدرها . وتحويل المسائل الإنسانية إلى مسائل مادية خالية من الروح لذلك كل ما تعرفه الحضارة الغربية هو عكس ما قصدته من ماكيناتها، هذه الماكينات انتهت إلى نقيض ما جاءت من أجله، أنها إذاً حضارة غربية بلا روح وشريرة جداً، ولا تنتج أبداً إلا للكسب وليس للإسعاد والدعوة، إلى الإنتاج فى الحضارة الغربية ليست دعوة إلى الوفرة والرخاء وإنما هى دعوة إلى الكسب . ومن هنا تجد انتاجاً أوفر جداً وتجد أيضاً مجاعات لم نسمع بمثلها من قبل . . فأنا أعتبر الحضارة الغربية حضارة سيئة وضارة وبلا روح واستعمارية وقائمة على الهيمنة والسطو، فهى أسوأ حضارة عرفها الإنسان مع أن منتجاتها فى منتهى العظمة لكنها تحولت كلها إلى الشر والتدمير والسيطرة والقهر .

◆ **فى حديثى مع مصطفى صفوان، فى إطار سلسلة الأحاديث عن الموقف من الغرب اليوم، قال إن الحضارة الغربية مبدعة فى أدوات الانتاج ومبدعة أيضاً فى أدوات التدمير .**

● وأنا أرى أنها مبدعة فى التدمير أكثر جداً من إبداعها فى الإنتاج بلا شك، ولم تنتج شيئاً مبدعاً يوازى ما أنتجته على صعيد إلقاء القنابل فى هيروشيما ونجازاكى، إذا افترضنا مؤقتا أن القتل إبداع . . . فكونها تقتل وتدمر مليون كائن بشرى فى ثوانٍ فأنا لا أرى أنها انتجت شيئاً إيجابياً إنسانياً يوازى كارثة ما أنتجته على صعيد التدمير .

فـؤاد زكريـا

الغرب لم يفرض ثقافته

فى نطاق سعينا نحو موقف جديد من الـغرب اليوم، ونحو موقف جديد أيضاً من الذات، ومن الطريقة التى أدركت واسـتوعبت بها الغرب فى القرنين الماضـيين . سعينا لإجراء هذا الحوار مع فـؤاد زكريا، لأنه من المفكـرين القلائل فى العـالم العربى الذين يملكون رؤيـة واضحة وثابتـة عن الغرب، بل أكـاد أقول أن فؤاد زكـريا ترتبط كتـاباته ومواقفه بنوع من الدفاع عـن الثقافة الغربية، منذ كان رئيساً لمـجلة «الفكر المعاصر» فى أواخر الستـينيات فى مصر . وحتى هذه اللحـظات لم يغير الدكتور فـؤاد زكريا قليلاً أو كثيراً من آرائه مع أن كـثيراً من المفكرين العرب قد راجعوا أفـكارهم بصورة واضحة فى الفترات الأخيرة، ولا نعرف فى الواقع إذا كانت هـذه ميزة تحسب فؤاد زكريا أم تحسب عليه، لـكن الشىء المؤكد أن فـؤاد زكريا يقدم وجـهات نضر تفرض عـلى القارىء أن يتمعن فيهـا كثيراً قبل أن يصدر حكماً ما . فالقارىء يلـحظ أولاً أن هناك صدقاً وهموماً تدفع هذا المفكر والفيلـسوف إلى اتخاذ مثل هذا الموقف من الثقافـة الغربية . وقبل أن نبـدأ الحوار مع فـؤاد زكريا أطلـعناه على الحـوار الذى سبـق أن أجريناه مع عـدد من المستشرقين والتساؤل التالى: لماذا لا يـوجد استغراب يوازى ما أنتجه الغرب من أبحاث ودراسات عن الشـرق ؟ وطلبنا من فؤاد زكـريا أن يقول لنا رأيه أولاً فى هذا التـساؤل، فأجابنا :

● هناك بعض العرب الذين يعيشون فى الخارج، فـضلا عن بعض المستشرقين، فى الحوارات التى أجريتها معهم يميلون فعلا إلى المعانى المتضمنة فى مثل هذا الطرح الذى

يقول لماذا لا يوجد من جانبنا استغراب، وأنا أرى من البداية أن هذا رأى خاطىء، بل على العكس فنحن لا نحتاج لأى نوع من الاستغراب لسبب بسيط هو أنه موجود فى حياتنا وتعليمنا وثقافتنا منذ القرن التاسع عشر، ومنذ اللحظة التى كان يعرض فيها الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى على الناس الأشياء التى بهرته فى باريس، بدأ يحدث نوع من الاستغراب بمعنى محاولة من شرقى لفهم هذا المجتمع الفرنسى وتقديمه إلى المجتمع المصرى، ثم بعد ذلك محاولات استقدام الأجانب من أيام محمد على وفتح مدارس لتعليم الطب والهندسة والعلم الغربى بصفة عامة، ثم فترة الخديوى اسماعيل وما تضمنته من اتجاه واضح نحو الغرب، وهناك أيضاً دور المثقفين طوال القرن التاسع عشر والقرن العشرين الذين حاولوا الاقتباس من الغرب، ونقل فنونه وآدابه وعلومه . . . أضف إلى ذلك المناهج التعليمية فى المدارس والجامعات، وبالتالى فالمطالبة بأن يكون هناك استغراب مواز للاستشراق هو أمر يثير الاندهاش - بالمعنى الشائع للكلمة - فالاستغراب موجود وموجود على نطاق واسع بل أن الذين ينتقدون حركة الاستشراق، فى الحقيقة يدعون إلى أن نقلل من كمية الاستغراب الموجودة عندنا حتى نهتم أكثر بحياتنا وثقافتنا الخاصة، وبالتالى لا يوجد معنى وراء هذه الضجة التى تستهدف إظهار أنه لا يوجد استغراب لدينا، أنا أقول لهم لدينا استغراب فعلاً .

من جهة أخرى هناك بعض الأحكام الحضارية إزاء الغرب أعتقد أنها خاطئة فى اتجاهين، هناك مثلاً أصحاب الاتجاهات الإسلامية يحاولون تصوير الحياة الغربية والحضارة الغربية بصورة تتضمن قدراً كبيراً من التشوية، لكن هذه ليست محاولة للاستغراب بل تدخل فى نطاق الدعاية الأيديولوجية التى تنتجها الجماعات الإسلامية من أجل الوصول إلى أهدافها الخاصة، ومن أجل أن تصل إلى نتيجة مؤداها أنه لا خلاص لنا إلا بالعودة إلى الهوية الإسلامية لأن الغرب منحل وفاسد ومدمر وحياته ضائعة وفى طريقه إلى الضلال وأن الحضارة الغربية هى حضارة تفنى نفسها بنفسها وفى طريقها إلى

الزوال . . . فى اعتقادى أن هذا التصوير يحمل قدراً كبيراً من التشوية لكنه تشوية متعمد ولأغراض دعائية .

من جهة أخرى هناك محاولة لنقد الحضارة الغربية على أيدى مثقفين علمانيين تصل إلى نتائج مشابهة إلى ما وصل اليه الإسلاميون، من ناحية أنها تدين الغرب لأنه مغرض وعلمه مغرض وليس موضوعياً، ولا يقترب من الشرق إلا بهدف السيطرة عليه . وبالتالى يحاولون إقامة نوع من الحاجز بين الثقافة الغربية والثقافة الشرقية قبل الأوان، وقبل أن تنضج الظروف فعلاً لكى يقام هذا الحاجز بصورة تلقائية . والنتيجة العملية لذلك هى أن الاتجاهين معاً - النقد الإسلامى للغرب والنقد العلمانى للغرب - يصلان إلى النتيجة نفسها .

● **ماذا تقصد بالنضج قبل الأوان فى هذا السياق ؟**

● أعنى أننا لم ندرس حضارتنا بما فيه الكفاية، نحن درسنا حضارتنا دراسة تشوهها دائماً فكرة القداسة، بمعنى أن أى اقتراب من التاريخ الإسلامى أو الفكر الإسلامى أو حتى الحياة الإسلامية، يكون مشوباً منذ البداية بفكرة إظهار هذا التاريخ بصورة مقدسة، وحتى لو لم تصرح بذلك فأنت تفترضها - هذه القداسة- فلنستعرض الكتب والدراسات المخصصة لهذا، فسنجد افتراضاً ضمنياً موجوداً بقوة. حتى عند الذين لا يصارحوننا بذلك وهو أننا نريد أن نبتعد بتاريخنا الإسلامى وثقافتنا الإسلامية عن «الدنيوية»، وعن العيوب التى قد تلحق بنا من هنا أو هناك، ثم نريد أن نثبت أن تاريخنا مقدس، ومن خلال ذلك يبدأ البحث فى الخلفاء والفلاسفة والمفكرين . . .

هذه هى المقدمة الأولى والفكرة المضمرة التى تؤثر بقوة - حتى لو لم نصرح بها - فى كل كلمة نقولها عند بحثنا ودراستنا لثقافتنا وبطبيعة الحال هذا يؤدى إلى توسيع نطاق المحرمات والمناطق التى لا تستطيع الاقتراب منها، فمن الذى يستطيع

لدينـا أن يـعرض لجوانب مـعينة فى السـيرة النبوية . . . هـذا مستحـيل . . . من الذى يستطيع لدينا أن يعرض لجوانب معينة فـى حياة الخلفاء الراشدين ؟ من الذى يستطيع أن يصدر أحكاماً موضوعية فى ما يتعلق بالعلاقة بين الجماعات الخارجة عن الإسلام السنى والتيار الرئيسى . . . وهكـذا هناك جوانب لا تستطيع الاقتراب منها نتيـجة فكرة التداسة واعتناق النـاس مناهج عتيقـة وبالتالى لم نستـطع أن نفهم تاريخنا وحـياتنا فهمـاً جيداً، وبالرغم من ذلك، وبـرغم أن هذه هى المادة الخام الـموجودة عندنا، وأقـصى ما وصل إليه إبداعنا باستثناء حالات حديثة وقليلة جداً ، بالرغم من هذا نريد أن نقول أننا لابد أن نستغنى عن رؤية الآخرين والاستشراق !! بينما أرى أن رفض الاستشراق لا ينبغى أن يتم بدعوة أو بمـعركة، المسـألة كلها فى تصورى زوبعـة فى فنجان . . . لسبـب بسيط وهو لماذا لا أدرس حضـارتى وأنتج دراسات وأبحاثاً أفضل منهـم، ويوم يحدث هذا سنكون تجاوزنا الاسـتشراق عملياً فـى الواقع ودعنى أسأل ما الذى يدفع أى باحـث أو مثقف أو شاب عربى إلى الإطلاع على كتب وأبحاث المستشرقين «بلغاتها الأصلية أو مترجمة» إذا كان عنده دراسات عميقة بلغته وبمثقفـيـه بما فيـه الكفايـة، وبحيث لا تدفعه إلى البحث فى «سموم المـستشرقين» !!! لذلك أقول أن المـعركة بأكملها ليس لها مـعنى وليس لها داع، فإذا أردت أن تعمل فاعمل، هذا كل ما فى الأمر .

◆ **إذا سمحت لى أريد أن أقاطعك فى هذه النقطة لأننـى أرى أن المعركة لها معنـى على نقيض ما تقول، فالمطلب الذى ترفـعه فلنعمل نحن لا خلاف بشأنه، نحن نريد أن نعمل فعلاً . لكـن كيف ؟ عندما نحاول سصطدم بواقع عمـل قائم، نحن لا نعمل فى غرف مغلقة، وكى أدرس واقعى وتاريخى وثقافتى أمامى معوقات كثيرة، من أهمها إنتاج المستـشرق الغربى والمستشـرق العربى على حد سواء، وكى أبدع منـهجى الخاص من قراءة ثقـافتى وحـضارتى فإنـنـى أصطدم أولاً بالمنـاهج الغربيـة القائمـة (ماركسـية، فينومينولوجية، بنيوية، نفسيـة . . .) وهى مناهج موجودة ومنتشرة ولها نفوذها الواسع**

بين باحثينا ومثقفينا، بل البعض لدينا يتبنى هذه المناهج بصورة متطرفة تفوق فكرة القداسة التى أشرت إليها فى بداية الحوار . . . فلدى هذا النفر من الباحثين يكاد يكون المنهج مطلقاً أو عابراً للقارات والأزمان، ولا يستطيع حتى أن يعدل ولو بنسب بسيطة قواعد هذا المنهج . . . فلكى أعمل لابد أن أصنع مسافة نقدية - أو إذا شئت معركة - ليس مع الاستشراق العربى المحلى المنتشر فى أجهزة الإعلام ومراكز انتاج الثقافة والآداب والفنون . . . معركتى إذاً مع الطريقة التى انتقلت وتجسدت فيها الثقافة الغربية فى مجتمعاتى، معركتى ضد انتشار «الغرب العربى» المسؤول عن إمحاء الملامح الوطنية والقومية واضعاف فرص الإبداع والازدهار فى بلادى . . . ولا بد أن نعيش مشاكلنا ونبدع حلولاً لها . . . لا يمكن أن نستورد التكنولوجيا والثقافة والملابس وطريقتنا فى الحلم والضحك . . لا يمكن أن نستورد هويتنا .

● فلنحدد النقاش بتعبيرات أكثر دقة، تقول هناك مناهج غربية وأساليب غربية أتت وانتشرت فى بلادنا، أنا أتساءل كيف انتقلت إلينا هذه المناهج ؟ هل هناك جيش غربى غاز يحملها معه، هل هناك نابليون جديد يطبع هذه المناهج فى منشور ويعلقه على أعمدة المساجد ؟ بالطبع هذا لم يحدث، بل نحن الذين نأتى بها. فهل فرضت علينا - باستثناء الفترة الاستعمارية - المناهج الماركسية أو الفينومينولوجية مثلاً أم أن هناك ناساً - من صميم ثقافتنا - بمحض إرادتهم ذهبوا إلى هذه المناهج وطبقوها عندنا، فالمسألة هنا إذا كنت تريد أن تخوض معركة فإنك هنا تحارب عناصر تنتمى إلى صميم ثقافتك .

◆ **وهذا ما أقصده من الحديث عن ظاهرة المستشرقين العرب .**

● لا، الحملة الحالية ضد الاستشراق وضد الغرب لا تقول بذلك لابد أن نكون منصفين، إنها تهاجم الآخرين فى ما وراء البحار وليس المحليين الآخرين فقط ولو كان الهجوم مركزاً على من هم فى الداخل، وضد الثقافة المحلية عندما تخضع نفسها أكثر

مما ينبغى لثقافات أخرى إن هذا شىء مشروع، لكن الوضع الحالى يسير إلى أن سهام المعركة توجه إلى الآخريين فى الغرب، الذين يريدون أن يسمموا تاريخنا وأفكارنا - بالطريقة التى تكتبون بها عنا - وأنا صراحة لا أوافق على هذا الكلام بأية صورة من الصور، لذلك هذه هى المعركة التى وصفتها بأنها زوبعة فى فنجان، لأن هذه الثقافة الغربية لا تأتى إلينا بقوة مسلحة، ولا تفرض علينا أنها ثقافة معروضة فى العالم كله، معروضة فى اليابان والبرازيل . . . ولك أن تقبلها أو أن ترفضها . . . هناك بالطبع بعض الأشياء قد تفرض عليك مثل بعض البرامج التليفزيونية وأشياء من هذا النوع لكنها فى النهاية تخضع لسياسة حكومات ولا يمكن لأحد أن يفرض على حكومة من العالم الثالث أن تشترى مثلاً مسلسل «دالاس» فهذه الحكومات لها القدرة على القبول والرفض فى ما يتعلق بمثل هذه الأمور . . . وحتى إذا رجعنا إلى المعركة مع المحليين .

◆ **المستشرقون العرب؟!**

● لا هم ليسوا مستشرقين، هم أصحاب توكيلات و«بوتيكات» ثقافية من الغرب . . . لكن علينا أن نسأل لماذا يفعلون هذا ؟ فلنفكر بشىء من المنطق، أليس ذلك راجعاً أيضاً إلى وجود فراغ لابد أن نرجع الظواهر التى نتحدث عنها إلى أصولها ولا نكتفى بالنظر إليها من الظاهر، كيف تعلل أن بعض الكتابات التى تدعو إلى الأصالة والرجوع إلى الذات تفعل ذلك من خلال المنهج الفينومينولوجى، كيف تعلل هذا التناقض ؟ عندما نفكر فى هذا نجد أن ذلك عائد إلى أن أساليب ومناهج الفكر المحلية عتيقة ولم يظهر ما يحل محلها من مناهج ذاتية، فالأصالة بمعنى أن تبدع شيئاً من محيطك الخاص لم تنضج بعد، وهكذا فأنت غير راض عن القديم وليس عندك جديد يكفى طموحاتك فماذا تفعل؟ فى هذه الحالة تذهب وتستعير، هذا هو الحل الذى جعل من هؤلاء المستغربين المحليين يستقبلون وينشرون مناهج وأساليب الثقافة الغربية كما هى ويخضعون لها خضوعاً تاماً، نظراً للعجز الموجود فى الثقافة العربية، فالقوالب القديمة

لم تعد تكفى ومن هنا تأتى عملية المبالغة فى الاستعارة من الآخرين لذلك أقول أن المشكلة حلها بسيط، أنت لا تريد هذا النوع من الانسلاخ عن الذات، حسناً فلتشيد ذاتك ولن يستطيع الغرب أن يمنعك ولا يقدر أن يمنعك .

◆ **هل تعتقد أن الفراغ والخواء الداخلى يفسران وحدهما ظاهرة اللجوء المريض للغرب ؟ بمعنى آخر هل الغرب عندما يسعى ويفرض علينا تبعية اقتصادية الا يفرض أيضاً تبعية ثقافية ؟ ثم ماذا تقول عن بلد عريق فى ثقافته وبنائه الداخلى مثل فرنسا ومع ذلك نسمعهم يتحدثون عن الغزو الثقافى الاميركى فماذا يكون شأننا نحن ؟!**

● أنت تريد الآن أن، نتحدث عن من هم وراء البحار بعد أن تحدثنا عن المحليين والأسباب التى تدفعهم إلى أن يستعيروا أكثر مما ينبغى من المناهج والمذاهب الغربية هو الفقر الداخلى فى هذا الشأن، أما بالنسبة لمن هم وراء البحار فأنا أكرر أنهم لا يفرضون شيئاً علينا . هناك مثلاً الماركسية لن تستطيع أن تعلل انتشارها فى العالم العربى بأى حال من الأحوال على أساس من مفاهيم التبعية والهيمنة الغربية، لأن الماركسية فى كل تاريخها فى العالم العربى غير مشروعة ومرفوضة، فى هذه الحالة كيف تفسر تغلغل هذا الفكر منهجاً وايديولوجية فى بلادنا ومن دون أن تكون هناك تبعية وسلطة مؤيدة لذلك !! فنحن الذين نتبنى ذلك ولا توجد أية قوى خارجية تفرض علينا تبنى ذلك وهذا المثل الذى ضربته كاف لتفنيد وجهة النظر التى تقول بها . فنحن الذين نستقدم هذه الأفكار بمحض إرادتنا ونستطيع ألا نستقدمها والحل فى أيدينا، ولا توجد أية مشكلة من هذا الجانب، لكن لماذا يعتبر هذا الحل صعباً لأن الحاضر فارغ .

◆ **إذاً فلنتحدث فى تشييد هذه الذات، كيف تنظر إلى الشروط التى تسمح بملء فراغ الحاضر وإبداع ذاتنا من جديد ؟ وكيف نخرج من هذا المأزق الذى يشير إلى حاضر فارغ وتبعية «عمياء» ؟**

● من الصعب أن نحدد شروطاً ايجابية لكن من الممكن تحديد بعض الشروط

السلبية بمعنى التحذير من بعض الأشياء المعوقة، وفى ضوء هذه المناقشة أنا أحذر من السعى إلى النضج قبل الأوان، بالطبع البحث عن النضج شىء جميل ومطلب نسعى إليه جميعاً حتى نستطيع الوقوف على مستوى الندية مع أية ثقافة أخرى فى العالم، هذا أمل لنا جميعاً لكن إذا سعينا وراء هذا الأمل قبل أن تستكمل الشروط اللازمة له، وتصورنا أننا قادرون على تحقيقه فى الوقت الذى نكون فيه بعيدين عنه كل البعد هنا تكون الخطورة، وفى تصورى أن مرحلة السعى وراء الغرب وربما كانت مرحلة كان لابد أن تمر بها ثقافة معينة كى تستطيع أن تقف على أقدامها بعد ذلك .

◆ **ألا تعتبر أن مرحلة السعى وراء الغرب قد طال أمدها بحيث لم تعد مفيدة على الإطلاق بالمعنى الذى تقصده ؟!**

● أنا أرى عكس ذلك، وأرى أنها ليست مرحلة قد طال أمدها كما تقول وذلك لأننا نعيش فى ظل أنظمة تعود بك إلى الوراء، ولأن المستوى العام للثقافة العربية كما يكاد يعترف به الجميع فى نزول وليس فى صعود، قد تكون مرحلة طال أمدها لو كان تطورنا قد ترك ليسير فى مجراه الطبيعى ولكن تطورنا ضرب، وضرب من الداخل - وليس من الخارج - ضرب بالحكومات العربية وضرب بالاتجاهات السلفية، وكانت النتيجة أن مستوى نقاشنا فى كثير من القضايا الثقافية الآن فى نهاية القرن العشرين أشد هبوطاً من مستوى نقاشنا من مئة عام خلت مع أن عمرنا الثقافى كله لا يتجاوز ١٥٠ عاماً، فانظر عندما يضيع منهم مئة عام فى تدهور . . . فماذا نقول اليوم عندما تمتلىء صحفنا بأحاديث عن : هل تعمل المرأة أم تبقى فى بيتها ؟ هل ترتدى الحجاب أم تخلع الحجاب ؟ كان هذا يقول به قاسم أمين من مئة عام وعلى مستوى أعلى وأجرأ مما يقال به هذه الأيام . . . هناك عمليات ضرب لنمونا وتطورنا، عمليات ضرب أساسها من الداخل من قبل الأنظمة من جهة والرجعية والسلفية من جهة أخرى، لذلك أقول إن الشروط لم تكتمل، تطورنا لم يترك كى يسير فى مجراه الطبيعى، وأدعو أن لا نفكر فى

الأمل قبل فوات الأوان، لأن النتيجة الطبيعية للتفكير فى هذا الحل قبل نضوج شروطه هو هذه المسوخ المنتشرة هذه الأيام والتى تدعو إلى رفض الغرب وترك الغرب لكن يقولون هذا بمنهج غربى أيضاً، كما يفعلون جيمعاً .

◆ **أنا لست منهم . . .**

● أنت مثلهم، ومتشبع بالمناهج والثقافة الغربية أيضاً ، ولولا ثقافتك الغربية ما كنت تأخذ هذه المواقف .

◆ **لا أنكر استفادتى الكبيرة من الثقافة الغربية بحكم وجودى فى العاصمة الفرنسية منذ سبع سنوات لكن لا يعنى هذا أننى أحمل معى بالضرورة مناهج وأساليب غربية عندما أدعو إلى رفض التبعية وإعادة تشييد الذات من جديد .**

● وأنا عندما أقول هذا الكلام ليس معناه بالضرورة أننى أدعو إلى نوع من العبودية إلى الثقافة الغربية ولكن أقول أن من يفعلون ذلك يفعلونه مضطرين، لأنهم أنضج من أن يكتفوا بالقديم لكنهم أقل نضجاً من أن يقفوا على أقدامهم وأن يستقلوا لوحدهم .

◆ **كيف الخروج إذاً من هذا المأزق الآن وفى اللحظة الراهنة، وفى شروط لم تنضج بعد كما تقول، هل انتظر حتى يتحقق نضج الأوان أم أن هناك تصورات وخطوات يمكن أن نقترب فيها من تحقيق ما نريد ؟**

● نستطيع بقرار لو شئنا أن نرفض الثقافة الغربية، خصوصاً فى مجال الاستشراق، أنت لا تريد الاستشراق يمكنك ألا تقرأه، ما الذى يدفعنا لفهم مجتمعاتنا من خلال ما يقدم الاستشراق الغربى، أنهم يكتبون بالانجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، ما الذى يدفعنا إذاً إلى الاهتمام بما يقولونه . . . نستطيع أن لا نقرأ لأى مستشرق وأن لا نفهم مجتمعنا من خلال ما يكتبونه عنا لكن فى الظروف الحالية لو فعلت ذلك فإنك ستجد نفسك مضطراً لأن تقرأ الإنتاج المحلى الذى قلنا عنه أنه مشوه بسبب التحريمات

وأنه أقل من طموحات المستقبل وإمكانات الحاضر .

◆ **مرة أخرى أسأل ألا يوجد مخرج من هذا المـأزق بين الإنتاج المحلى غير الملائم والاستعارة من الغرب غير الملائمة أيضاً ؟**

● بلا شك المخـرج هو أن يكون هناك مشروع قومـى، وأن يكون من أهم بنود هذا المـشروع القـومى - بل فى قمـتهـا - البند الثـقافى أى نهـضة ذاتيـة حقـيقيـة من دون حساسيات تجـاه الماضى أو الغرب، لكن إلى أن تصبح ممتلئا وأن تـجعلك هذه النهضة تقف على اقدامك بثقة فإن هذه القيود ستتسـاقط تلقائياً .

◆ **هل تدعو للنهضة الذاتية الآن أم بعد نضج الشروط التى تسمح بذلك ؟**

● لم أتحدث عن اللحظة الراهنة إنما أقول علينا أن نبدأ من هذا .

◆ **أنا صراحة أفتش عن موقف جديد من الغرب اليوم يسمح لى أن أشيد ذاتى وأعيد تعميرها من جديد .**

● عملية النهضة الذاتية أو البناء الذاتى تحـتاج منا إلى أن نستجمع قوانا وتكون لدينا الشجاعة أن ننظر لتـاريخنا نظرة موضوعية وعلمية من دون أن نجـبن أمام قوى داخلية أو أنظمة حكم تحـاول أن تتملق أشد القوى رجعـية فى المجتمع . . . فـى هذا السياق دور الحذر من الغرب لا ينبغى أن نبالغ فيه لأن معـركتنا الأساسية فى الداخل، ويوم نسير فى هذه المعركة بالشكل السليم ستنحل علاقتنا بالغرب من تلقاء نفسها .

◆ **والغرب المحلى أو المستشرقون العرب ألا تعدهم أيضاً مع القوى الجائرة الرجعية والمتخلفة، وبالتالى ينبغى أن تكون المعركة معهم بالقدر نفسه أو بقـدر أكبر ؟!**

● هو أحد هذه العـناصر لكنه عنصـر ناتج عن وجود نوع من الهـزل أو الضعف فى الداخل وأننا خاسـرون على كافة الجبـهات، وبالتالى فـإن التحرر الثقافـى لا ينفصل عن التحرر العام فى مـختلف الميادين، فأنا أقبل فتح مـعركة مع المستشرقين أو المـستغربين

وأنا مجتمع مضروب فى الميدان السياسى والاقتصادى والثقافى وأتصور أننى سأعوض إحساسى بالضعف من خلال الهجوم على بعض المستشرقين. . . أنا أرفض هذا الموقف

◆ **لا أعتقد أن المستهدف هو بعض المستشرقين - أو الثقافة الغربية ذات القيم الإنسانية - بل الغرب المحلى وأعتقد مساحة الخطر على النهضة الذاتية قائمة فى هذا الجانب، وربما أكثر من العناصر الرجعية والمتخلفة لأن العناصر الرجعية المتخلفة لها شكلها الواضح الذى يمكن مقاومته أما «المستشرقون العرب» فيختبئون خلف شعارات براقة عن التغيير والتقدم والحداثة . . .**

● وأنا أقول أن الموقف الجديد الذى ينبغى أن نسعى إليه ليس الموقف من الغرب بل الموقف من القوى الرجعية والمعيقة لتطورنا وأن خوض المعركة بهذا الشكل سيحل الموقف مع الغرب حلاً شبه تلقائى .

◆ **ماذا يعنى لك غياب التأليف العربى فى مجال العلوم الإنسانية ؟**

● يعنى أولاً حالة من الشعور الثقافى الذى يكاد يشمل معظم البلاد العربية، وهو تدهور مخيف، ولا يمكن لأحد أن يتصور ما الذى يحدث لثقافة بلد عندما تكون الأجيال المسيطرة الآن وحدها فى الساحة .

◆ **أنت تتحدث عن الحالة الثقافية العامة والشروط الموضوعية الخانقة للتأليف والإبداع لكن الا توجد أسباب ذاتية، وتقصير ذاتى من جانب المفكرين العرب ؟**

● الإطار الموضوعى يحجب أى شروط أخرى ذاتية أو غير ذاتية، فإذا كان المناخ نفسه فاسداً وإذا كان التكوين نفسه ناقصاً، وإذا كان الإنسان لم يستوعب بعد الفلسفات الموجودة جيداً، فكيف يمتلك القدرة على التجاوز والإبداع وتقديم الإضافات الجديدة . . . هذا مستحيل، فالعلوم التكوينية هى أهم العلوم، والملاحظ الآن أن هذا الجيل

المسيطر فى الجامعات ومراكز البحوث هو جيل هش وهزيل ويعيش عاله على الآخرين . وهذه أزمة ثقافية وتعليمية فى آن واحد، وللأسف هى المتحكمة عندنا فى المجالات كافة .

◆ **برغم ذلك فإن هذا لا يمنع بالضرورة من وجود بعض المفكرين الذين يمكنهم تجاوز ذلك نحو تأليف عربى فى مجال العلوم الإنسانية بصفة عامة والفلسفة بصفة خاصة ؟**

● لا، أنا أرى أن هذا يمنع فعلاً .

◆ **أليست هناك محاولات لاختراق هذه الأجيال المسيطرة من قبل بعض المجتهدين ؟**

● حدث هذا فى الأجيال الأقدم لكن الجيل الصاعد مستواه هابط بمراحل عن الجيل الذى سبقه، وذلك على النقيض مما نراه فى البلاد الأخرى حيث الأجيال الصاعدة تتقدم فى معرفتها ووعيها على من سبقها . . المفروض أن الحركة تستمر لكنها متوقفة تماماً .

◆ **بالنسبة إليك . كيف تنظر إلى غياب التأليف الفلسفى العربى بصفة خاصة؟**

● أنا لا أقول بذلك، وإنما أقول أن هناك تراجعاً وتضاؤلا وأن المجموعة القليلة التى تملك شيئاً من الإبداع والقدرة على التأليف إذا اختفت من الساحة فإنها النهاية المظلمة .

◆ **هل ترى أهمية فى الحديث عن ضرورة وجود فلسفة عربية اليوم ؟**

● يبدو لى من استعراض الحياة الثقافية فى العالم العربى، أن هذا المطلب ذاته قد لا يكون أساسياً بالنسبة للمفكر العربى، ففكرة أن تنشأ فلسفة بالمعنى الشامل المذهبى المتكامل هى فكرة ذات أصول غربية، ولا يشعر المفكر العربى بأن الحاجة الأولى الملحة هى بناء المذهب المتكامل، إنما يشعر أن أمامه مشاكل محددة عليه أن يوظف طاقاته من أجلها، وهذا هو الحاصل فعلاً، وفى هذا الاتجاه نجد أعمالاً لا بأس بها فى العالم العربى وهى هادفة إلى حل مشاكل فكرية محددة، أما النظرة الفلسفية المذهبية

الشاملة فإذا كانت تلبى حاجة ما فى المجتمعات الغربية، فلا أعتقد أنها تمثل حاجة بالنسبة لوضعنا الثقافى وأحوالنا المعيشية، نحن غير مضطرين لمحاكاة الفكر الفلسفى الغربى فى هذه النقطة بالذات، أى بناء مذاهب فلسفية .

◆ **ليس بالضرورة بناء مذاهب فلسفية، ولكن أتحدث عن التأليف الفلسفى الذى يمثل إسهامنا الحضارى، بمعنى لو أننا قمنا بترجمة الأعمال الفلسفية الرئيسية الصادرة فى العالم العربى فى الثلاثين سنة الماضية إلى اللغات الأجنبية الألمانية والانكليزية والفرنسية فهل سيجد القارىء ما يكون تأليفاً عربياً أو فلسفة عربية ؟**

● عندما تكون هذه الكتب المترجمة متعلقة بمشاكل مجتمعاتنا العربية يمكن أن يجد فيها ذلك، لكنى لا أعرف لماذا الإصرار على طرح مسألة وجود فلسفة عربية اليوم أم لا ؟

◆ **لأنها قضية محورية فى تصورى وتكشف عن واقعنا بصورة تسمح لنا بتجاوزه فيما بعد . . . لأنها ما نملك وما لا نملك، ما نحن فيه وما ننتظر تحقيقه .**

● وأنا أرى أنها قضية فرعية وثانوية وأن المهم هو أن نحلل أوضاع المجتمع الذى نعيش فيه، ليس المهم بالنسبة إلى أن ابنى نظاماً فلسفياً شامخاً .

◆ **ليس المقصود من هذا الحديث هو بناء أنظمة فلسفية متكاملة فبناء المذاهب انتهى فى الثقافة الغربية أيضاً ؟**

● أنا أعتبر هذا الحديث أقرب إلى الاحتياجات الفكرية للمجتمعات الغربية وأن احتياجاتنا من نوع مختلف، لأن أى مفكر عربى تحاصره المشاكل من كل النواحى وبعض هذه المشاكل تحاصره من جهة البقاء فى الحياة . المفكر العربى مهموم باستمرار مجتمعه وذاته لأنهما معرضان للفناء أو الانهيار أو الاحتلال فى مثل هذا المناخ من الصعب أن نطالب المفكر العربى بانجاز فلسفات بالشكل التقليدى الموروث من أيام اليونان وهمه أن يواجه الأزمات وقت حدوثها .

◆ فى مساهمات المفكرين العرب فى حل المشاكل، هل ترى تجديداً وإبداعاً ؟

● نعم، وربما ما قالوه محق فى كثير من الأحيان من كتابات الغربيين عن المشاكل ذاتها . وعندما أقرأ ما يكتبه بعض من الأميركيين أو الفرنسيين عن مجتمعاتنا أجده يصلح كمدخل بالنسبة للأجانب والعديد من أوجة القصور والنقص على خلاف كتابات المفكرين العرب المتفهمين بعمق للمشاكل التى تناولوها .

◆ هل هذه الكتابات التى تتحدث عنها كشفت لك عن طريقة معينة فى الفهم والرؤية بحيث تسمح لنا بالحديث عن ملامح معينة لمنهج عربى فى تناول مشاكل هذا الواقع؟

● أنت، من جديد تتحدث عما إذا كان هناك منهج مجدد تتسم به هذه المنطقة فى حين أرى أن المطلوب هو أن يكون هناك فى المنطقة العربية تفكير منهجى بالمعنى العام للكلمة، أنا أتصور أن المطلوب هو أن يكون هناك تفكير منهجى منطقى . وأن يكون هناك منهج محدد خاص بنا، فلا أظن أن هناك منهجاً اميركياً أو فرنسياً . هناك شروط عامة للمنهج إذا توفرت يكون الفكر منهجياً، وإذا لم تتوفر يصبح ناقصاً من الناحية المنهجية، لكن الدعوة لقواعد المنهج كما فعل ديكارت فى بداية العصر الحديث، بما يتناسب مع قدرات العالم العربى، فهذه مسألة تجاوزتها التطورات أيضاً، ديكارت كان يتحدث فى فترة خروج من العصور الوسطى إلى الفكر الحديث، والعلم الحديث . وكان لابد من التفكير فى تغيرات جوهرية، بالنسبة إلينا الأمور استقرت إلى حد كبير لكن لا يوجد شك فى أن الحد الأدنى من القواعد المنهجية المتعارف عليها فى مختلف المجتمعات غير متوفر عندنا. وبصفة خاصة عند جماعات الأصوليين، فالحدود الدنيا للمنهج السليم غير موجودة، كما يحدث مثلاً عندما يقتبس أحدهم أقوالاً أو قرارات لغربيين أو مستشرقين بدون أن يذكر اسم المؤلف أو المرجع الذى استقى منه معلوماته فى كتبه، ثم يذهب بعد ذلك ليبنى بناءً كاملاً من الأفكار بدون أى نوع من التوثيق، ألف باء، المنهجية غير موجودة

◆ . . ما العمل إذاً ؟

● العمل . . . نحن ليس مسموحاً لنا فى مجال الفكر الفلسفى بالحد الأدنى ممارسة الفكر الحر، المعوقات عندنا لا يوجد لها نظير فى أى مجتمع آخر فى العالم، ثم نأتى لنقول : لماذا لا توجد فلسفة عربية !!

◆ **إذاً نعيش فى إطار غضب السماء وليس أمامنا سوى أن نترك الساحة !**

● لا، لكن أقول الإرهاب موجود لدينا، افترض أننى كتبت كتباً عن الشيخ الغزالى أو القرضاوى، وقلت أن هناك مدرسة كاملة تفكر تفكيراً غير منهجى بدليل أنها تتبع آراء فلان وفلان وهم أناس يخطئون فى أبجديات المنهج المنطقى السليم، فلو نشرت ذلك فإنه قد يحكم عليك بالإعدام . قيامك بنوع من التوعية والتنوير البسيط لأهلك ومجتمعك بالقواعد العادية للتفكير السليم وقولك أن هناك ملايينا من الشبان يسيرون وراء أناس لا يتوفر لديهم الحد الأدنى من التفكير المنتظم. مجرد قولك هذا يعرضك لأخطار لا نهاية لها . وأنا أحدثك فى هذا عن الحد الأدنى فما بالك لو حاولنا تجاوز هذا الحد البسيط .

◆ **والحل مرة أخرى ؟**

● أنا لا أعرف كيف تستطيع أن تعمل فى هذا المناخ من الإرهاب، الناس تدور حول نفسها، الفكر المستنير المتقدم منذ خمسين عاماً يتراجع ويقف الآن على أرضية خصمه القديم . والضغوط تتواصل فتتراجع فتتواصل فتتراجع وهكذا، نرى المسألة فى نهاية الأمر ترتد إلى مناخ سياسى واجتماعى مفروض عليك وهو المعوق الأكبر .

◆ **هل هناك امكانية ما للخروج من هذا المأزق ؟**

بما أننى لست سياسياً فأنا لا أملك الحل .

● **كمفكر ؟!**

● هناك فجوة كبيرة بين المفكرين والمنـفذين، فالمنفذ لا يأخذ أبداً بآراء المفكر فإذا شئت أطرح لك برنامجاً مثالياً وعظـيماً ولن تجد أروع منه لكن قل لى من ينفذ ذلك فى الواقع .

◆ فلنتحدث إذاً فى هذا البرنامج المثالى، ما هى مـلامح مشروع النهضة الثقافية فى مصر والعالم العربى فى ظل الظروف الراهنة التى أفضت فى وصفها ؟

● فى ضوء الوضع الثقافى الحالى نحن فى حاجة إلى عشرات السنين كى نقر مبادىء التنوير البسيطـة، بمعنى حق الإنسان فى أن يفكر بحرية وأن يتقـبل الناس أفكار البعض، حتى ولو اختلفوا معها . أن لا يدينوا بعضهـم بالخيانة والكفر . وهذه المبادىء البسيطة لا تشكل فلسـفة ولا فكراً لان مـهمتهـا سلبيـة، أى تمنع عن الإنسان العـنوان الفكرى، لكنهـا لا تخلق الجديد، فالـجديد يأتى بعد ذلك وحـتى هذه المبادىء مـحتاجة، كـما قلت، إلى كفاح عشرات السنين، ولا أدرى إذا كنا سننتصر أم لا الوضع أسود فى العالم العربى . وأنت تنظر من بعيد من باريس من مناخ ساد فيه التنوير منذ قرنين من الزمان

◆ إذا أساء البعض فـهم ما نقول فربمـا يؤدى ما تقوله إلى أنه طالمـا لا يوجد الحد الأدنى من الـتنوير فـلا داعى للطمـوح فى الإبداع، طالـما الأرض غـير مـهيـأة وأدنى الضرورات العقلية غائبة ؟

● لا، كلامى لا يؤدى إلـى هذا المعنى وإنمـا أقول عندما لا تجـد الإبداع متحقـقاً بالصورة التى تنشدها فلا تندهش من ذلك، هذا ما أردت قوله .

◆ والعمل مرة أخيرة ؟!

● كما قلت لك لسنا نحن الذين سنحسم هذه المـسألة . الحسم سيكون على أرضية السياسة، واللعبة مـن أولها لآخرها لعبة سياسية والدعوة إلى التراجع دعـوة سياسية ربما كان غطاؤها الخارجى دينياً . . . عندما يتحدد من الـمنتصر ستتضح صورة العمل . لكن

إذا تصورت أننا كمفكرين نستطيع أن نغير شيئاً من الأوضاع الحالية فإنك تبدو لى متفائلاً، اللعبة الكبيرة فى مجتمعاتنا خرجت من أيدينا .

◆ **فى أيدى من ؟**

● فى أيدى الذين يلعبون اللعبة السياسية سواء المسيطرون أو المعارضون لهم، والذين يرغبون فى السيطرة . وأنا أحدثك فى ذلك من خلال صورة السنوات العشر الأخيرة .

◆ **والسنوات القليلة المقبلة ؟**

● يبدو لى أنها ألعن وأشد سواداً .

أشكرك على هذا الحديث المتفائل جداً .

أنور عبد الملك

أنا دائماً مع ريح الشرق

ما هو موقفنا من الغرب اليوم ؟ وكيف كان موقفنا منه بالأمس ؟ متى أصبنا وأين اخطأنا ؟ ثم هل آن الأوان لبروز موقف جديد من الغرب نتجاوز فيه أخطاء الماضى والحاضر ؟ وكيف نبدع هذا الموقف الجديد الذى نصحح فيها إدراكنا للغرب وقبل ذلك إدراكنا لأنفسنا؟ وما هى العقبات التى تقف حجر عثرة أمام من يحاول الخروج من مأزق العلاقة المريضة لمجتمعاتنا مع مجتمعات الغرب ونظمها وقيمها، باختصار : ما العمل ؟

هذه التساؤلات، وغيرها . تشكل الاطار والهاجس الذى تدور حوله سلسلة الأحاديث مع بعض الكتاب والمفكرين العرب، والهدف منها - بعد أن حاورنا بعض المستشرقين - بالدرجة الأولى، هو اكتشاف ذاتنا من جديد وتصحيح الوعى بهذه الذات من خلال التفتيش عن مكوناتها الأساسية التى غابت وطمست فى ظل علاقتنا المريضة بالغرب . ومن جهة ثانية تهدف هذه الأحاديث إلى إبراز حدود التعايش الممكنة والمستحيلة مع الثقافة الغربية وقيمها ومعاييرها .

واختيارنا للكتاب والمفكرين العرب راعينا فيه بدرجة أولى أن يكون مع أولئك الذين عاشوا فى الغرب وتكونوا علمياً وثقافياً فى مدارسه، وبالتالى هم فى إطار وموقع اتصال دائمين مع رموز واتجاهات واجهزة الثقافة الغربية، موقعهم هذا له ميزته خصوصاً أننا نتحدث مع أشخاص على دراية حقيقية بما يحدث فى الغرب، لكن من جهة أخرى له مساوئه بفعل الأسئلة التى قد تسبب حرجاً ما لبعض من نلتقى بهم، لأنهم مطالبون أمامنا أن ينطقوا لغة واحدة، لا أن يحكوا لغة فى الغرب تختلف عما يقولونه فى الشرق ... تحدثنا مع مصطفى صفوان أستاذ التحليل النفسى المشهور فى فرنسا والغرب بصفة عامة، واليوم أنور عبد الملك الذى يعيش فى فرنسا منذ ثلاثين عاماً ومن دون أن تنقطع

اهتمـاماته بمصر والـعالم العربى وعمـوم مجتمـعات الشرق، سـواء فى دراساته أو فى البدائل الحضارية التى يشرف عليها من خلال عمله الثانى - بعد المركز القومى للبحوث الفرنسية - فى جامعة الأمم المتحدة .

◆ **وكانت بداية حديثنا الذى وافق عليه أنور عـبد الملك بترحاب - وبعد أن اطلعناه على أحاديثنا المنشورة مع المستشرقين - يبدأ من حيث انتهينا مع المستشرقين الفرنسيين وتساؤلهم - رداً على انتقـاداتنا - لماذا لا يوجد استغراب - بمـعنى دراسات من الشرق إزاء الغرب - يوازى الاستشراق . وكان أول تساؤل وجهناه وأنور عبد الملك هو، كيف يعلق أولاً على هذا التساؤل ؟ هل يقبله ؟ هل يرفضه؟ هل يود الإجابة على التساؤل من زاوية أخرى ؟ هل يود أن يعلق على بعض ملاحظات المستشرقين الفرنسيين ؟**

● فى الحقيـقة لا أود أن ابدأ من حيث انتهى الزملاء الـمستشرقون فهـذا شأنهم ولنا شأن آخر . نقطة البدء فى أى حديث عن الفهم المتـبادل أو التفاعل المتبادل للحضارات والثقافات يجـب أن تتسع كى تشمل مجال عمـوم المجتمعات الإنسانيـة البشرية، وليس شمال وجنوب البحر المـتوسط، ليس الغرب الاستعمارى والشرق العربى المُـسْتَعْمَر منذ عدة قرون. هدفى أن نتحـدث بوجه عام عن تفاعل الحضارات والثقـافات والقوميات . إننا نلاحظ باسـتمرار فى تفاعـل الحضارات والثقـافات أن ميزان القـوى هو الذى يحدد المجهود العلمى أو « المعلومية» والتراكم العلمى . مثلا فى عصر الإمبراطورية الفرعونية المصرية كأكبر أمبراطورية فى العصر القـديم من حيث الاتساع والتأثير أو فى فترة انتشار الإسكندر نحو الشرق، وفى مرحلة انتشار الإسلام شرقاً وغرباً . أو مرحلة ظهور الصين كمركز عالمى حـضارى وسياسى، وفى مرحلة انتشار المـغول إلى قلب آسيا ثم أوروبا، نجد أن هناك «معلومية» أى مجموعات معلومات فى القطاعين، القطاع المهيمِن والقطاع المهيمَن عليـه، لكن الملاحظ أن المعلومية كانت دائما زائدة فى القـطاع المهيمِن سواء فى الغرب أو فى الشـرق. خذ مثلا الغزوة الأيبرية الأسـبانية البرتغاليـة لأمريكا الوسطى والجنوبية ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر، هناك عشرات بل مئات وآلاف من الكتب

والدراسات والروايات الأسبانية والبرتغالية تحكى بتفصيل عن المجتمعات الهندية آنذاك وهى مقهورة بالسلاح . فما هى نسبة المعلومية لدى الشعوب الهندية آنذاك ؟ هذه الظاهرة تتفاوت حسب علاقة القوة المهيمنة والقوة المهيمَن عليها . فى الحروب الصليبية، مثلاً، كانت هناك معلومية كبيرة لدى الغرب المسيحى عن الأراضى الإسلامية التى فتحت آنذاك إلى حد ما لكن هناك معلومية لا تقل بل ربما تزيد فى بعض الأحيان فى العالم الإسلامى خاصة فى عصر صلاح الدين، وكذلك أيضاً وبشكل أعمق وأوسع بكثير فى أسبانيا فالكتابات التاريخية والطبية والعلمية فى أسبانيا ومدى دقة معرفتها بالعالم الذى كان آنذاك قطاعاً هاماً غزيراً من القوة والثقافة المسيحية الغربية، تجده محللاً تحليلاً دقيقاً وعميقاً، على أيدى مفكرى وعلماء هذه الفترة . الآن نتحدث عن الفترة المعاصرة وهى بيت القصيد. والمنهج الأساسى لعرض هذه القضية بشكل منصف هو أن ندرس العلاقة المتبادلة فى المعلومية فى محاولة فهم الآخرين بين الدوائر الثقافية الرئيسية فى الشرق وبين الغرب المهيمن، وأقصد بذلك إلى جانب الدائرة الثقافية العربية فى العالم الإسلامى: تركيا، إيران، الهند، جنوب شرق آسيا، وفى المقام الأول بدون شك الصين واليابان والهند، لو أقمنا دراسات مقارنة- ولو مبسطة- بين الجهود التى بذلت فى هذه الدوائر لتفهم الغرب المهيمن لرأينا أولاً : أنه لم تتم فى أى من هذه الدوائر الثقافية إقامة نظرية عامة أو نظام فكرى عام يشرح الغرب، وإنما كان هناك موقف انتقائى نقدى تحليلى من الثقافة الغربية لإدراك أسباب هيمنتها وكيف يمكن الإفادة منها لكسرها وردها ومن دون الانقطاع عنها، وهو نفس الموقف الذى وقفته مصر محمد على وبعد ذلك حتى فى عصر اسماعيل، وموقف العالم العربى حول ثورة مصر الوطنية بقيادة جمال عبد الناصر، الموقف النقدى أى التحليلى الانتقائى، لن تجد فى أى من هذه الدول فلسفة متكاملة لمفاهيم الثقافة الغربية فى فترة الصراع، الآن بعد أن ابتعد الصراع عن بعض هذه الدول الشرقية - الصين ، اليابان، والهند - وأصبحت فى مقام الدول الكبرى، بدأ العمل التفصيلى لإكمال ما بدأوه فى مرحلة الصدام، أى للحصول على نظرة عامة شاملة لهذا الغرب الذى أصبح نداً - وليس فقط عدواً مهيمناً - من الناحية

الجيوسياسية والتجارية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية. هذه الملحوظة هامة جداً من الناحية المنهجية ويمكن أن نضيف لها ملحوظة ثانية، وهى أن الدائرة العربية من الحضارة الإسلامية كانت الدائرة الأقرب إلى خط النار، وأنها هوجمت بالقهر والسلاح بشكل منتظم منذ القرن التاسع وفى العصر الحديث منذ ١٧٩٨ حتى الآن، فالغزو المسلح والهجمات المستمرة لم تنقطع، ولم يكن هذا شأن الهند ولا جنوب شرق آسيا بهذه الاستمرارية ولا الصين أو اليابان، هذا مهم جداً لإدراك كيف تتشكل ترسانة المعلومية، وفى تقديرى - وهذه هى النقطة الثالثة - أن دراسة الغرب لا تأتى بتأليف نصوص مثل وصف الغرب، ووصف أنجلترا أو فرنسا باللغة العربية أو الهندية أو الإيرانية فليس هذا هو المطلوب، وإنما عملية جدلية، بمعنى أن كل الجهود التى بذلت لإقامة ثقافة وطنية وفكر وطنى اجتهادى هى جهود بدأت بنقد المطروح ومحاولة لإحياء التراث الحى بالتفاعل مع إيجابيات ذلك الذى هو آت من الخارج . أى أن عملية صياغة الفكر والثقافة الوطنية هى عملية فهم جدلى للإيجابيات التاريخية المسقطة على أرض الوطن .

نقطة رابعة وأخيرة. . هناك، رغم هذا كله، فى مختلف الثقافات الشرقية مجموعة كبيرة هامة من المؤلفات فى الفكر والفلسفة والتاريخ والاجتماع والسياسة، تتناول بشكل نقدى تجديدى تماماً نقد الغرب وما يقدمه، وقد أسهمنا فى هذا المجال مع نخبة من زملائنا المفكرين الرواد فى مختلف أقطار الشرق وخاصة فى مشروعنا حول الجدلية الاجتماعية الذى بدأ نشرة فى ١٩٧٢ ومازال مستمراً فى قطاع المشروعات الدولية الذى تولينا إدارته فى جامعة الأمم المتحدة ابتداء من ١٩٧٦ - ١٩٧٧ حول «البدائل الاجتماعية - الثقافية فى عالم متغير» وهى مشاريع جمعت نخبة من مئات رواد الفكر والعلم وعشرات من مراكز البحوث على امتداد العالم .

لكن ما يلفت النظر أن هذه الجهود تطمس دائماً فى الغرب- وكأنها لم تقم- ما هو مقبول من الكتابات الشرقية فى الغرب الذى يتنكر لوجودنا أو ينقل رؤيته إلى

مجتمعاتنا، فيترجم بلغات قومية المعرفة المنتجة فى عواصم الغرب إلينا، لكن بعناوين عربية أو شرقية .

◆ **هم من أسميناهم " المستشرقون العرب " !!**

● هؤلاء هم المستشرقون، الشرقيون هذا واقع الأمر كما نراه ونعلمه ولا داعى للإطالة فى هذا الموضوع، وأرى- كما يقول بعض الزملاء- أنه ليس علينا أن نبدأ من حيث انتهى الغرب بل أن نبدأ من حيث نتحرك كلنا فى دوائر الشرق المختلفة، فى دوائر العالم الذى يقال إنه هامشى، فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، أى أن نتعرف على المجهودات الفكرية النقدية الهامة، وعلى الإبداع الفكرى الذاتى وعلى الريادة الفكرية فى العديد من المجالات وأن نحاول اختصار طريق التبعية ونختار التقدم بهذا النهج فى الوقت نفسه الذى نظل فيه على تفاعل مستمر مع الثقافة والفكر المستقبلى فى مختلف دوائر الغرب .

◆ **هل الغرب مسؤول عن الصورة التى رسمناه له . وهل شجع نمطاً معيناً وطريقة معينة من إدراكنا له ؟**

● موضوعياً ميزان القوى التاريخى مسؤول عن الرؤية الناقصة غير المتكاملة التى يشكو الغرب منها .

◆ **الصورة التى أدركنا بها الغرب كانت ناقصة . هل يمكن أن نتحدث بصورة تفصيلية أكثر لنعرف وجهة نظرك فى هذا الشأن، وكيف أدركنا الغرب فعلاً . أين نجحنا، ومتى أخطأنا . ولماذا أدركنا الغرب بصورة انتقائية ؟ وما هى الأسباب والدوافع ؟**

● أنا لا أرى هناك دواعى للتفصيل، لأن ما أدركناه - شعوب الشرق - من الغرب هو إيجابيات الغرب .

◆ **هل هذا حقيقى ؟**

بدون شك، الفكر العلمى، الفكر المنطقى . . .

◆ **هل هذا ما أدركنا فعلاً ؟**

بالطبع، بالطبع .

◆ **يبدو لى أننا أدركنا ما يريد لنا الغرب أن ندركه به أدركنا ما انتهى فى الغرب أو ما يريد الغرب أن يتلخص منه ويصدره لنا، كما يصدر أحيانا أدوية فاسدة انتهى مفعول استخدامها !**

● متفق معك فى هذا لكن دعنى أحدد وجهة نظرى . فى فترة التحرر الوطنى فى الدول الشرقية . مثلا فى مصر محمد على كان إدراكنا للفكر الغربى، هو إدراك لإيجابيات الفكر الغربى، تذكر رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك . . .

◆ **أى فى الفترات التى لم يكن فيها استعمار؟!**

● كلا، فى الفترات التى تأكدت فيها سيادة الدولة الوطنية الاستقلالية، أما فى فترات انزواء الاستقلالية وسيادة جو السمسرة والتبعية السياسية والاقتصادية فى الدول الشرقية وعموم الشرق، استطاع الغرب أن يسقط علينا نفايات فكره وثقافته وكل التيارات الفكرية السالبة، كما حللتها فى «الجدلية الاجتماعية» وفى «سوسيولوجيا الإمبريالية» كل ما هو مرتد ويهدف إلى كسر الإيمان بالمبادرة التاريخية تحت عنوان البنيوية، مثلاً كل ما يمثل فكراً رافضاً أو فكراً عدمياً باسم الطليعية وهو نفاية الثقافة الغربية تحول إلى الأراضى الشرقية بشكل براق إلى «طليعة» و «ريادة» فكرية و «وتحرر» من الجمود الفكرى وهذا بفضل عملية نقل المعرفة نتيجة ضعف الدول الوطنية المستقلة وبالتالى ضعف الثقافة الوطنية المستقلة، المسألة كلها تنحصر فى ميزان القوى .

◆ **عندما يكون منطق القوة لصالح الغرب، وليست لدينا «المعلومية» التى تحدثت عنها . كيف يمكن الخروج من مأزق ثقافة غربية لها بعد إنسانى فى كثير من الأحيان وبين توظيف هذه الثقافة فى إطار هيمنة الغرب ضدنا؟**

● لا يوجد مفتاح سحرى، إنما كرد اتجاهى أولاً وقبل كل شئ تعبئة جميع قوى

الثقافة الوطنية بمختلف مدارسها الفكرية والعمل حول مشروع وطنى حتى فى فترات ضعف الاستقلالية فى مختلف الأوطان . ثانياً فى فترة الضعف التى نمر فيها الآن يجب أن نعتمد فى المقام الأول على التعاون العضوى الوثيق مع القطاعات الطليعية - وهى جبارة - فى دول الشرق الأخرى اليابان والصين والهند، وأمريكا اللاتينية وخاصة البرازيل بالإضافة إلى القوى الموجودة فى الدول العربية والإسلامية . فى المقام الأول ينبغى أن نعتمد على التعامل مع كل ما هو جاد وأصيل - ولا أقول «تجديد وبراق»- فى الثقافات الغربية، بدون أى تردد إطلاقاً وخاصة فى القطاع العلمى والتكنولوجى .

◆ **من منظور انتقائى أيضاً، أم أن هناك معايير جديدة ؟**

● من منظور نقدى انتقائى لكن بالفكر التحليلى وربط المعطيات بما نستطيع أن نستفيد، من دون أن يزيف ذلك خصوصية الشخصية الوطنية والثقافة الوطنية النابعة منها والتراث الحى فى عملية التجديد، بيت القصيد هو : الحفاظ على سيادة واستقلالية القرار الوطنى، أى أن الموضوع سياسى بمفهوم حضارى اولاً، وقبل كل شئ .

◆ **حتى الآن لم يدرس الشرق الغرب فى اطار نظرية أو من خلال فهم شامل... لماذا لا توجد فلسفة كاملة فى تصورك فى التعامل مع هذا الغرب ؟**

● علاقة القوى هى التى تكون الأساس والإطار العام . العنصر الذاتى واجتهادات ومبادرات المفكرين الوطنيين فى مختلف الدوائر الثقافية الشرقية تلعب دوراً هاماً . داخل هذا الاطار . وفى تقديرى أن المعروف والمعلوم أكثر من المنشور. لا توجد «انسكلوبيديا» للغرب فى الشرق لكن هناك فهم عميق جداً لقطاعات هامة من الشرق بما فى ذلك العالم العربى فى بعض فتراته بطبيعة القوة المتحركة أمامه وفكرها وفلسفتها ومنهاجها . لم يتخذ هذا شكل تصورات متكاملة. وسأضرب فى ذلك مثلاً محدداً - فى إطار العالم العربى - «فى أصول المسألة المصرية » لصبحى وحيدة تجد فهماً وإدراكاً عميقاً ورائعاً لأركان الفكر الغربى ولصياغة هذا الفكر من الناحية التاريخية فى صفحات قلائل . المسألة ليست فى بعدها الانسكلوبيدى ولكن فى عمق التفكير وتأثيره

مى القرار السياسى وهناك كتب ومحاولات أخرى كثيرة ذكرت صبحى وحيدة كمثال واضح معروف .

◆ **ما الذى يمنع من انتشار عمق التفكير هذا، وبحيث يكون إدراكنا للغرب إدراكا علمياً منتشراً على نطاق واسع وليس كشذرات عند صبحى وحيدة أو غيره.**

● أنا لا أفهم صراحة ما هو المطلوب منا، وما الذى نطالب به أنفسنا . هناك أولاً الموقف الدولى لأننا نعيش فى مجتمع السوق الدولية . ولأن الدولة الاشتركية الأولى فى العالم ولفترات قريبة جداً كانت تتحرك فى إطار اللحاق بمستوى معيشة الند الأمريكى وهى لا تزال تعيش فى نظام ثنائى من التنافس إلى أن جاءت تجربة الصين الرائدة وفيها لأول مرة محاولة لإنشاء مجتمع متعدد القطاعات يتسم بالتعددية الاقتصادية، وهو نفس النهج الذى نهجه النظام اليابانى الرأسمالى حيث تجد نظاماً ظاهره رأسمالى وباطنه مختلف تماماً، ومبنى على التضامن الاجتماعى بل على ما يمكن أن نطلق عليه الإقطاعية العسكرية التى تحرك النظام الرأسمالى فى مستوى متقدم من التضامن الاجتماعى والوئام بين مختلف فئات الشعب .

ثم هناك مجموعة كبيرة واسعة من المبادرات والمواقف لمختلف قطاعات الشرق لا يمكن أن تكون قد حققت هدفها إلا على أساس فهم عميق بعيد الرؤية لحقيقة وتحرك الغرب . ثورات التحرير والتحول الاشتراكى فى الصين وكوريا وفيتنام وكوبا وغيرها، حركات وحروب التحرير الوطنى، السويس، الجزائر، اليمن، أثيوبيا، الهند، إيران، التقدم العلمى والتكنولوجى الهائل فى مصر محمد على، وكذا فى اليابان والهند والبرازيل والصين اليوم، المبادرات المستمرة لمجموعة دول عدم الانحياز للإبقاء على مجال من الحرية فى القارات الثلاث والتوسط فى المنازعات العالمية الكبرى . إن فكر مدرسة رفاعة الطهطاوى، إبراهيم باشا، ثم دائرة الإمبراطور ميجى فى حركة التجديد فى اليابان، وكذا أفكار الرئيس ماوتسى تونج، والفكر الاستراتيجى لحروب التحرير فى فيتنام والجزائر ثم «فلسفة الثورة» ورسائل باندونج، ثم انجاز تأميم السويس

وعبور أكتوبر العظيم، والثورة الكوبية وانطلاق رجال الكنيسة فى أمريكا اللاتينية إلى لاهوت التحرير، والفكر الذى أدى إلى مقاومة «صندوق النقد الدولى» فى البرازيل وبيرو وتحدى أمريكا الجنوبية فى زيمبابوى ودول أفريقيا فى خط المواجهة، والعقلية التصنيعية المهيمنة على آسيا الشرقية فى مواجهة التحدى الأمريكى. . . مئات الأمثلة والإنجازات كلها تشهد على أن هناك فهماً عميقاً للغرب، وقدرة فعالة على المحاورة والانجاز على أرفع مستوى، وبعد هذا يسألون الشرق: أين وصف الغرب ؟! . . . أليست العبرة فى العمل ؟ فى تغيير الواقع ؟ فى تشكيل مجتمع عالمى جديد ؟ اليس كذلك ؟

◆ **أنا أطالب أولاً على مستوى علاقتنا بالغرب أن ندرك أولاً الأخطار الناجمة عن الصورة التى أدركنا بها الغرب حتى الآن والى أى مدى كان الغرب مسؤولا عن إدراكنا له بهذه الصورة وحتى إدراكنا نحن لصورتنا فى كثير من الأحيان، فلو أخذنا نموذجاً تفصيلياً لما نعايشه مع أجهزة الإعلام الغربية ووكالات الأنباء الغربية نجد فى بعض الأحيان أحداثا تجرى وقائعها فى بلادنا، فينقلونها بالصوت والصورة والتعليق ليقنعونا بعد ذلك بهذا الحدث بما يتناقض مع توجهاتنا، ولكى نسلك فى النهاية كما يريدون لنا.**

● أنت تقول ما أقوله لكن بعبارات أخرى . لكن هذا كله نتيجة ماذا ؟. . نتيجة وهن القوى الاستقلالية الوطنية . اليوم فى القطاع الشرقى الذى يعنينا بما يحدث فى الصين واليابان والهند لا يأتينا إلا من خلال وكالات الأنباء الغربية، بل حتى غربلة أقوال هذه الوكالات من خلال "الهيرالدتريبيون" التى أصبحت مرجع الطبقة السياسية وسائر المثقفين فى بلادنا بدلاً من أن يكون مصدر المعلومية كبرى الصحف ووكالات الأنباء فى الصين واليابان والهند والعكس بالعكس .

◆ **هل هناك ما يدفع الغرب نحو تصحيح صورته عن بلدان الشرق عموماً ومساعدة هذه البلدان فى الخروج من مأزقها الحالى نحو طريق التنمية والقدم ؟ مأ أن المواجهة والصراع بمختلف أشكاله هو الطريق الوحيد لتصحيح علاقة الشمال بالجنوب أو الشرق بالغرب ؟!**

● سأتحدث بصراحة . منذ بداية هذا الحديث وأنا أشعر بعدم ارتياح لكثير من الأسئلة التى تطرحها بأن القضية هى علاقة الغرب بالعالم العربى والعكس بالعكس، أنا أرى عكس ذلك وأن المسألة هى العلاقات المتبادلة بين مختلف الثقافات والحضارات وأعتبر أن الدائرة الثقافية العربية داخل الدائرة الإسلامية جزء هام من الدوائر الحضارية التى تتكون منها الحضارة الشرقية فى آسيا والقطاع العربى الإسلامى من أفريقيا وبعض امتداداتها فى أمريكا اللاتينية، أنا لا يهمنى العلاقة بين الغرب والعالم العربى على وجه الحصر، يهمنى العلاقة بين مصر والعالم العربى من ناحية والدائرة العالمية الشاملة من ناحية أخرى . ما أطرحه هو: كيف يمكن أن نجدد إدراكنا لحركة العالم بما فى ذلك الغرب ؟ والوسيلة ليست فى تعديل نمط علاقة مع أوروبا أو الغرب. والوسيلة هى فى تعديل وجهة نظرنا أو باتجاه الرؤية العربية نحو حوار جنوب - جنوب أى الارتباط أساساً بعموم عالم الشرق فى المقام الأول . لو عدلنا هذه الدفة وهذه هى دعوتى فى «ريح الشرق» والتابعة من فلسفة مؤتمر باندونج، ولو عدلنا هذه الوجهة سندرك أن المبادرة التاريخية اليوم فى تغيير موازين القوى فى العالم تأتى أساساً من الشرق وخاصة من آسيا، وحتى الرد على سؤالك لا يمكن أن يبدأ إلا من تغيير تشكيل النظام العالمى الذى يجرى تحت أعيننا، تغيير هذا التشكيل سينقل مركز الصدارة من الغرب الصناعى إلى الشرق، حول محور الصين - اليابان فى علاقة وثيقة مع القطاع الآسيوى لأوروبا . مع سيبيريا، مع الهند، مع الدائرة الافريقية الآسيوية وامتدادها إلى أمريكا اللاتينية وخاصة البرازيل، هذه هى وجهة نظرى. . .

◆ أختلف معك بصراحة فى مسألة حوار الجنوب - الجنوب لأننى أرى أن هذا الحوار ينبغى أن يكون أساساً فى مواجهة الغرب . وكما تعلم مثال باندونج الذى استشهدت به كنموذج لحوار الجنوب - الجنوب كان موجهاً أساساً ضد هيمنة الغرب . وبالتالى حتى مع الاعتراف بأهمية توسيع حوار الجنوب - الجنوب فى هذه المرحلة فإنه لا ينبغى أن ننسى أن وجهة الحوار، والمواجهة الرئيسية هى مع الشمال أى مع الغرب أساساً .

● حوار الجنوب - الجنوب وجهته نهضة شعوب الجنوب وشعوب الشرق .

◆ **عندما نقول جنوب فإن هذا يعنى «جنوب فى مواجهة شمال»؟!**

● المواجهة تعنى نقل مركز ثقل المبادرة التاريخية إلى المنطقة التى تمارس تحريك العملية . أين هى ؟ كانت قبل القرن الخامس عشر فى إطارى الإسلام والصين. تحولت بعد هذا إلى أوروبا الرأسمالية، ثم الولايات المتحدة الأمريكية . الآن هذا المركز بدأ ينتقل إلى القطاع الآسيوى من العالم الشرقى . هذا تبسيط شديد وهذا لا يقتضى حروباً عالمية بحال من الأحوال .

◆ **لم نتحدث عن حروب عالمية بل عن حدود التعايش بين الثقافات . فعندما أنجح فى نقل مركز الحضارة، هذا معناه أن ذلك يتم فى تغيير ميزان القوة الموجود حاليا بين الشرق والغرب، لأننا إذا عمقنا حوار الجنوب - الجنوب الذى تدعو إليه، فإن ذلك، لن يتم إلا على حساب الشمال أو الغرب . وبعد مواجهة حقيقية مع العلاقة المقلوبة مع الغرب الآن، وإلا كيف سينتقل مركز المبادرة التاريخية ومركز الحضارة إلى القطاع الآسيوى من العالم . هل يتم هذا الانتقال بتصريح سلمى من الغرب إلى هذا القطاع الآسيوى !! وكى ننجح فى نقل مركز المبادرة التاريخية ينبغى أن يكون لدينا مستوى من المعرفة والوعى والفكر له استقلاله الذاتى . بمعنى أن نتخلص من حالة الاستناد إلى مراجع غربية وكأنها الحكم والفصل فى ما نقوم به من نشاط . . . ينبغى أن نخرج من حالة عدم وضوح الوعى الذاتى، والمسخ والتشويه الناجم عن علاقتنا بالغرب .**

● هذا هو ما أقوله .

◆ **إذن الخطوة التالية أن نتخلص من آثار هذه الحالة المتغربة . حتى الآن مثقفونا ينطقون، أو يكتبون، كلمة أو اثنتين وتكون الثالثة استشهاداً بمرجع غربى يثبت صحة الكلمة السابقة . وبدون أن يكون بين مثقفينا وبين المصدر أية مسافة نقدية . . .**

وهل ترى أن هناك خلافاً فى هذا، وقد سبق أن عبرت عنه فى كثير من دراساتى ؟!

◆ **أقول ذلك لأننى أخشى أن تحمل دعوتك لحوار الجنوب - الجنوب نوعاً من تخفيف الضغط عن الغرب، لابد أن تكون المواجهة صريحة مع الذات، مع الآخر .**

● أنت تتحدث اليوم عما أسميتهم فى السبعينيات باسم «العملاء الحضاريون» هذه الفئات المتغربة التى تتصرف فى إطار من النقل والمحاكاة . . .

◆ **وما زالت هذه الفئات لها الغلبة والانتشار حتى الآن .**

هذا جزء من الهجمة الحضارية المضادة التى بدأت بعد حرب أكتوبر (تشرين) لإجهاض نتائج الحرب . مستغلة فى ذلك وباء العقود الدولارية المعروفة !

◆ **وقبل حرب أكتوبر (تشرين) أيضاً .**

● بعد أكتوبر (تشرين) بشكل أكثر شراسة . . . فى تقديرى أن هناك منهجين، منهج المواجهة والتشهير والصراع، ومنهج ثان هو نقل أرضية المعركة . فى تقديرى الآن أن المنهج الثانى هو الأقل، نتيجة وجود المنطقة العربية فى خط النار، فى ما يمكن أن نطلق عليه حرب المائة عام، وهى حرب حضارية وليست تكتيكية، والعمل هو أن نركز الجهود بشكل بنّاءنحو إعادة الدفة إلى إقامة ثقافة وطنية اصيلة جديدة فى عالمنا العربى، فى علاقة وثيقة عضوية ذكية بالثقافات الوطنية المتقدمة فى مختلف الدوائر الشرقية، ليست المسألة إذاً عملية صدام داخلى، وإنما تحديد موقف ثم دفع القوى الرئيسية إلى هذا الموقف . وهذا هو الذى سيغذى الطاقة الداخلية .

◆ **تحديد هذا الموقف، هل تعتقد أنه يجرى على أحسن وجه هذه الأيام، أم أننا لا نزال نعيش فى عصر "اللخبطة" والاختلاط وضياع الملامح فى تواصلنا المشوه مع الغرب، فلا نعرف من نحن، ما هى مقوماتنا الأساسية التى نستند إليها فى عملية الصراع . . .**

● نعم نحن فى خليط وتواصل مشوه كما تقول، هناك ملامح للتغريب واضحة لكن يوجد أيضاً فهم متزايد نابع من مؤتمر باندونج الذى كان هو النهج الغالب فى بلادنا فى

فترات طويلة، وهذا النهج الآن هو النهج الأقوى فى أهم دول الشرق، وبدأ ينتشر بشكل واضح فى مناطق واسعة فى أمريكا اللاتينية رغم جذورها الغربية وخاصة البرازيل . فالموقف موقف جدلى، هناك صراع بين الموقف التقليدى الذى وصفته وبين الموقف الجديد الذى بدأ مع محمد على، على مستوى عالمى، وليس مستوى مصر فقط، لكن فى النهاية هناك خلط بين المنهجين، والغلبة فى أحيان كثيرة فى العالم العربى هى لموقف المحاكاة وعدم الوضوح وعدم الاطمئنان إلى النفس. وبالمناسبة هل يمكن أن تذكر لى فى أية دولة عربية وفى أية جامعة عربية توجد أقسام لدراسة لغات وآداب وواقع شعوب الشرق فى اليابان والصين والهند، بينما فى جميع كليات الآداب فى الجامعات العربية توجد أقسام لتدريس اللغات اليونانية واللاتينية الكلاسيكية، أليس كذلك ؟ صحيح هناك بدايات، بدأنا ندرس هذه اللغات، وبدأنا نتعرف على هذه البلاد نتيجة حركة عدم الانحياز النابعة من باندونج، لكن مازلنا متخلفين جداً على هذا الصعيد، ومازلنا نعتمد على منطق المحاكاة والتقليد ونقل المعرفة والحوار مع الشمال فقط. وأنا أقول مرحباً بالحوار مع الشمال، ومرحباً بتجويد معرفتنا بالشمال، ولكن الواجب أن نقّوم أنفسنا أولاً ونطور المشروع الوطنى فى علاقة وطيدة مع القطاعات المتقدمة فى مختلف ثقافات وحضارات وقوميات الشرق وهى فى غاية الثراء .

◆ **لماذا تستخدم تعبير الشمال للدلالة على الغرب؟**

لأننا استخدمنا تعبير الجنوب .

● **لماذا لا نستخدم تعبير الشرق والغرب خاصة أننا نتحدث أساساً عن الأبعاد الثقافية للصراع وليس فقط الأبعاد الاقتصادية؟**

● أنا شخصياً فى كتاباتى لم أستعمل مصطلح الشمال والجنوب، وقد يكون اليوم هو أول مرة أستخدم فيها هذا التعبير، وعادة أستخدم تعبير الشرق والغرب أو القارات الثلاث والمركز المهيمن، لكن لم أستخدم من قبل مصطلح الشمال والجنوب، واستخدامى فى الحديث لهذا المصطلح غير مقصود، وأفضل أن يوضع مكان

استخدامه فى هـذا الحديث كلمة الغرب والشرق، أو القارات الثلاث .

◆ **هناك من يزعجه استخدام مصطلح شرق وغرب، ويعتبر أن ذلك قد تم تجاوزه من زمن، فلماذا العودة إلى هـذا المصطلح . وهناك من يزعجه هذا التعبير لأنه يوحد بين الغرب ولا يميز بين غرب رأسمالى وغرب اشتراكى . هل هـناك غرب واحد، أم مجموعة متباينة من هذا الغرب ؟**

● كتبت عشرات الدراسات حول هذا الموضوع، الغرب إطار حضارى تكون تاريخياً ابتداء من جذور معروفة، ثم تشعب خلال ثورات وخاصة منذ ثورة أكتوبر إلى نظامين مختلفين اجتماعياً وسياسياً وأيديولوجياً، وكذلك فى الشرق أيضاً، هناك عدد من الدول والأنظمة الاشتراكية، وعدد آخر من الدول الرأسمالية التابعة والمتخلفة أليس كذلك ؟ وكل حضارة يمكن أن تتشكل سياسياً حسب ظروفها. وإن ظلت متسقة فى إطارها التكوينى العام.

◆ **فى التعامل معنا، هل يكون هناك غرب واحد ونظرة غربية موحدة فى النهاية ؟**

● فهم الحضارة الغربية على تنوعها بشكل موحد ليس موقفاً سياسياً وإنما هو موقف ناتج من إقرار واقع، هو نتاج لعملية تكّون تاريخى طويل استمر بالنسبة للغرب ٢٥ جيلاً . . . الناتج عناصره واحدة، لكن تنظيم هذه العناصر فى الاجتماع والسياسة لإنتاج مجتمع من طراز كذا هو نتيجة الحركة السياسية هناك أنظمة اشتراكية وهناك أنظمة رأسمالية، هذه الأنظمة تستعمل العناصر التكوينية بشكل فيه ديمقراطية اجتماعية متقدمة جداً، وفى نفس الوقت مارست الهيمنة السياسية بأساليب مغايرة عن أساليب الغرب الإمبريالى التقليدى. وتدل التجربة أيضاً على أن العديد من الدول الاشتراكية قد تعاونت مع الدول الوطنية المستقلة فى مرحلة استقلالها بشكل إيجابى ساعد فى التخلص من الاستعمار وفى بناء الاقتصاد الوطنى، وهذا واقع تاريخى، لكن فى نفس الوقت لا يمكن أن ننكر أن هناك معطيات كثيرة ثقافية وعلمية وتكنولوجية جاءتنا فى مراحل سابقة

من الغرب قبل أن ينقسم إلى معسكرين . إنما جاءت تأكيداً لـهيمنة الغرب . . . وهذا شيء طبيعى فـى أية علاقة بين قوى مختلـفة، هناك قوى مهيمنـة، وقوى تابعة. ثم إن التفرقـة بين الشرق الحضارى والغرب الحـضارى موضوع تاريخى - فلسـفى فى حاجة إلى حديث آخر وقد عرضنا له بالتفصيل فى دراسات سابقة ومعروفة .

◆ **إنه بغيض بالنسبة لنا لأننا نشكل جانب القوى التابعة .**

● إذاً ندرك هذه كظاهرة تاريخية، ندركه كنتاج لعلاقة قوى .

◆ **لكن ونعانى من آثار هذه الهيمنة الناتجة عن ميزان القوى .**

● لكن لا ننظر إلى هذه المسألة من منظور «إخلاقى» .

◆ **فى بعض الأحيان الرؤية الأخلاقية ضرورية ومطلـوبة ومفيدة خاصة عندما نسمع مثقفى الغرب وهم يتحدثون دوماً عن حقوق الإنسان والحريات . . . نريد أن نقول لهم فى هذا الحوار أنتم كاذبون وتتحدثون عن حقوق الإنسان فى مكان، وتتغافلون عنها فى مكان آخر !!! يتحدثون عن حقوق الإنسان بصورة نفعية لا صلة لها بمفهوم الحقوق أو الإنسان .**

● لا، علاقة القـوى ينبغى أن ننظر إليها بعـين باردة للتحليل التاريخـى الموضوعى لعلاقات القوى . وبعد هذا يأتى الموقف الأخلاقى. فالعمل هو دوماً بيت القصيد .

على فهمى خشيم

الغرب يرفض الاستغراب

على فهمى خشيم أحد المفكرين البارزين فى ليبيا، وأحد القلائل المهتمين بالفلسفة العربية تدريساً وتأليفاً. وهو من المتخصصين فى فكر المعتزلة وله : النزعة العقلية فى تفكير المعتزلة، والجبائيان أبو على وهاشم، غير الكثير من المؤلفات الادبية والتراثية، ويعمل فى الجامعة رئيساً لقسم الفلسفة (أمين قسم التفسير فى ليبيا). وساهم فى إصدار عدد من الصحف والمجلات أهمها : «الفصول الأربعة» كما أن اهتماماته لا تقتصر على مجال الفلسفة بل تمتد إلى التاريخ والاجتماع والأدب والنقد وقرض الشعر ودراسة اللغات القديمة . . . بدأنا معه الحوار بهذ التساؤل الذى دار على ألسنة بعض المستشرقين لماذا يوجد استشراق ولا يوجد فى مقابله استغراب؟

● فلنتحدث أولاً عن الاستشراق والمستشرقين . البعض يرى أن الاستشراق بدأ مع الاستعمار، لكن الأمر الصحيح أن الاستشراق بدأ قبل الاستعمار . لكن من المؤكد أيضاً أن الارتباط بين الاستشراق والاستعمار مسألة محسومة بالأدلة والوثائق. فاهتمام المستشرقين بالشرق فى بداياتهم الأولى لم يكن حباً فى الشرق العربى أو الإسلام . المستشرقون الأوائل فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانوا ينقسمون إلى قسمين : قسم جاء ليمهد السبيل ويقدم المعلومات، وهو عمل لا يختلف عن عمل الاستخبارات عندما يكتبون عن مجتمع ما، عن طريق رصد كافة المعلومات عن هذا المجتمع . وكثير من المستشرقين كانوا يعملون مباشرة لدى

دوائر الاستخبارات الفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها، هذه بديهيات مؤكدة بالادلة والرسائل . لكن منهم بعض الناس الذين ذُهلوا أمام هذا التراث العربى الإسلامى، وأحبوه عن صدق ودافعوا عنه، لذلك لا ينبغى أن ننسى لهم حسنة حفاظهم على هذا التراث فى المكتبات الغربية، ولو لم يحفظ هذا التراث فى فترة الركود والانهيار العربى لضاع منه الكثير، هذا فضل يحسب لهم، ثم منهم من كان على علم كبير فأبدع، ومنهم من لم يكن على علم . . . المستشرقون الآن فى العصر الحديث فى حالة تراجع، لم يعد هناك الشىء الكثير مما يهتمون به نتيجة الصحوة فى الوطن العربى والإسلامى، لكن للأسف الشديد عندما يَكتب المستشرقون الآن فإنهم يكتبون من منطلق الطعن ومحاولة التشويه، وأذكر منهم على سبيل المثال، برنارد لويس الذى لا يختار من الموضوعات إلا الشائكة، فأذكر دراسة له كانت عن الزنوج أو السود فى الإسلام، فكان لا يختار فى دراسته إلا النماذج التى تسىء إلى السود كمحاولة منه لتشويه العلاقة بين الأفارقة السود والمسلمين، كان يركز على نماذج من بشار بن برد تسىء لهم، وينسى النماذج المضادة، ينسى أن بلال كان مؤذن الرسول، لم ينتبه إلى قصة عنترة بن شداد وتأثيرها العميق فى التراث الشعبى العربى وفى الوجدان العربى والفولكور العربى، لم يذكر البطولات الخارقة لهؤلاء السود . كان يعرف كل هذه النماذج لكنه لم يشر إليها . يختار المستشرق موضوعات يعلم أنها تثير الحساسية، يختار ثورة تو باعتبارها تعبيراً عن رفض الزنوج الأفارقة للحكم العربى، وهذا غير صحيح لأن قادة الزنج كانوا عرباً . ويختار المستشرق الشخصيات التى يدور حولها الكثير من الجدل مثل ابن الحلاج أو ابن سبعين فى التصوف، وتجدهم لا يهتمون بالقيم الصوفية الحقيقية المتأثرة بالمنهج الإسلامى، لأن التصوف إسلامى

المنهج والتصور، وبالتالى يحاولون التشويه إما عن طريق بث المشكلات فى داخل الفكر الإسلامى أو عن طريق الفكر الصوفى. المستشرقون اهتموا أيضاً باللغات، وسأضرب مثلاً : ما الذى فعله شمبليون؛ اضطر إلى قراءة العربية وتعلمها ليحل رموز اللغة المصرية القديمة، وقاموسه الأول كان مقابلة اللغة العربية إلى اللغة المصرية، ومن جاءوا بعده حاولوا ونجحوا فى أبعاد اللغة المصرية القديمة عن اللغة العربية، باعتبارها لغة منفصلة واعتبروها لغة حامية وبالتالى غرقنا فى هذا الخضم وخُدعنا فيه .

المستشرقون أدوا دوراً سياسياً وجاسوسياً ضخماً فى شمال أفريقيا، يجب أن نعترف بذلك، وعملوا كذلك على إثارة الفتنة الطائفية عبر نشر كتب معينه وتحليلات معينه وعبر تشويههم للتراث الإسلامى والتاريخ العربى، وهو ما أدى إلى ما نشهده اليوم من حرب طائفية فى لبنان، وأيضا ما نشهده من محاولات وزرع الفرقة بين أقباط مصر ومسلميها بشكل مفتعل حتى يهددوا بها عروبة مصر وإسلامها، ثم من الذى نشر النزعة البربرية فى شمال أفريقيا ؟ أليست المدارس الفرنسية، بروفنسال وجماعته، لاوست وجماعته، وكثير من الأسماء التى اهتمت بدراسة اللغة البربرية والعمل على فصلها عن اللغة العربية، كى يمنحوا لقسم من شمال إفريقيا ذاتية ثقافية، وبذلك يحصل إنشقاق فى صفوف الأمة . لقد دمروا فعلاً التكوين والوحدة الحضارية للمثقفين . هم الذى يتبنون الآن الكتب التى تدمر الكيان العربى الإسلامى أو التى تنهج منهجاً يمضى مع تفكيرهم . دور النشر الفرنسية هى التى تتبنى أسماء لا داعى لذكرها، وهم فقاقيع أو توامة ك ما فى الأمر أنهم يشتمون القرآن أو يشتمون فقيه القرية ويسخرون من المسلمين، كمحمد شكرى وغيره، الذين يظنون أنهم اقتربوا من جائزة نوبل، عليهم اللعنة . . . المستشرقون، للأسف، وأنا عشت مع أغلبهم من

المحدثين هم جهلة، أغلبهم جهلة...

◆ **هل تذكر لنا نماذج ؟**

● كتابات برناود لويس نفسه، إنه يدعى المعرفة ويكتب عن جماعة «الحشاشين» ويلوى الحقائق .. مرجليوث هو الذى مد طه حسين بالعبث والكلام الفارغ الذى قاله فى كتابه الشعر الجاهلى ... عندما أقرأ لمستشرقين محدثين أجدهم يفسرون الأشياء بطريقة ... أذكر جاك بيرك وهو أستاذ جليل وقدم خدمات جليلة، لكنه لا يحسن العربية كما أحسنها أنا وأنت، وأنا أستمع إليه فى محاضرة بالكوليج دوفرانس ...

◆ **مع أنه من أفضل المستشرقين الذين يتحدثون باللغة العربية .**

● كان لديه الكثير من التركيبات المعوجة، وهذا لا يقلل من أهمية الجهد الذى بذلوه ... حفظهم لتراثنا ينبغى أن نقدره ولكن نأخذ عليهم أن أغلبهم كانوا أتباعاً للاستخبارات ويخدمون أوطانهم، ولا تسريب.

◆ **لكنهم يقولون : وماذا فعلتم أنتم ؟**

● حضرت مؤخراً حلقة نقاش فى جامعة الفاتح عن الدراسات العليا ... عندما نرسل طالباً إلى إنجلترا ليتخصص فى التقنيات الحديثة لمعالجة الحديد والصلب يرفض طلبه، لكن نقدم رسالة عن تشغل مصنع الحديد والصلب فى مصراته تُقبل، فجميع الدراسات التى يكتبها طلاب عرب عن العالم العربى تقبل فى كافة المجالات ويرحب بها، لكن إذا أردت أن تكتب شيئا عن الغرب لا يُقبل، بينما الرسائل الاولى تقبل لأنها موثقة ومليئة بالمعلومات التى تمضى مباشرة إلى دائرة المخابرات

وتبرمج. يقولون وماذا عنكم ؟ نحن لم ندرسهم لأنهم لم يسمحوا لنا أن ندرسهم . أنه غير مسموح لنا إطلاقاً القيام بذلك * أتمنى أن يدرس طالب عربى تركيبة الأسرة البريطانية المالكة لن يسمح لطالب عربى دراسة أصول العائلة المالكة، لكن بينما يسمح للطلاب دراسة تركيبة الحكم فى العراق أو سوريا أو ليبيا .

◆ **قمت بإجراء تحقيق صحفى عن هذا الأمر ووجدت الأساتذة فى فرنسا يقولون أنتم السبب، وأنتم الذين تبحثون عن دراسات سهلة عن الطهطاوى أو الحزب الاشتراكى فى لبنان حتى يحصل الطالب على الدكتوراه بسرعة ويعود للعمل فى بلاده .**

● لا . . . هذا الكلام غير صحيح . . هم يشجعونه لمعرفة الأفغانى وعبده، أو تركيبة السكان فى مصر وليبيا، يرحبون بذلك لأنها معلومات، ووفقا لها تخطط دوائر الاستخبارات الغربية، لذلك ناقشنا الأمر فى ليبيا واتخذنا هذا القرار: الذى يريد أن يدرس موضوعاً عن ليبيا فليدرسه فى ليبيا، أما إذا أراد أن يدرس موضوعا عن فرنسا فليذهب إلى هناك، إذا أراد الطالب أن يدرس فلسفة هيجل أو سارتر فليذهب إلى هناك، وإذا رغب فى دراسة الكندى والفارابى فليذهب إلى جامعاتنا، أما إذا كان الهدف دراسة اللغة والاحتكاك بالآخرين، وهو أمر محمود، فبشرط أن يدرس سنة ثم يعود لإعداد دراسته هنا .

◆ **يقولون: لا يوجد لديكم استغراب. . كم قدمنا نحن الاستشراق ؟**

● نحن لسنا مقصرين، بل بالعكس لدينا أحمد فارس الشدياق الذى كتب عن أوروبا . أليس هذا محاولة لدراسة الغرب . والعلماء الذين ذهبوا إلى الغرب فى بداية النهضة كتبوا عن أوروبا . لكن الأوربيين منعوا هذا لأننا بدأنا نعرف . . . الآن نحن مقبلون للتعرف عليهم أكثر وبدراية أكثر، فهل يسمح لنا بذلك ؟ لا أعرف لماذ

يضعوننا فى موضـع الاتهام، كأننا نحن المقصرين ؟ أهم الذين يتـعمدون ذلك حتى يظل الاستشراق قائـما . . . المستشرقون جاءوا مع الاستـعمار، وأخذوا آلاف الكتب والوثائق، تجدها فى مكتباتهم الوطنية . كل دولـة سرقت حصتها من تراثنا المكتوب . نحن دائما نلام، على العرب أن يستيقظوا . . .

◆ **لماذا لا يستيقظ العرب أو بتعبير آخر: لماذا لا يوجد لدينا فلاسفة عـرب اليوم ؟**

● لست متـفقاً مع هـذا السؤال . فإذا كـان مفهوم الـفلسفة الذى نـتخذه معـياراً للحكم على وجود الفـلاسفة العرب أو غيابهـم هو المفهوم التقليـدى للفلسفة أى أن يضع الإنسان مـذهباً متكاملاً فى مـناحى الحياة، فهذا الـمفهوم لم يعد قـائماً لا فى الشرق ولا فى الغرب . أما إذا كانت الفلسفة هى الفكرة الجوهرية المعينة التى يدور حولها فكر المفكر أو الـفيلسوف فهذا موجود، ونحن لدينا كثيـر من الكُتّاب يفوقون كُتّاب الغرب أمـثال عبد الرحمن بدوى، عبد الهـادى أبو ريده، توفيق الطويل، زكى نجيب محمود وغـيرهم من بلاد المغرب والمشرق العربى الذيـن قد نتفق أو نختلف معهم، لكن لا نستـطيع أن نذكر فلسفاتهم، لكن المشكلة تأتى مـن أن هناك فيلسوفاً ما تسلط عليـه الأضواء ويجد من يهتم بأفكاره ويذيعـها فيصير فيـلسوفاً . . وأنا فى تصورى أن هناك فـلاسفة عربـاً معاصرين لكن حـظهم سئ لأنهم لم يُعرفـوا بعد فى الغرب !! ونحن فـقط مأخوذون بما يأتى إلـينا من الغرب ودعايته فـى حين أن لدينا فلاسفة عرباً كباراً لكنهم لا يجدون فرصـة أن يُعرفوا وأن يُعترف بهم فى الخارج كما فى الداخل، حيث لا يستطيعون أن يعبروا تعبيراً حـقيقياً عما يدور فى أذهانهم نتيجة الطغـيـان السـائد فى الـوطن العـربى. لا يزدهـر والفكر إلا فـى جو مـن الحـرية، والمعروف أن الوطن العربى، محروم من نعمة الحرية هذه .

◆ **حسناً . . لكن ألا تلاحظ أنك لا تقيم فرقاً بين الـفيلسوف والمفكر . فالثانى قد يكون مـجاله الفكر السيـاسى أو الاقتصادى أو الاجتـماعى، بينما الأول فـمجاله محدد هو الفكر الفلسفى . بالطبع لا أعنى بذلك أن مـجال الفلسفة يغفل المجالات المعرفـية الأخرى، لكن ألاحظ أن لدينـا مفكرين وليس فلاسـفة يبحثون فـى قضايا فلسفية من منظور جديد، استناداً إلى تراث فلسفى عربى .**

● أنا لا أعتقد فى مشروعية التمييز بـين الفيلسوف والمفكر كما تقول، وكثير من كتب الفلسـفة تتناول سقراط وأفـلاطون وأرسطو لوصفهم مفكـرين . أنا فى تصورى وأصر على ذلك أن هناك كثيراً من المفكرين العرب لكنهم مغبونون وغير معروفين أو معترف بهم، أمـا الفلسفة بمعنى التنظيـر الخاص فى مجال محدد فأعتـقد أنه لم يعد لهذا النوع من التفكير مجال حقيقى، لأن الحيـاة أصبحت أكثر دفقاً. نحن محتاجون إلى أفكار متـصلة بالحياة . . . أعود إلـى سؤالك: هل فى الوطن العربى فـلاسفة ؟ أقول: إذا الفيلســوف بمعنى ذلك الذى يفكر فى قضايا وله مـوقف- كلمة موقف فى التعبير الحديث هى مذهب فى التعبير القديم - فأجيب بنعم ولدينا منهم الكثير لكن لا يسلط عليهم الضوء .

◆ **يبدو لى أنـك حصرت النقـاش فى قضيـة «تسليط الأضواء» فقـط فى حين أن غياب الفلاسفة العرب المعاصرين ربمـا يكون نابعاً من غياب منهج ورؤية ذاتية تميز هؤلاء الفلاسفة العرب عن أقرانهم الغربيين .**

● لا ينبغـى أن نقول بأن هناك انفـصالاً فى المعـرفة الإنسانـية، فالذى فكر فـيه الفيلســوف لابنتيز فكر فيه مـن قبل فلاسفة عرب. هنـاك تفسير إنسانى مـشترك وهذا شئ طبيـعى . . . فالشك المنهجى الـذى قال به ديكارت ألم يكن موجـوداً فى كتب

الجاحظ، كل ما فى الأمر أن هذا الشك المنهجى نسب إلى ديكارت لأنه ظهر فى بداية النهضة الأوروبية فسلطت عليه الأضواء، بينما الجاحظ جاء بعد انهيار حضارى فمات فكره . . .

◆ **بالطبع هناك بديهية تقول إن المعرفة عامة ومشتركة وإنسانية، لكن هذا لا ينفى أن العالم منقسم إلى حضارات وثقافات، الأمر الذى فقضى بالضرورة إلى وجود فلسفات مختلفة ومناهج فى الرؤية مختلفة أيضاً .**

● المنهج فى التفكير أو الرؤية واحدة فى تصورى . منهج كتابة التاريخ فى أمريكا لا يختلف عن منهج كتابته فى ليبيا . فالعلوم واحدة والمنهج واحد لكن التطبيق يخضع إلى ظروف متنوعة .

◆ **لكن ألا يغير اختلاف الظروف من قواعد المنهج . وهل المنهج اجراءات تقنية فقط تصلح فى أى زمان ومكان أم أن به جانباً نظرياً تحليلياً يرتبط بمفهوم الثقافة أو الحضارة التى ننتمى إليها؟**

● أنا مؤمن بالتنوع وليس الانقسام داخل الأسرة الواحدة . أنا مؤمن بوحدة الأصول فى كل شيء، وأؤمن بهذا الاختلاف الذى لا يؤثر فى وحدة الأصول، وأعتقد أن المناهج - كوحدة أصول - هى واحدة فى كل أنحاء العالم.

◆ **التحليل النفسى كمنهج فى معرفة الذات البشرية والغوص فى أسرارها على سبيل المثال ، لا يمكن النظر إليه على أنه منهج عالمى يصلح فى الغرب كما فى الشرق ؟**

● أولاً: هناك ردة فعل ضد التحليل النفسى فى الغرب ذاته، وثانياً ينبغى أن

نتساءل أولاً: هل نقبل نحن التحليل النفسى أم لا . . . المشكلة هى متى نصل فى العالم كله إلى حقائق ثابتة تطبق فى أى زمان ومكان ؟!

◆ **قبل أن نصل إلى تلك الحقائق الثابتة بين الحضارات والثقافات، أليس من المشروع أن نتحدث أولاً عما يميز هذه الحضارات، ثم نبحث بعد ذلك فى القواسم المشتركة بينها . فإذا كنا نتحدث عن المناهج فما هى مناهجنا الذاتية فى الرؤية والتحليل ؟**

● إذا اخذنا الحضارات الإنسانية باعتبارها تعيش فى صراع فإنه ليس من المطلوب منى أن أتبع مناهج الآخرى. أما إذا قام بين الحضارات والثقافات حوار فيمكن الاستفادة من الثقافات الأخرى والعطاءات الأخرى، وبالتالى لا أمانع فى استخدام المناهج إذا أفادتنا، وليس هناك ما يمنع حدوث العكس أيضاً إذا وجد الغربيون فى مناهجنا ما يفيدهم .

◆ **إذا تركنا جانباً مسألة الصراع أو الحوار بين الثقافات . فأين هى مناهجنا الذاتية فى الرؤية والبحث اليوم والتى يمكن للغرب أن يستفيد منها؟**

● كعربى مسلم فإن منهجى واضح جداً وليست لدينا مشاكل فى هذا . . . منهجنا العقلى موجود وهو الأساس الحقيقى لثقافتنا . العقل هو أساس المنهج الإسلامى فى التفكير وهو مبنى على أسس منطقية تتفرع بعد ذلك إلى مجموعة هائلة من الفروع التى تتنوع حسب المعطيات وظروف الزمان والمكان . وليس هناك ما يوجب فرض المنهج العقلى على غيرنا. كما لا أطلب من أحد أن يفرض مناهجه لدينا . . . وأعتقد أنه قد آن الأوان لكى نسترد الثقة بأنفسنا . نحن فى الوطن العربى فى حاجة إلى الثقة بأنفسنا ومبادئنا والعودة إلى تراثنا - والتراث لا يؤخذ كله

بالمناسبة - ومن ناحية أخرى ينبغى أن نستفيد من تجارب الآخرين على أساس الند للند، وأن نعترف أولاً بمفكرينا الذين لا يقلون أهمية عن فلاسفة الغرب . . . وهم يهتمون فى الغرب بمفكريهم وعلينا أن نهتم بمفكرينا . خذ مثلاً راسل ألا يعتبر فيلسوفاً ؟- لكن ما هو الإسهام الفلسفى الذى قدمه راسل، له كتابات أخرى فى السياسة ؟ أليس هو شغله فى الرياضيات مع وايتهد ! لكن راسل له كتابات أخرى فى السياسة والاجتماع والدين وكل شىء . هل كان يتبع موقفاً معينا موافقاً لمنهجه الرياضى فى كل هذه النشاطات التى كان يقوم بها ؟! لا يمكن تأكيد ذلك . كان يأخذ مواقفه الاجتماعية نتيجة تفكير مستقل . عندما كتب لماذا لست مسيحياً ؟ لم يكن لموقفه هذا علاقة بفلسفته فى الرياضيات، وكان آخر عمل له بيانه عن فلسطين قبل أن يموت بشهر واحد فقط . لكن جملة المواقف السياسية والاجتماعية والفكرية هذه هى التى جعلت من راسل فيلسوفاً . فلماذا - انطلاقاً من هذا المعيار- لا نتحدث عن المفكرين العرب بوصفهم فلاسفة لماذا لا نقول الفيلسوف العقاد ؟ فالعقاد أضخم وأشمل وأكثر منهجية مع نفسه . العقاد كان يؤمن بقدرة الفرد وانطلاقاً من هذا الأساس أنتهج أعماله الأدبية والفكرية والإسلامية . العقاد إذا فيلسوف وتراثه أضخم من تراث راسل، فلماذا نعترف براسل فيلسوفاً والعقاد غير ذلك. أم أن كلمة فيلسوف هى جميلة عندما نقرنها باسم راسل وهى غير جميلة عندما نقرنها باسم العقاد . طه حسين أيضاً كتب فى كل المجالات: فى الأدب، فى السيرة، فى النقد، وخلف لنا آلاف الصفحات فلماذا لا نعتبره فيلسوفاً؟ هل لأنه مفكر عربى لا يستحق كلمة فيلسوف؟ وأنا أقول إنه فيلسوف (بحدة) وله موقف من الحياة والناس والمجتمع والفكر والتاريخ . . . وحتى الفلاسفة الكبار فى العالم لم يصفوا أنفسهم بأنهم

فلاسفة كأفلاطون وأرسطو بل الشراح الذين درسوا أعمالهم هم الذين قالوا هذا مذهبه مثالى وهذا مـذهبه واقعى . . . ما يثيـر حيرتى هو أننا نضع الكُتّـاب العرب دائماً فى مرتبة أقل، وذلك راجع فى تصورى إلى أننا لم نعـد نؤمن بأنفسنا، ونرتمى دائماً فى أحضان الآخـرين !! الغربيون يصنعـون فلاسفاتهم ونـحن ندمر فلاسفـتنا !! هيجل، كانط، شوبنهـاور، سارتر، ويتحمســون لهم ويعطونهم حقهم من الاهتـمام والدراسة والتمجيد . أما الأمة العربية فهى الأمة الوحيدة التى تحطم مفكريها . فلو ظهر العقاد فى الغرب لأصـبح فيلسوفاً بالـمعنى المحدد للـكلمة . نحن لم تعد تحـلو لنا سوى الأسماء الغربية التى تطن وترن . . لكن الأسماء العربية مثل زكى نجيب محمود وعبد الرحمن بدوى وفؤاد زكريا وغيرهم فهى أسماء لا تطن ولا ترن كأسماء الغربيين !

◆ **حتى نكون منصـفين أيضا ينبغى الاعـتراف أن كثيرين من المـفكرين العرب لا يوجد فى إنتاجـهم ما يميزهم كعـرب وكل ما يقومون به هو ترجمـة وشرح نصوص الفلسفـة الغربية أو تكرار شرح الـنصوص الكلاسيكية فى الـفلسفة العربيـة، فليست المسألة فقط عائدة إلى عدم الاهتمام بمفكرينا !**

● ليس هناك من تثريب فـى الأخذ من الغرب، ففلاسفـة الغرب اخذوا منا . ألم يتأثر توماس الاكوينى . بيكون، ديكارت، بابـن رشد وابن سينا ولم يمنع هذا كونهم فلاسفة من الغرب .

◆ **لكن الأمر بـالنسبة إلينا فـى العصر الحديـث أننا نأخذ من الغرب مـع تجاهل الأسس والمقومات الذاتية للثقافة العربية .**

هذه تهمة تسـاق فى الغالب للتحطيم! العقـاد غير معترف به كـمفكر فى البلاد

العربـية، وبعض الأقلام تـهاجمـه بصفة أنـه رجعى أو يعبـد الفردية والبـطولة، لكن كارليل عابد البطولة، هو فيلسوف . . . أعتقـد إذا بدأنا دراسة العقاد كفيلسوف يمكن أن تتوالى الدراسات بعد ذلك ونجد من يدرس عـبد الرحمن بدوى كفيلسوف، وزكى نجيب مـحمود كفيلـسوف، وفؤاد زكريا كفـيلسوف . هؤلاء أختلف مـعهم فى الآراء لكن لا أنفى أنهم فـلاسفة فى نمط حيـاتهم وتفكيرهم، أما مـسألة التأثر فهـى مسألة بديهية وطبـيعية . . . الغريب أننا ندمـر أنفسنا . . هل تتصور أن هناك فلاسـفة أفارقة مهـمين ولا يـوجد فلاسـفة عـرب مهمـين ! أم أن اطلاق كلمـة الفيلـسوف العـقاد، الفيلسـوف عبد الرحمن بدوى، ترعـبنا . . . هناك مفكرون فى الشام والعـراق ومصر وربما فى اليمن وبقـية البلاد العربية ولهم منهج فى الحـياة وأسس ومواقف. هذه هى الفلسفة. . مواقف، سواء كانت نظرية أو سياسية أو اجتماعية .

◆ **ألا تعتقد أن غياب فلاسفة عـرب معاصرين - وأنا أصر على ذلك - يعود إلى وجود انقطاع بين الفلسفة العربية الإسلامية الكلاسيكية وبين الإنتاج الفلسفى المعاصر فى العالم العربى ؟**

● أنا أقـول - وأصر أيضـاً - أن الفلاسـفة العـرب موجـودون لكننا لم نبـدأ فى اكتشافهم ولم نعترف بهم، وهذا يحدث إحباطاً وينتقل الإحباط إلى آخرين . فهل من المعقول بعـد خمسين عاماً من الكتابة والتـأليف أن يجد المفكر نفسه غيـر معترف به كمثقف، ويهزأ به ويسخر به ويحطم ويتم تدمـيره . نحن نضطهد فلاسفتنا ومفكرينا، نتيجة أوضاعنا وعصر التردى الرهيب الذى لم يمر على الأمة العربية مثله اليوم .

اليوم أحمد عدوية أحـسن من أى فيلسوف فى العالم العربى، طبعـا هذا نتيجة

عوامل سياسية واقتصادية وحضارية وعمل دؤوب من الآخرين لتدميرنا من الداخل، بحيث أفقدونا الثقة فى أنفسنا، ولا يمكن لنا أن ننهض من جديد إلا فى مناخ من الحرية، علينا أن نعلّم الطفل العربى ما تعنيه الحرية، نحن للأسف من المحيط إلى الخليج فى حاجة إلى الحرية. نحن فى الوطن العربى لا نزال نعيش تعساء فى سلوكنا وكلامنا وفكرنا وإذاعتنا وصحفنا . . . هناك مطالب أخرى للنهضة كالعدالة الاجتماعية والوحدة والتصنيع، لكن هذا يأتى بعد الحرية وأعنى الحرية السياسية أولاً ثم الحرية الإجتماعية ثم حريتى كإنسان فى تحقيق وجودى، وبعد ذلك تزدهر الفلسفة، إذ كيف يوجد فلاسفة عرب، والمفكر يكتب وهو يفكر فى الرقيب والشرطى ! كيف يبدع وهو لا يستطيع أن يفكر ويقول رأيه . أقول: ما نحتاجه اليوم وقبل أى شىء آخر . . الحرية . . .

لـويـس عــوض
دائما... الغــرب غــرب

يشغل لويس مكانة هامة فى الحياة الثقافية فى مصر والعالم العربى، وهو منذ عقود يشكل نافذة كبرى نطل منها على جوانب من الفكر والأدب فى أوروبا، ولويس عوض مؤرخ وناقد أدبى خاض الكثير من المعارك الشائكة فى الداخل والخارج . ومنذ كتابه « المؤثرات الأجنبية فى الأدب المصرى الحديث » ثم «تاريخ الفكر المصرى الحديث»، ثم كتبه الأخرى التى تناول فيها عصر النهضة الأوروبية حتى كتابه الأخير «مقدمة فى فقه اللغة العربية» وهو يحمل معه هذا التوتر الخلاق إلى يفيض إبداعا ومعرفة، كما ينص فى بعض الفترات معارك صراعيه تركت أثارها الواضحة على مواقفة وآرائه .

التقيت لويس عوض، المرة الأخيرة، فى باريس صيف عام ١٩٨٦، وتجولنا فى مكتبات الحى اللاتينى ثم جلسنا فى مقهى وبدأنا حواراً مسجلا اتسم بالحدة أحيانا، لكنه فى النهاية حوار عقل إلى عقل مع الاحترام والتقدير الذى نكنه دائما للدور الهام الذى نهض به لويس عوض فى ثقافتنا المعاصرة والتى كان أحد فرسانها فى دفاعه عن التعليم العام فى وجه سماسرة الانفتاح الاقتصادى وغيرها من القضايا التى تهم الوطن باسره، وإن كان ذلك لم يمنع الخلاف معه فى قضايا أخرى كثيرة . . بدأت الحوار معه بالتساؤل التالى:

◆ **كيف تفسر استعادة الحوار من جديد عن شرق فى مواجهة غرب، وعن جنوب فى مواجهة شمال ؟ هل تعتقد أن هذا حوار مفتعل أم أن هناك وعياً جديداً بمسألة العلاقة مع الغرب اليوم ؟ ماذا يعكس هذا الحوار فى رأيك، هذه الأيام ؟**

● يعكس هزيمة منكرة . الملاحظة التى أستطيع أن أبديها، هى أننا فى أزمنة القوة والنهضة نحاول أن نضرب الحواجز التى بيننا وبين العالم الخارجى قدر الإمكان، والتوجه نحو الحضارات الأخرى الراقية، ليس فقط من الناحية المالية لكن أيضاً من الناحية الفكرية . وعاشت مصر هذه المراحل، مراحل القوة والنهضة، فى عهد محمد

على وعصر إسماعيل وثورة ١٩١٩ . لكن عصر عبد الناصر أحدث البلبلة الكبرى عندما أرسى دعائم الفلسفة التوفيقية بين الانغلاق على النفس وبين استيعاب وجوه من الحضارة الغربية، تصور أنها مفيدة لنظامة المؤسس على استعادة القوة . . . نظام عبد الناصر لم ينشأ من فراغ . . كان يحتوى دائما على العنصر المحافظ، وكانت ثورة عبد الناصر، فى نهاية الأمر، هى ثورة الشبان المحافظين، أى أنها كانت تجمع بين الشباب، والشباب بطبيعته يسعى للتغيير، والعقلية المحافظة التى تطالب بالانغلاق . ومن هنا أدار عبد الناصر ظهره لنظرية استيعاب الحضارة الغربية إلا من وجهها التكنولوجى . لم يكن الأمر كذلك فى عصر محمد على، لم تكن هناك حواجز مرجودة، كان محمد على، إلى جانب محاولاته فى بناء الترسانة المصرية ببناء الجيش المصرى على أحدث طراز، كان يسمح بظهور مفكرين وخروج مصر الحديثة من العصور الوسطى متمثلة فى رجلين من أهم رجالها هما رفاعة الطهطاوى، بدرجة أساسية، والجبرتى بدرجة فرعية، وأحمد فارس الشدياق . بالطبع رفاعة كان الثورة الكبيرة التى خرج منها التفكير الحديث، ولا سيما عبر الصدمة الحضارية الأولى التى تلقاها عند زيارته لأوروبا . ولم يكن الطهطاوى نفسه خارجاً من فراغ لأن أستاذه كان الشيخ حسن العطار، وكان من المؤمنين بالتحديث فى الفكر والمؤسسات القومية عن طريق استيعاب الحضارة الحديثة بجميع معانيها، والدليل على ذلك أن الشيخ حسن العطار عندما كان شيخاً للأزهر فى عهد محمد على، أراد إدخال العلوم الحديثة إلى الأزهر ودخل فى معارك مع شيوخ الأزهر، وكان يعمل على تطوير مناهج التدريس والتعليم فى الأزهر . . وعندما جاء الطهطاوى إلى (باريس) أحس بجوهر المجتمع الغربى وقد انعكس ذلك بوضوح فى كتابه الشهير تخليص الإبريز فى تلخيص باريس . . .

◆ **قلت فى بداية حديثك إن نظام عبد الناصر أدار ظهره للثقافة الغربية بينما تشهد فترة الستينيات على وجود حركة نشطة تجاه الاهتمام بالثقافة الغربية والترجمة عنها .**

● في الحقيقة الذى أنقذ نظام عبد الناصر من العودة إلى القيم التقليدية هو أنه ورث جيلاً من المثقفين، لم يكن هو الذى بناه، ورثه عن فترة أواخر عهد الملكية. هذا الجيل كان يتجه إلى اليسار، كانت قيادات هذا الجيل : فؤاد مرسى، إسماعيل صبرى عبد الله، أحمد بهاء الدين، كامل زهيرى، فتحى غانم، الذين تكونوا فى الأربعينيات وكانوا متطلعين لتطوير المجتمع المصرى باستيعاب المناهج الأوروبية المادية والفكرية، وكانوا حلقة الوصل بيننا وبين العالم الخارجى فى عهد عبد الناصر، ودخل عبد الناصر فى تناقض معهم، فى أول عهده، لكنه كان لديه فضيلة أنه دائما مع الأحداث، ومن أجل أن يحدث التغيير، ولأنه لا يمكنه الاستغناء عنهم، بدأت المصالحة الوطنية، ونتج عنها ازدهار حركة الترجمة التى أشرت إليها فى كلامك، والتى جاءت كنتيجة طبيعية لنمو النظام الناصرى وتخلصه درجة درجة من الاتجاهات اليمينية التى كانت مهيمنة . أتذكر أن شخصا مثل كمال الدين حسين بعقليته التقليدية المحافظة كان الكل فى الكل لمدة عشر سنوات كاملة فى الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٢، أى فترة إعلان الميثاق الوطنى . وبعدها استطاع عبد الناصر ان يتجاوز هذه القيم التقليدية، واستطاع ان يطعم المجتمع المصرى بالأفكار الجديدة على أساس علمى جديد، وذلك فى الوقت الذى ظل فيه أقرانه كما هم (محلك سر) ولم يفهموا حركة التاريخ فى المجتمع المصرى. آنذاك حصل الانشقاق فى المجتمع المصرى، وفى داخل النظام الناصرى نفسه إلى الدرجة التى أعتقد فيها أن ذلك أدى إلى الهزيمة، وبعد ١٩٧٦ كانت هناك تيارات متعارضة، وفى كتابى «أقنعة الناصرية السبعة» وصفتها بأنها أشبه بسيارة تسير فى اتجاهين متعارضين . هذا التناقض كان موجوداً منذ بداية الثورة، فكيف تقوم ثورة وتطالب بتصفية المصالح الأجنبية فى مصر وتبدأ بمصادرة أملاك الأجانب وتؤممها أو تمصرها، وتؤمم قناة السويس، ، وما تلاها من تأميم البنوك والشركات الأجنبية، كيف تفعل كل هذا، وتحاول فى الوقت نفسه أن تقنع الغرب بأن يأتى للاستثمار فى مصر ؟! هذا يدلك على أن جرثومة هذا التناقض كانت موجودة مع نظام عبد الناصر منذ البداية. وجود هذا التناقض

من البداية كـان من عورات النظام الناصـرى، ثم اكتشف عـبد الناصر أنه لابد أن يـختار فاختار طريقا قوميا، عندما عـرف أن الغرب لن يأتى برؤوس الأموال لحل مشاكله واتجه نحو الشرق مع الاتجاه أيضاً إلى تأميم رؤوس الأموال المصرية .

◆ **تشير فى حديثك دائـما إلى التيار المنغلق الذى يقيم الحـواجز بيننا وبين الغرب، لكن المشكـلة أنه ليس فقط هذا التيـار هو الذى صنع هذه المسافـة مع الغرب، وهناك بعض الأسـماء والاتجـاهات الأخرى تتـحدث عن الوعى الذاتـى فى مواجهـة الهيـمنة الغربية.**

● عن أى وعى ذاتى تتحدث ؟ أين ومتى ؟

◆ **أنت تعرف أن أغلب طبقة المثقفين المصـريين والعرب مناهجهم ومواجعهم غربية تماماً ولا يعرفون شيئا عن تراثهم وتاريخهم إلا فيما ندر.**

● لا ينبغى أن تغرق فى عموميات، أنا أتحدث عن أمثلة محددة . . عبد الناصر كان يتحدث عن الاشتراكية ويقول إنها نابعـة من تجاربنا العربية، لكن قل لى منذ متى ونحن لدينا تجارب عربية فى الاشتراكيـة . بعض الناس يذكرون أبا ذر الغفارى ويحاولون قراءة الاشتراكـية بفكر تقليدى . لكن هل الاشـتراكية نوع من الشحـاذة، أو نوع من الإحسان الفردى ؟ وهل يـمكن حل المشاكـل الاجتماعـية عن طريق الإحـسان، المسألـة ليست مرهونة بـنوايا فردية،وإنما بمـؤسسات مثـل التأمينات الاجـتماعيـة، هذا ما تنبه له عـبد الناصر وقـام بنقله فى النظام المصـرى وتحول من فكرة البر بالـفقراء من الناحيـة الفردية التى يقوم عليها المجتمع والقيم التقليدية، إلى فكرة العدالة المتمثلة فى مؤسسات الدولة . وبعد عدة سنوات من الثورة نفذ عبد الناصر مجـانية التعليم، لكن منذ سياسة الانفتاح عبـرنا إلى المـجتمـع الطبقى، وبـدأت الطبقـات الجديدة الـضارية فى عـدائها للعـدالة الاجتماعية تحـاول إلغاء مجانية التعليم، ليس فقط على مستـوى التعليم الجامعى، لكن أيضاً على مستوى التعليم الثانوى والعام .

◆ **هذه الطبقات الجديدة الضارية فى عدائها للعدالة الاجتماعية، أليسوا أقرب إلى الغرب ؟**

● هم عملاء للغرب، وارتباطهم به ليس ارتباطا حضارياً، انظر قصة التلوث الاشعاعى الذى حدث في روسيا، ستجد أن ما كتب عنه فى الصحافة المصرية أكثر مما كتب عنه فى الصحافة الغربية .

◆ **بماذا تخرج من هذه الملاحظة ؟!**

● المسألة ببساطة أنهم يلعبون دورهم فى مقاومة الشيوعية !

◆ **لماذا لا ترى الوجه الآخر للصورة، أى أنهم يفعلون ذلك لأن هويتهم غابت واندثرت ملامحهم الذاتية .**

● ماذا تعنى بذلك ؟

◆ **أعنى أن الحديث عن جنوب وشمال وشرق وغرب، فى هذه الأيام، قد يكون نتيجة طبيعية لوجود هذه الطبقات والفئات المغتربة فى مجتمعها، فحدثت يقظة تفتش عن الملامح الذاتية وعن الهوية الثقافية .**

● هل تدلنى عليها ؟ أين هى هذه الهوية ؟

◆ **هى تلك القواسم المشتركة بين الناس فى أرض معين .**

● أين هى ؟!

◆ **تجدها فى الواقع لأنها محصلة اتفاق الناس فى فترة تاريخية واستنادا إلى اصول ...**

● السائد هو السرقة . . والاستغلال .

◆ **لكن هذه الأمور ليست قواسم مشتركة بين الناس .**

● وأنا أتكلم عن صورة المجتمع المصرى كما تجدها الآن .

◆ **ما هو موجود على السطح ليس بالضرورة هو ما يعبر عن هوية الناس، هناك لحظات عابرة لا تعبر عن شيء .**

● أنت تتحدث أين ؟ وفى أى فترة ؟

◆ **أتحدث عن ما بقى للناس من تاريخ .**

● عن أى تاريخ تتحدث ؟ وفى أى فترة ؟ حدثنى عن التاريخ المصرى متى كان تاريخى؟

◆ **أليس لنا تاريخ فرعونى، قبطى، إسلامى، ترك بصماته على المصريين ؟**

● أخبرنى متى كان حق التعليم بالمجان حقاً لجميع أفراد الشعب ؟

◆ **أنت تأخذ نموذجاً عملياً فى قضية محددة، لكنى أتحدث عن ثوابت تاريخية .**

● لا، أنا أتحدث عن قضية من أخطر القضايا . العالم العربى قبل الحرب العالمية الثانية إلى فكرة التعليم بالمجان، وأعتقد أن ذلك صلب العملية الديمقراطية، بينما الآن نتراجع إلى الوراء . فالمجتمع التقليدى فى مصر لم تدخل فيه فكرة التعليم المجانى كحق للمواطنين إلا حديثا ثم تراجع عن ذلك كما ترى الآن .

◆ **أليست هناك لغة خاصة بهذا المجتمع،**

● أرجوك . لا تتحدث معى بتلك اللغة التى يتحدث بها البعثيون .

◆ **لا، ياسيدى، أنا أتكلم اللغة التى ينطق بها العقل السليم، أو ما أراه كذلك .**

● لا، هذه هى اللغة التى يستخدمها البعثيون .

◆ **فلنترك البعثيين جانبا .. وسأحدثك عن الغرب، ألا تقرأ فى الصحف والمجلات الغربية أنهم دائما يتحدثون عن الرسم الغربى، والنحت الغربى، والقيم الغربية، أى أنهم يحددون دائماً هويتهم بمعزل عن الآخرين أو فى مواجهتهم، تقبل أن يقال، الرسم الغربى والشعر الغربى والموسيقى الغربية ولا . . .**

● نعم . . .

◆ **لماذا لا تقبل الأمر نفسه بالنسبة للثقافة العربية من دون توجيه الاتهامات بأن هذا كلام البعثيين ؟!**

● لأنك لا تملك شيئاً إيجابيا تشير إليه .

◆ **ليست المسألة مسألة ما هو إيجابى وما هو سلبى . إنها مسألة وجود بكل ما يتضمنه . أنت، هكذا، لا تقبل أن يعترفوا بذاتيتهم وهويتهم ولا تقبل لنا بذلك لأن لدينا سلبيات كما تقول، فى حين أن الموقف السليم يفترض أولاً الاعتراف بهذه الذات ومقوماتها الأساسية ثم العمل بعد ذلك على تقويم وإصلاح ما اعوج منها .**

● تفضل، فلتعمل إذا كنت ترى أن المجتمع به قيم إيجابية تصلح كأساس للعمل والبناء .

◆ **هذه القيم، وهذه الأسس، إذا لم تكن ظاهرة وواضحة، علينا أن نكتشفها ونعيد تجديدها، لكن المشكلة أن الوعى الذاتى غير موجود أصلاً حتى نقيم البناء .**

● أنت تذهب بنا إلى أمور ميتافيزيقية، أنا أحدثك فى قضايا محددة وملموسة .أنا أسألك : هل الحوار كوسيلة للتقدم الاجتماعى أفضل من الدكتاتورية أم لا ؟

◆ **نعم .. هذا مؤكد .**

● أين تجد ذلك فى المجتمعات الشرقية ؟

◆ **غير موجود، فى أغلب هذه المجتمعات .**

● أليس من الأصلح لهـذه المجتمعات إذاً أن تـقتبس من الغرب فلسـفة الحوار بدلاً مـن فلسـفة القمع ؟ فإذا سلمت بهذا، فإن الطريق مفتوح أمام الحضارة الغربية .

◆ **نعـم، لكـن ليس من يقول بفلسفة الحوار وحقوق الإنسان هو غربى بالضرورة .**

● لا، حقـوق الإنسان جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية منذ أيام عصر النهضة .

◆ **هذا الكلام يقـوله الغربيون كنوع من الـتمجيـد الذاتى لهم، بينما لو دقـقنا النظر سنجد أن الصورة ليست بهذا الشكل المثالـى، وسنجد أن فلسفة الحوار وحقوق الإنسان على الصعيد العملى مليئة بالثغرات . ومن جهة أخرى لدينا تراث هام فى هذا الشأن .**

● لماذا تريد أن ننقل هذه الثغرات لدينا ؟

◆ **لم أقل بذلك . وإنما أشرت إلى أن فلسفة الحـوار الغربية وحقوق الإنسان ليست بريئة وأن تقنياتها قد لا تتوام مع واقعى ومجتمعى، وربما يكون لدىّ تقنيات أخرى أكثر تجـاوبا مع ثقافـة هذا المجـتمع . سـأضرب لك مـثلا باسـتطلاعات الـرأى أو مناهج الاحصاء، هل تعتقد أن المواطن المصرى والعربى يكشف عما لديه من آراء وأرقام ؟!**

● بسبب الإرهاب .

◆ **لا، هناك أكثر من سبب . . لكنى أريد من خلال هذا المثل الإشارة إلى أن ما قد يكون صالح هنا قد لا يكون صالحاً هناك .**

● فى كل قضية أعرضها، تذهب لتنفيدها من وجهة نظرك، تقول استطلاع الرأى غير ممـكن وتنسى الأسـباب التى تجـعل ذلك غيـر ممكـن . أنا أسألك سـؤلاً محـدداً، ما الأسباب التى تجعل الناس يخفون آراءهم، أو يقولون الشىء الذى يريده السائل وليس ما يريدون قوله حقاً .

◆ **الأسباب كثيرة ولا يمكن حصرها فى سبب واحد، منها النفسى، ومنها الثقافى، ومنها التشكك فى قيمة وجدوى مثل هذه الاستطلاعات، والتشكك بها .**

● لماذا ؟ لأن كل مرة يستدرج فيها المواطن للحوار يكون ذلك وسيلة إلى القبض عليه . .

◆ **إذا كان هذا هو واقعى، وأنا أعمل على تغييره، فإنه من الضرورى أن أعتمد على تقنيات من هذا الواقع .**

● ليس بالضرورة، أنا أتكلم عن مبادئ هامة . أتكلم عن الحوار، هل هو الوسيلة الأسلم لضمان صيانة المجتمع ؟ هل تأخذ بمبدأ الحوار، أم الصوت المنفرد؟

◆ **نعم، لكن كيف نؤسس هذا الحوار فى ظل شروط المجتمع القائمة وتاريخه ومقوماته الرئيسية، هذا هو السؤال الصعب ؟!**

● هم قاموا، فى الغرب، بثورات وحروب أهلية إلى ان انتصروا، وكانت لديهم ديكتاتوريات فظيعة إلى أن انتصرت فكرة الحوار على أنقاض الأنظمة الإقطاعية والأرستقراطية والإرهاب والظلم والحكم المطلق .

◆ **وفقا لمنطق كلامك، الآن، فإن هناك غربا له سماته وتاريخه، وهناك ثقافات أخرى غير ذلك .**

● ثقافات أخرى ! أين هى ؟ وماذا يمكن أن تأخذ منها اليوم إذا كنت تتحدث عن الحصيلة المتبقية من هذه الحضارات والثقافات .

◆ **أريد التأكد أولاً إذا كنت تتفق بشأن وجود ثقافات مختلفة وحضارات مختلفة .**

● هناك مستويات مختلفة للحضارة . فأرقى مراحل فى الحضارة الإنسانية ينتقل إلى الحضارة التالية لها، ويستوعب كل هذه الطبقات من الحضارات السابقة، فالحضارة

الغربية الآن ليست إلا الحصيلة النابعة من التجربة الإنسانية منذ أيام الفراعنة وما قبلها . وكل ما هو إيجابى فى الفنون والعلوم هو عبارة عن تركيب من كل ما هو إيجابى فى الحضارات السابقة . هذا هو رأيى، لذلك ليست لدى عقدة بالنسبة للموسيقى الغربية، التى هى ملك الغرب كما هى ملك لى، كذلك الفتوحات العلمية . فأنا لفترة طويلة، نظراً لظروف التخلف وأسبابها، ليس لى نصيب فى الحضارة الحالية . هذه هى المشكلة

◆ **أنت تصف غربا متقدما ماديا وفكريا، وفى الجهة الأخرى يقبع الشرق فى تخلفه، ما هى حدود التعايش والاختلاف، فى هذه الحالة، بين الثقافة الغربية والثقافة العربية ؟**

● عندى ليس هناك فرق بين المدنية المادية (الآلية) وبين المدنية الفكرية لأنهما جناحان لنفس الشئ، لأنه من العبث أن تقول لى إن من يتعاطى الحشيش يمكن أن يقود طائرة، لأن الإحساس بالزمن مختلف . ولك أن تتخيل من خلال هذا المثال حدود وإمكانات التعايش والاختلاف .

◆ **إذا كنت ترى أن مجتمعات الشرق متخلفة، وليست لديها الإمكانات لصنع المدنية المادية كما ذكرت، وأنها لا مفر أمامها من التعامل مع هذه المدنية، لكن لماذا تريد سحب هذا الموقف على الجزء المتبقى لنا من التاريخ، ومن قيمنا وأخلاقنا ؟**

● أنت تتحدث عن أى قيم ؟! الآلة نفسها لها روح، ولا يمكن أن تفهم معنى السيارة أو الطائرة إلا إذا كانت عقليتك ونفسيتك يتوفر بهما إحساس بالزمن مغاير للإحساس التقليدى الموجود عندنا، عندما يتفق شخص مع آخر، فى بلادنا، على تحديد ميعاد يقترح عليه الالتقاء «بعد الظهر» فى مقهى كذا، وبعد الظهر يتضمن مساحة كبيرة من الزمن . انعدام الإحساس بالزمن هذا هو من العلامات التى تربطنا بالقرون الوسطى، وتمنع عبورنا إلى المجتمع الحديث .

◆ **كيف تنظر إلى مسألة البحث عن الهوية، الذائعة الانتشار فى الفترات الأخيرة .**

● هذا البحث قائم على حالة من الضياع . نحن نتكلم عن الهوية كأننا أولاد سفاح، هذه حالة من يبحث له عن أصل . هذا الموضوع لا يؤرقنى لأننى أعرف من أنا .

◆ **أنت تعلم أن الناس تبحث الآن، فى أماكن كثيرة، عن الهوية والذاتية.**

● هذا هو الاستعمار، وهذا هو عصر الانتكاس .

◆ **ولماذا لا تقول إنهـا حالة من اليقظة، ومحـاولة لترشيد تعاملنـا مع هذه الحضارة وحدود ما يبقى لنا أثناء وبعد طرق التعامل مع هذه الحضارة ؟**

● مـاذا يبقى لنا ؟ ماذا تريد ؟ عـن ماذا تبحث ؟ أنت لا تعرف عن ماذا تبحث ؟!

◆ **أنا أبحث عن المـلامح الوطنية والذاتية التى غـابت من مجتمعـاتنا ؟ وأبحث عن أسباب ومبررات هذا التغيب .**

● من الذى يقول هذا الكلام ؟

◆ **أنا الذى أتحدث معك .**

● لا، هذا كلام جاك بيرك وبقية المستشرقين .

◆ **أنت تعلم جيداً أن جاك بيرك لا يقول هذا الكلام .**

● لا، بيرك هو الذى ابتدع الحديث، فى مصر، عن الأصالة والمعاصرة، أبحث لى عن الأصالة اليوم أين تجدها فى مجتمعاتنا ؟

◆ **أنت نفسك جزء من هذه الأصالة . ألست قبطيا وتحمل فى داخلك تراثاً ما؟**

● لمـاذا تقـول قـبطى ؟ هـل لم تر فىّ غـيـر ذلك ؟ أنت تـكرر كـلام اليـمـيـنـيـين والمحافظين فى مصر الذين كلما تكلمت عن الحضارة الغربية، قالوا إنه مسيحى .

◆ **عندما وصفتك بأنك قبطى، كـان ذلك رداً على سؤالك، ولم يكن وضعى يحمل صفة سلبية، وإلا لما كان هناك مصداقـية لهذا الحوار منذ بدايته . عندما قلت ذلك فأنا أعنى خصائص ومقومات معينة للأقباط، أليس هناك مرحلة قبطية فى تاريخ مصر قبل أن تعقبها مرحلة إسلامية لها خصائصها ومقوماتها، وليس هذا القول من قبيل الذم وإنما من قبيل وصف ما هو موجود . ألا توجد كنيسة شرقية مختلفة عن الكنيسة الغربية ؟**

● ماذا تعنى الكنيسة الشرقية ؟!

◆ **يبدو لى، من خلال مـعلوماتى المتواضعـة، أن هناك ما يسمى بالكنيسـة الشرقية الأرثوذكسية وهى مختلفة إلى حد ما عن الكنـيسة الغربية الكاثوليكية، وهناك تاريخ قديم لهذا الانقسام .**

● اسأل أى قبطى ماذا تعرف عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ؟ ماذا يعنى هذا الكلام . . . فكرة الأرثوذكسية القـبطية هى مفهوم لاهوتى نشأ فى القرن الثـالث الميلادى عندما حصلت المجامع الدينية وحصل خـلاف حول علاقة الآب بالابن بالروح القدس، وكانت هذه هى الفتنة الكبرى فى العالم المسيحى، ومن هنـا نشأت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التى تقول بالطبـيعة الواحدة للمسيح، فـالغرب يعتبر أننا كفـار لأننا نقول لا يوجد شىء اسمه لاهوت وشىء اسمه ناسون وإنما طبيعة واحدة للمسيح .

◆ **حسنا أليست هذه ملامح ذاتية وملامح اختلاف مع الغرب .**

● ليست ملامح ذاتيـة وإنما فكر فلسفى . . . أنا لم أكتـشف هذا إلا وأنا عمرى ٣٥ سنة، فهذا التراث الذى تتحدث عنه ليس تراثى، بـل طقوس شبيه بطقوس السحرة . . . عندما تقابل بروتستـانتى وتسأله ماذا يعنى لك كالفن ولوثر أو كنيسة إنجلتـرا يجيبك كذا وكذا، وعندما تسأل قبطياً ماذا تعنى لك كلمة الأرثوذكسى والأرثوذكسية لا يعرف. . إنها مسألة طقوس . . .

◆ **كأنك تصر على رفض الاختلاف والتمايز عن الثقافة الغربية على كل الأصعدة بما فيها الصعيد الدينى، وكأنك غير مقتنع بانقسام العالم إلى حضارات وثقافات مختلفة ؟**

● أنا لا أشعر أننى " خواجة "، وإذا كان هناك أى إنسان يستطيع أن يقول أنا مصرى فهو أنا، ولا أشعر بهذه "العقدة" التى تعمل منها قضية البحث عن الذات. تريد أن تبحث عن الذات . . . ابحث عنها وسنرى .

◆ **كيف تنظر إلى المجتمعات والثقافات الغربية باتجاهاتها المتقدمة والحديثة والعلمانية والتى تبحث بدورها عن ذواتها، وتحاول حماية ثقافاتها من الغزو الخارجى، وليس فقط من تصفهم بالتيار المحافظ لدينا والذى يقيم الحواجز ويغلق الحدود .**

● هم يقومون بذلك عن طريق الحوار . هل تفعل ذلك أنت ؟! فى هذه البلاد الأوروبية التى تتحدث عنها، يحدث دائما فى كل فترة تاريخية حوار بين أنصار القديم والحديث، وينتصر أنصار الحديث أو يحدث تأليف بين الاثنين بينما فى بلادك لا يحدث ذلك

◆ **تعرف لماذا ؟ لأن فكرة التأليف غير واردة، ولأن النخب المتأثرة بالثقافة الغربية لا تريد ذلك وتريد طمس كل ما يتعلق بتراث هذه الأمة وتاريخها .**

● هذا غير صحيح، الاتجاهات الرجعية الضارية هى التى تجهض كل محاولات الانتقال إلى الحديث والتقدم، ما تقوله محض اتهام من جانبك ؟

◆ **سيدى أنت تذهب بعيداً فى تحميل التيار المحافظ المسؤولية كلها وتبرئ التيار المتغرب إلى درجة غير مسبوقة فى أى ثقافة أخرى .**

● أنت سعيد بالقديم، فلتبق معه .

◆ **ليس هذا ما أردت قوله، أنا غير سعيد بالقديم البالى والمتزمت، وأبحث عن التغيير للأفضل، لكن عندما يأتى فريق ويتغافل عن خصائص ومقومات المجتمع الذى يعيش فيه فإننى أشعر بأنه مسؤول إلى حد كبير عن الحالة الراهنة .**

● أنا لا أرى ذلك، أنا أرى الغلبة للفكر اليمينى المحافظ، وأحمله المسؤولية كاملة .

◆ **أنت لا تغضب بنفس القدر من النخب المتغربة فى بلادنا رغم أنها تتحمل مسؤولية أكبر فيما وصلنا إليه من أحوال بسبب ابتعادها عن التأليف الوطنى الحقيقى . . .**

● خلاصة الأمر . انك فى مجتمع فرنسى لن يعترف بأنك جزء منه . وهذه عقدة جميع المثقفين المصريين فى الخارج، أنور عبد الملك لم يقبل تماما رغم إقامته المديدة، وأنت تستفيد من انجازات الحضارة الغربية ولا تريد العودة إلى البلاد بينما الرجل الذى يكلمك الآن عن ظروف التحديث مقيم هناك فى أسوأ الظروف وليست لدية النية فى مغادرة بلدة إلى أوروبا أو أمريكا رغم أنه تأتينى عروض للبقاء هناك . وأنت من المستفيدين هنا ولديكم نوع من الحنين إلى مجتمع وهمى وأنتم سعداء بذلك ! ماذا أقول لكم . . .

◆ **قمت بإجراء حوار مع المستشرقين الفرنسيين استمر عامين، وكان من بين القضايا الجوهرية للحوار أنهم يبحثون عن الدراسات والمعلومات المتعلقة بمجتمعاتنا لكنهم لا يسمحون لنا بدراسة موضوعات غربية . بعضهم اعترف بذلك وبأن هذا جزء من سياسة تعليم غربية، البعض الآخر قال هذه مشكلتكم ؟ بعضهم قال لماذا لا توجد دراسات شرقية عن الغرب . هل نحن مسؤولون عن غياب هذه الدراسات ؟**

● المسؤولية تقع عليهم هم . هل اهتم غربى بأعمالى عن الغرب ؟ هل حاول أن يدرس رؤية حسين فوزى للغرب ؟ كتابى "مقدمة فى فقة اللغة العربية" لم يتناوله مستشرق واحد بالتعليق قبل أن يصادر، لم يعلق واحد منهم على الكتاب بكلمة واحدة، لأنه يحتوى على نظرية من أخطر النظريات . هل هناك شىء أهم من أنك تقول له أن اللغة العربية تنتمى إلى نفس المجموعة الهندوأوربية التى ينتمون إليها، هذا اكتشاف قارة

باكمـلها ولم يحظ باهـتمام أحد مـنهم . وفى كتـبى الأخرى عندمـا درست ابن خلدون وحاولت الربط بينه وبين دانتى وغيره من المـفكرين الغربيين هل اهتم أحد منهم بذلك، كتبت عن المعرى وفكرة العالم الآخر، وحاولت أن أربط بينها وبين بعض مفكرى أوروبا هل اهتم أحد منهم بما فعلت ؟!

◆ **إذا تجاوزنا الإهمال الذى تتعرض له كتاباتك وكتابات حسين فوزى عن الغرب هل تعتقد أن لدينا تـراثا بحثيا عن الغرب ؟ هل هذا قصور من جـانبنا أم أن ميزان القوى لا يسمح بإنجاز مثل هذه الدراسات.**

● هو من البدايـة يريد أن تظل فى عالمك، وتتـقوقع داخله ولا تخـرج منه، ويقول لك فلتبتعـد عنى ولتظل فى عالمك، وفى كل مرة تحدث شرارة الاتصال بيـن مجموعتنا البشـرية ومجموعـته يقضى عليـها بالفشل . هو يريـد أن أبقى خادماً له، كى أعطـيه ما يريد، هو يريد إقـامة حائط أو عازل لا يـمكن عبوره بينك وبـينه . فى أمريكا يقـسمون الناس إلى مجموعات إنتبـه، يطلبون من الجاليات الموجودة التمسك بثقـافاتها القومية : عرب أمـريكا، أرمن أمريكـا، زنوج أمريكا، والغـرض من ذلك فى النهـاية هو أن تظل أمريكا للأوروبـيين الأنجلو ساكـسون . . . فعندمـا يشجعون كل جـماعة على التـمسك بثقافاتهـا القومية الموجودة ينتـهى ذلك فى نهاية الأمر إلى الابتعاد عن مجـال التأثير فى الثقـافة الامريكية، لأن هذا الأمـر هو من اختصاص الأصـلاء ! وفى فرنسا يقيـمون من وقت لآخر مـؤتمرات للمسـلمين الفرنسـيين . ما مـعنى هذا ؟ هل أنت فرنسى أم غـير فرنسى، لماذا يصرون على التمييز بين المسلم الفرنسى والمسيحى الفرنسى، هل يريدون أن تستمـر فى اطار الحديث فى افق معين وتصـبح مواطناً من الدرجة الثانـية . . حتى لو منحك الجنسية وحقوق المدنية العادية، لكنه يشعر دائما أنك غير فرنسى، وفكرة الشرق شرق والغرب غرب، جـزء لا يتجزأ من تفكيرهم . أنا أعرف جيـداً الغرب وليست لدىّ أوهام عن المجتمعات الأوروبية .

محمد عزيز الحبابي

لدينا الاستغراب الملائم لنا

من الشخصانية الواقعية إلى الشخصـانية الإسلامية إلى "الغدية" (علم المستقبل)

قطع محمد عزيز الحبابى مسيرة من التـأمل الفلسفى تعتبر من العلامات البارزة فى الفكر العربى المـعاصر . ومحـمد عزيز لحـبابى معروف أيضـا بكتاباته الأدبيـة التى صدرت باللغتين الفرنسية والعربية .

ومحمد عزيز الحبابى مفكر جسور ، لا ينسـاق بسهولة وراء الموضوعات الثقافية والفكرية التى تشـيع فى فترة ما تم سرعان مـا تخبو ، فهو فى كتـابه الرائد و «حرية أم تحرر» - الصادر بـالفرنسية عام ١٩٥٦ - يتـجاوز النظرية التى تجعل من الحـرية مجرد حرية ذاتية محضة خالية من أى محتوى مجتمعى وتاريخى ، ويدعو عوضا عن ذلك إلى فكرة التحرر التى تحتوى على كل الحريات وتـتجاوزها وتغيرها من حيث الكم والكيف فى وقت واحد .

وعندما صارت الشخـصانية - كمذهب فلسفى - حديـث الدنيا ، وبدأ المفكرون يتبنونها من هنا وهناك ، كان لمحمد عزيز لحبابى موقف متميز فى كتابه «من الكائن إلى الشخص - دراسة فى الشـخصانية الواقعية »، وكـتابه الشخصانية الإسـلامية» لم يكن مقلداً كغيره لآراء بعض المفكرين الفرنسيين وإنما صاحب وجهة نظر مبدعة وأصيلة .

ومحـمد عزيز الحـبابى من المـفكرين العرب الذين شـنوا حملات شـعواء على الأفكار المسـبقة بوصفها عـدوة الشعوب والثقافـات الوطنية وعدوة الحضـارة الإنسانية وحاربها فى الـشرق كما فى الغرب . وكان كـتابه «من المنغلق إلى المنفـتح - عشرون حديثا عن الثقافـات القومية والحضارة الإنسانية» - الصادر بـالفرنسـية عام ١٩٦١- هو أقرب كتبه لموضـوع كتابنا «من نقد الاستشراق إلى نقد الإستـغراب» حيث يرى الحبابى أننا نتكلم عن الثقافات القديمـة والثقافات الشرقية أو الغربية استجابة لمقـتضيات تعبيرية بينما الواقع الذى نـحياه هو أن الاختراعات والاكـتشافات، مهمـا اختلفت، والأبحـاث والتجـارب بكل أنواعها ، لم تـعد تحمل الطابـع الإقليمى ، بل ترمى كلهـا إلى إغناء الذخيرة العالميـة ، عن طريق إثمار الحصيلة الثقافية الوطنـية، وكل قارة تسهم بقليل أو

بكثير فى هذا التيار المولد لحضارة القرن العشرين .

وكنا نود أن نبدأ حديثنا مع الحبابى من هـذه النقطة لولا أنه من المرشحين العرب لجائـزة نوبل - مع أديبنا نجيب محفوظ - لذلك بدأنا الحديث المسـجل معه بداية تتعلق بهذه المناسبة وإن لم تبتعد كثيراً عن قضيتنا الرئيسية .

◆ لماذا لم يحصل أديب عربى على جائزة نوبل حتى الآن ؟ هذا السؤال طرح مرارا، وهناك قناعات لدى الكثيرين بأن منح هذه الجائزة يخضع لضغوطات واعتبارات سياسية، لكن مع الإقرار بذلك مسبقاً هل تعتقد أننا أضـفنا شيئا نستحق به الجائزة ؟! وهل أعطينا اليوم إلى ثقافات العالم وآدابه ما نستحق به هذا التقدير العالمى ؟

● أنا لا أعـرف كل الذين ينتـجون فـى العالم الـعربى فى مـجالات الـفكر والأدب والفلسفة ، لكنى أتذكر أن اسم طه حسين قد رشح فى الماضى لنيل هذه الجائزة، لكنه على ما يظـهر إن «عميـد الأدب العربى» ، وما أتى به قـد أسهم فى تطور النقـد العربى ،لكن بالنسـبة للفكر الإنسـانى فى شموليـته ، فإن طه حـسين فى نظر البعـض لم يقدم الكثير ، وأنا إذا سألت نفسى من يستحق هذه الجائزة لقلت كامل حسين فى روايته «قرية ظالمة» . فى الحقـيقة أعطى كامل حسين بعداً إنسـانياً حقيقياً كان يسـتحق أن يحصل به على هذه الجائزة لأن روايتـه كانت تلائم الاتجاه العام الذى من أجلـه أسست الجائزة ، إنها رواية جيدة تـمتلىء بمضامين عالمـية شاملة عن العدل والمحبـة . . . وفى اعتقادى أنها أحسن ما كتب باللغة العربية فى هذا القرن .

◆ ماذا عن ترشيحك أنت إلى هذه الجائزة ؟

● فى الواقع تقدم بترشيحى إلى الجائـزة أجانب . وقد تم قبول هذا الترشيح، وهذه هى المرة الأولى باستثناء السادات التى يفتح فـيها الباب امام العربى ، وهذا هو المهم ، ليس المهم من سيـأخذ هذه الجائزة مغربى أو جزائـرى أم تونسى أم مصرى . . . هذا لا يهم . . . المهم أنها خطوة أولى ينبغى أن تتبعها خطوات أخرى .

◆ **عندما تـمنح هذه الجائزة إلى أديب فى الـشرق أو الغرب فإن أول تسـاؤل يخطر بالبال هو تساؤل عن الأسباب أو المبررات التى بمقتضاها حصل هذا الأديب على الجائزة . فما هى الإضافة التى قـدمها المرشح العربى لنيل هذا التقديـر خاصة أنك مرشح لها !؟**

● إذا تحدثت عن نـفسى فأنا أشيـر فقط إلى أن : الشخصـانية الواقعيـة التى دعوت إليها يـوماً قد كتبت عنهـا اطروحات كثيـرة وحدثت حولها ضجـات فكرية والآن تشكل دعوتى إلى «الغـدية» - من الغد - تيارا جديدا عـلى المستوى الإنسـانى أيضا ، هذا من الناحية الفكرية أما من الناحية الأدبية ، وبصفة خـاصة أشعارى التى نشرتها بالفرنسية كان لها صدىً كبير ، ولا أدرى امن أجل الشعر الذى كـتبته أم القصة أم الرواية أم الفلسفة تم ترشيحى . المهم أن مجموع هذه الأعـمال نال إعجاب بعض الناس هنا أو هناك . لكن ما هى الإضافة التى قدمتها أعمالى ، وما هى قيمتها ومستواها الإبداعى ، أنا لا أستطيع أن احكم على ذلك ، إنه خـارج نطاقى فأنا لا يمكـن أن أكون حكما ولاعبـا فى الوقت نفسه ، فعندما تبدأ المباراة فإن الحكم حكم واللاعب لاعب . . . أليس كذلك ؟!

◆ **بما أنك ضـربت مثالا من عـالم «الكرة» فأنا أريد أن أسألـك سؤالاً بدورى لكن بمصطلـحات هذا العالم «الرياضى» أيضـاً : أى زى ترتدى ؟ وهل ستمنـح لك الجائزة بوصفك مفكراً عربيـا ، إسلامياً ، عالمياً أم كل ذلك معا وبنفـس القدر؟! باختصار أين تضع نفسك فى الساحة الثقافية الموجودة فى العالم اليوم؟!**

● هذا سـؤال لا أطرحه علـى نفسى ولم أفـكر فيـه يوما أنا أنـفعل بأوضـاع معـينه وأتفاعل معها وأفكر فيها . أحيانا تكون على مـستوى المغرب وأحيانا تكون على مستوى العالم العربى وأحيانا تكون على مستوى العالم . . وأينما تريد أن تضعنى ستجدنى .

◆ **أنت إذاً موجود فى كل مكان ؟!**

● لم أقصد هذا . ما اعنيـه هو : إذا كان المعيار هو الواقع المغربى فـستجد عندى

جوانب تؤكد أننى مغربى صميم .

◆ **لكن فى مجال الثقافة يمكن الحديث عن شخصية غالبة وليس جوانب متباعدة فى ما بينها ؟ أليس هناك من هو فرنسى الثقافة والجنسية ؟!**

● أنا مزدوج اللغـة والثقافـة فأنا أكتب بالفـرنسية كمـا أكتب بالعربيـة وكل ما كتبته بالفرنسية انتقل إلى اللغة العربية وهكذا . . .

◆ **فى أية لغة تجد نفسك أكثر ، العربية أم الفرنسية ؟!**

● هذا يعود إلـى الإنطلاقة الأولى . فعنـدما اسمع لفظة عـربية فقـد توحى إلى بأن أكتب باللغـة العربية وأحيانا اسـمع كلمة فرنسية فـتوحى لى بأن أكتب باللغة الفـرنسية . ليست لدى قواعد ثابتة مسبقة فى الكتابة بهذه اللغة أو تلك . فالإبداع يكون وليد ظروف خاصة .

◆ **بوصفك مـرشحا لجائـزة نوبل ، وبوصفك مزدوج اللغـة والثقافـة أيضا ، هناك تساؤل يتردد كـثيرا فى الغرب عن الإسهامـات والإضافات التى قدمناها إلى ثقـافة العالم اليـوم ، ومفاد هـذا التسـاؤل هو أن الشرقـيين والعـرب ينتـقدون رؤية الغـرب لهم - الاستشـراق - ومن دون أن يكون لديهم دراسات شـرقية عن هذا الغرب . كـيف تعلق على هذا التساؤل ؟!**

● أنا أتفق مع هذا التساؤل فى جانب واختلف معه فى جانب آخر وأقول : إذا كانت دراسات المستـشرقين لا ترضيكم أيها العـرب والمسلمون فلماذا لا تقومـون أنتم بتحليل أوضاعكم ودراسـة آثاركم وتراثكم ؟ وإذا كانت تلك الدراسـات الغربية لا تتـضمن رؤية موضوعية فلماذا لـم تبدعوا أنتم الموسوعة الإسلامية والعربيـة لبلادكم . نعم نحن ننتقد الآخرين وننسى أن نقوم بالنقد الذاتى لنرى عيـوبنا ونعمل على إصلاحها ، ولكى نسجل مـا يستـحق أن يسـجل ونعارض مـا يسـتحق أن يـعارض من تاريـخنا ، فمـن لا يكون موضوعـيا عندما يحلل أوضـاعه لا يمكن أن يكون محل مـصداقية عند الآخـرين عندما

يتكلم عن الأشياء الإيجابية لديه ، ومن جهة أخرى فإن المستشرقين ليسوا مدرسة واحدة ، هناك مدرسة أسست لتهيىء طرقاً للاستعمار وهناك مدارس أسست من أجل البحث عن المعرفة والحقيقة ، لذلك حينما نحاكم الاستشراق علينا أن نفرق بين مستشرق ومستشرق ، أما أن نطلق أحكاماً عامة على الاستشراق فهذا ليس إنصافا وليس وسيلة إلى بلوغ الحقيقة . أما ما أختلف فيه مع هذا التساؤل هو أننا لدينا استغراب ، وهناك محاولات لدراسة الغرب ، لكننا لا ندرسه برمته بل نختار منه ما يلائمنا وما لا يمكن أن يكون استلاباً لنا ، بالطبع ليس كل الذين درسوا فى الغرب واطلعوا على مجريات علوم الغرب يقومون بهذا الاستغراب لكن اعتقد أننى شخصياً أصدرت كتاباً بالفرنسية بعنوان : "عالم الغد " . . . العالم الثالث يتهم . فى هذا الكتاب أظهرت الجوانب السلبية التى وجدناها فى الغرب والتى عرقلت مسيرتنا التاريخية ، كذلك أصدرت فى كانون الأول (ديسمبر) الماضى بالفرنسية كتاباً بعنوان : «أزمة القيم » ، وكان ينبغى أن يصدر هذا الكتاب باللغة العربية عن دار «المعارف» منذ سنوات ، لكن النص الفرنسى صدر ، ولا أعلم متى سيصدر النص العربى . وفى هذا الكتاب دراسة ونقد للأسس التى قامت عليها حضارة التصنيع المعاصرة والتى باسمها جاء الاستعمار إلى بلادنا ليحدثنا ويدفع بنا إلى طريق المدنية !! ولكن القيم التى بنى عليها الغرب حضارته أصبح هذا الغرب يتنكر لها اليوم ، وبالتالى فقد الحق فى دعواه بأنه يحضر الإنسانية وأنه يقدم الحضارة مملوءه بالخير والسعادة . كيف يحق للغرب اليوم أن يقول ذلك وهو ليس سعيدا ولا متمتعاً بخيرات حضارته . إنه يتخبط فى السلبيات ، فى الأزمات ، وكل أزمة تجر أخرى ، وهكذا لم يعد الغرب يثق بحضارته . إنه الآن فى مفترق طرق ويبحث عن البديل ، هل سيجده ؟ لا أدرى ، وهو نفسه لا يدرى هو يتساءل الآن : كيف الخروج من المأزق ؟ . . . عندى كتاب آخر سيصدر قريبا بعنوان : «أزمة النماذج» وهو أيضاً دراسة للنموذج الغربى وأطرح سؤالاً : هل ما زال الغرب صالحاً لأن يقتدى به كنموذج أم لا ؟! فالغرب يعيش فى أزمة أخلاقية ونفسية واقتصادية ولا يجد حلاً لمشكلاته . إذاً كيف يكون الغرب ؟ ما هى القيم التى ينبغى أن نبنى عليها حضارة ما بعد التصنيع أما كتابى

الذى سيلى ذلك فأعطيته عنوان : «من أجل مقولية جديدة» والمقولية كلمة مصطنعه . . لا توجد فى القاموس الفرنسى .

◆ **ولا العربى أيضاً !!**

● وأريد فى هذا الكتاب أن يعاد النظر فى مقولات العقل البشرى . وفى هذا الكتاب تناولت أكبر المفكرين الغربيين أمثال ديكارت ، كانت ، لاينتيز . اسبنوزا. وأظهرت أن مقولات هؤلاء الفلاسفة مليئة بالتناقضات والعيوب التى يتهمون بها عقلية العالم الثالث . فالغرب يتهم عقلية العالم الثالث بأنها تفكر تفكيراً ناقصاً لاعتمادها على معتقدات لا عقلانية ، وأن الغرب هو صاحب العقل والعقلانية ، فأظهرت أن اللاعقلانية عنصر يستلزمه وجود العقلانية وأعطيت أمثلة عديدة على ذلك من قلب الفكر الغربى وأبديت بطريقة أخرى كيف نتصور نحن العقل ، وأننا لا يمكن أن نعتقده كمطلق لأنه لا يوجد عقل مطلق ، فالعقل محدود ويجب أن نعترف بمحدوديته . وكتبى الأخرى هى بصورة أو بأخرى دراسات حول هذا الغرب . . .

◆ **ألا تعتقد أن هناك عودة إلى الحديث عن الغرب والثقافة الغربية فى مقابل الشرق وثقافة الشرق أو الثقافة العربية . . .**

● أنا لا أظن أن هناك عودة إلى هذه القضية ، بل أقول أنه لا وجود لها أصلاً. هناك غرب غير متحالف مع نفسه ويتناقض مع نفسه وكل بلد من بلدانه يتجسس ضد الآخر . وهناك مزاحمة على الأسواق الاقتصادية ، وهناك حروب اقتصادية ، وهناك حروب اقتصادية صامته بين بلدانه ، والمثال الدولار الذى يصعد ويهبط أبلغ دليل على ذلك . أضف إلى ذلك أن اليابان بلد متقدم صناعياً ، ومع ذلك ليس غرباً ،كذلك كوريا الجنوبية وتايوان . إذاً القضية لا يمكن حصرها بشرق فى مواجهة غرب ، لكنها قضية صراع بين أمم على السيطرة واستغلال مناطق جديدة .

◆ **إذا كان هذا هو الأمر بين الدول الغربية ذاتها فما الذى يمنع فى هذه الأجواء أن**

يتمد الصراع إلى بلدان الشرق الضعيفة ، ولماذا تفضل كلمة العالم الثالث على الشرق أو العالم العربى ؟

● أنا أفضل كلمة العالم الثالث لأنها تتضمن أبعاداً أكثر اتساعاً وتشمل دولاً مختلفة تجمع بينها اشياء كثيرة ، من بينها أنها كانت أرضاً مستعمرة فيما مضى .

◆ **ألا تعتقد أن استخدام كلمة الشرق قد يتضمن الأبعاد الثقافية لهذا الصراع والتى قد لا تبدو واضحة عندما نستخدم تعبير العالم الثالث ؟**

● لا أفضل كلمة الشرق لأنها كلمة غامضة ولأن اليابان شرق كما قلت وكوريا الجنوبية شرق لكن ، العالم الثالث ينطوى على آمال وآلام مشتركة ، فالتناقض هو بيننا كعالم ثالث وبين الغرب المهيمن والذى يريد موادنا الأولية وخيراتنا ليأخذها ثم يبيعها لنا بثمن أعلى لا نقدر عليه فى ما بعد .

◆ **ما زلت ألح فى السؤال على موقع الثقافة فى هذه العملية ، إذ لم يعد يفيد كثيراً أن يقاوم المثقفون مشروعات الاستغلال والهيمنة طالما أن أبعاد هذه الثقافة التى تقاوم غير محددة المعالم . فأية ثقافة عربية تقصد ؟ وما هى حدود افتراقها أو تعايشها مع الثقافة الغربية ؟**

● فى هذا الشأن أصدرت كتابا بالفرنسية بعنوان : «من المنغلق إلى المنفتح أحاديث عن الثقافات الوطنية والحضارة الإنسانية» . وقد استخدمت ثقافات بالجمع والحضارة بالمفرد . . . فكل شعب له ثقافاته ، وهناك ثقافات وطنية عديدة ، لكن هناك حضارة واحدة هى التى تصب فيها كل الثقافات الوطنية ، وأنا أقول ليس من حق الغرب أن يدعى أنه الحضارة . فالشعوب التى تعطى اليوم بكثرة لهذه الحضارة، لم تكن فى ما مضى هى التى كانت فى مقدمة العطاءات الإنسانية وقت أن كان هناك السومريون والفراعنة والفرس . أمريكا لم تكن موجودة فى العالم عندما كان العرب يعطون الحضارة إلى العالم . . . فالشعوب التى تعطى اليوم أكثر، إنما تعطى فى نطاق تراكم من

العطاءات السابقة عليها ، وبالتالى الحضارة هى مجموع هذه العطاءات وليست ملكاً للغرب وحده .

◆ **الطريقة التى أدركت بها ثقافتنا الغرب منذ عصر النهضة حتى اليوم ، هل كانت صائبة ودقيقة دائماً أم آن الأوان كى نبدأ مرحلة جديدة فى إدراك الغرب وثقافته المتنوعة ؟**

● قبل أن أجيب عن هذا التساؤل أريد أن أعرف عن أى نهضة تتحدث ؟ ومتى نهضنا نحن ؟ وما هى مظاهر هذه النهضة ؟ كنا متخلفين ومازلنا ، وما زالت الأمية هى السائدة بيننا ، كانت لدينا صحافة منذ فترة طويلة لكن هل هذا الحديث عن وجود صحافة كاف للحديث عن النهضة . فإذا لم تشمل النهضة كل الشعوب فإنها ليست نهضة . فمن نهض فى هذه الحالة ؟ حفنة من البشر يقضون يومهم فى الكلامولوجيا -أى الحديث الرائع المنغم - ثم ماذا بعد ذلك ؟ ماذا بيننا؟ متى سددنا ديوننا ؟! الأمية كيف حاربناها ؟ بعض دولنا قطعت بعض الخطوات لكنها لم تتغلب على كل العقبات ولم تدخل عتبة التصنيع . شيدنا بعض المصانع لكننا لا نزال نستعين بالخبرة وبرؤوس أموال أجنبية . . النهضة تبدأ حينما نقضى على مدن الصفيح ، وحين نمحو الأمية ، وعندما يكون كل أطفالنا فى المدارس . وعندما تكون هناك مستشفيات فى القرى كما فى المدن وحينما نتمكن من توظيف ثرواتنا لصالحنا . . . هذه هى النهضة أما أن نقول جاء إلينا نابليون حاملا معه المطبعة والعلماء فبدأت فى أعقاب ذلك النهضة ، فأنا لست متأكدا من ذلك .

◆ **أنت ترى أن النهضة لم تتحقق بعد وتدعو إلى تحقيقها وأنا أسألك فى هذا النطاق أيضا عن الكيفية التى أدركنا بها الغرب منذ قرنين من الزمان . اليوم ماذا تقول عن هذه المسيرة من إدراك الغرب ؟**

● البعض منا - وهم الأقلية - أدرك الغرب أحسن إدراك لكن الجماهير لا تعرف عن

الغرب إلا المظهر الذى يجعلها منبهرة به .

◆ **وكثير من المثقفين أيضا ؟!**

● نعم هناك الكثير من المثقفين يقلدون الغرب تقليدًا أعمى وأصبحوا يؤكدون ما قاله ابن خلدون من أن المغلوب يقلد الغالب فى عاداته وأعرافه ، ولدينا فعلا من يقلد الغرب ويأخذ عنه حسناته وسيئاته . بينما كان علينا أن نأخذ ما يمكن استثماره لبناء الحاضر والمستقبل وأظن أننا على عتبه الدخول إلى مرحلة الإدراك السليم حقا وليس مجرد الكلام الإنشائى العابر . . .

◆ **بوصفك أحد المشتغلين البارزين فى حقل الفلسفة فى العالم العربى - ثمة قضية أثرناها واستجوبنا حولها بعض المفكرين العرب تدور حول تساؤل بسيط ومزعج فى الوقت نفسه وهو : لماذ لا يوجد فلاسفة عرب اليوم ؟**

● فى الواقع عندنا أساتذة كبار فى تدريس الفلسفة ، وعندنا محققون للتراث الفلسفى العربى الإسلامى وعندنا باحثون فى تاريخ الفلسفة الغربية ، أما فلاسفة عرب لهم فلسفة ونسق وطرق جديدة من البحث ، فاظن أن الجيل الحالى يبحث عن ذلك وسيصل لا محالة ، على الأقل من بين الذين تعرفت إليهم فى الجامعة المغربية وفى مصر . هناك مؤشرات تبشر بمستقبل واع لكن حاليا على ما أعلم - والمرء يعلم أشياءً وتغيب أشياء أخرى - لايوجد فلاسفة عرب معاصرون .

◆ **فى لقاءات سابقة مع بعض المفكرين العرب كانت إجابات بعضهم تتسم برؤية دفاعية وتقول لدينا فلاسفة وتذكر بينهم اسمك وفؤاد زكريا وعبد الرحمن بدوى . . . كيف تعلق على هذا ؟!**

● فى هذا المعنى يمكن أن أشير إلى أسماء كثيرة ، من حيث المنطق هناك زكى نجيب محمود ومن حيث التفكير الفلسفى هناك فؤاد زكريا وحسن حنفى وآخرون،

وهناك الجابرى الذى يعمل فى مجال الفكر الإسلامى من خلال منهج علمى مقتدر يسعى إلى تجديد كيفية التعامل مع التراث العربى . وهناك طه عبد الرحمن الذى يقتبس من المنطق العربى القديم ويعمل من أجل منطق جديد وكذلك على أومليل . . .

◆ **هل تعتبر هؤلاء فلاسفة أم مفكرين ؟! أم ماذا ؟!**

● أنهم يفكرون ويبحثون ، ولا محالة أن بعضهم سيصل إلى تحديد فلسفة جديدة ، متى وكيف ستكون ؟ هذا شىء آخر .

◆ **ربما لو تساءلنا عن الأسباب العميقة التى حالت دون وجود فلاسفة عرب معاصرين أقول ربما كان ذلك بداية حقيقية لظهور ما يميزنا عن غيرنا .**

● نحن الآن فى مرحلة الأخذ وبعدها ستأتى مرحلة العطاء . هذا أمر طبيعى فى تطور الفكر وتطور الثقافات .

◆ **ألا تعتقد أن مرحلة الأخذ والنقل والشرح وهى مرحلة مهمة وضرورية قد طال أمدها وأن هذا قد أثر بدوره سلبيا على هؤلاء المفكرين وحال دون تمكنهم من تقديم رؤية ومنهج يعبران مباشرة عن الواقع المحيط بهم والذى ينتمون إليه ؟**

● علينا أن نتذكر أن الانطلاقة الأولى كانت لأبناء الأعيان وهم الذين كانوا يذهبون إلى المدارس «المزدوجة» والبعثات إلى الخارج التى بدأت فى مصر والبلاد العربية . وبالتالى لم تكن هذه الارستقراطية ممتزجة بالشعب ولم تكن تعرف همومه وهذا ما جعل أولئك المثقفين بعيدين عن هموم شعوبهم وقضاياهم ، وعندما اشتغل بعضهم بالسياسة آنذاك أخذ الكفاح السياسى من وقتهم الكثير على حساب التفكير السياسى .

◆ **لكن حتى فى تلك اللحظة النادرة التى يبتعدون فيها عن النشاط السياسى والتوجه إلى الناحية الفكرية المحضة فإنهم يمارسون غربة مزدوجة ، إذ أن أغلب جهودهم الفكرية نابعة من رؤى ومناهج بحث غربية كالتحليل النفسى ، المادية التاريخية الألسنية**

والبنيوية .. أليست هـذه علامات تؤكد أننا لا يمكن أن تكون لنا فلسـفة طالما لم نطور مناهج للتحليل والرؤية نابعة من أعماق الثقافة العربية ومشاكلها . . .

● لا أظن أن المنهج يسبق الفلسفة ، وإنما التفكير يخلق منهجه ، يجب أن لا نضع العربة قبل الحصـان . . . هناك أشياء تسبق أشياءً أخرى وتستلزمـها ، ونحن عندما يكون لنا فكر خاص بنا من المؤكد أنه سيخلق معه المناهج المعبرة عنه .

◆ **كتابك نحو «مقولاتية جديدة» هل نشأ فى إطار البحث عن مناهج ذاتية للمعرفة أم فى نطاق يتجاوز هذا الأفق ؟!**

● أظن أن الوحدات الإقليمية غير كافيـة للشمولية ، أنا أفكر "ثالثيا" أى انطلاقاً من العالم الثالـث الذى يتهم بالتخلف ، وبالفـعل هو متخلف ، لكنهم فى الغـرب يفسرون ذلك خطأ ويقولون أنه متـخلف لأن تفكيره لا يقوم على مقولات مقبـولة عقلانياً ، وأنه يدخل فى حسـابه الوجدانيات أكثر مـن التفكير المنطقى ويقـسمون العالم إلى قـسمين : العالم الغربى الذى يعتـمد المنطق، والعالم الآخر الذى يعتمد تفكيـراً سابقاً على المنطق أى العـقلانيـة ، لذلك أردت فى هذا الكـتاب الذى لا يزال مـخطوطا إن أظـهر أولاً أن العقلانية المحـضة لا توجد وأن كل تفكير يقوم على عقلانية ممـزوجة باللاعقلانية . وأن هذا ليس خاصـاً بالعالم الثالث ، بل بكل تـفكير فى كل مكان وزمان ، وأخذت فـلسفة كبـار الفلاسفـة الغربيـين وأظهرت أن لديـهم بعض التناقـضات وبعض الانحـرافات عن العقلانية كـما يتصورونها ، فالإنسـان ليس عقلانياً محضـاً ، وإنما يفكر بحدس أو ذوق كما يقول المتصوفة .

◆ **لكن ألا تعتقد أن نسـبة المعرفة " الحدسية " أو " الذوقية " لـدينا أكثر مما هو عليه الأمر فى الغرب ؟!**

● المسألة نسبية بطبيعة الحال ، ولا توجد لدينا وسيلة كى نقارن بها لنقول النسبة هنا

٥ بالمئة وهناك ٢ بالمئة . على سبيل المثال ، فقط أقول هذا موجود وذاك موجود، بل أقول أحيانا تغلب على الفرد ذاته فى الوقت نفسه الحدسيات أكثر من العقليات ، وأحيانا العكس وفقا للأوضاع وتأثير الوسط والشروط الملازمة للتفكير والطاقة الإرادية ، ما أريد أن أصل إليه هو أن فى الغرب كما فى غير الغرب توجد العقلانية ويوجد فكر بدائى أيضا .

◆ **أنا لا أريد أن آخذ موقف المدافع عن الغرب لكن إنصافاً للحقيقة هناك مؤشرات يمكن من خلالها إدراك أن الأطر العقلانية فى الغرب أكثر مما هى عليه فى بلادنا ، وذلك يعود بالطبع لأسباب تاريخية عديدة بل إنهم وصلوا فى الغرب إلى مرحلة من العقلانية بدأت تزعجهم إذ كل الأشياء مرتبة ، منظمة ، مبرمجة... هكذا ...**

● لا ... أنماط الحياة فى الغرب شىء آخر ، وهذه الأنماط جاءت مع تكيف الغرب مع مرحلة التصنيع ، كما أنهم عندما يذكرون ديكارت يذكرون أيضا باسكال وعندما يذكرون فولتير يذكرون معه روسو ولا يوجد لديهم صنف واحد من التفكير .

◆ **عندما قررت أن تتبنى «الشخصانية» ما الذى ميزها عن تلك الشخصانية السائدة فى فرنسا البلد المستعمر لبلادك فى هذا الوقت ؟!**

● أولاً: كانت الشخصانية عندى واقعية ، كانوا يفكرون من الناحية الفلسفية فى الزمان كخلود ، وكنت أفكر فى زمان نسبى ، كما نعيش فى إهانة فرضها علينا المستعمر الذى لا أعترف له بالخلود ، وكنت أريد أن نعيد الأشياء إلى مستواها الإنسانى ، كنت أريد أن افرض شخصانيتى فى مواجهة هذا المستعمر كبشر مساو له وكنت أود أن أثير فيه عقدة المجرم فى حقى وأنه حينما يخاطبنى وهو يتبخر بمركب الكمال كنت أريد أن أقول له أنت مخطىء ومغرور وأن لدى وعياً يماثل وعيك وأنى مساو لك .

◆ **وهل فهم من محاولتك فى هذا الإطار الذى شرحته توا على أنها كانت محاولة لإثبات الذات فى مواجهته أم لمحاكاته ؟!**

● أية محاكاة أنا 'أتهـمه فكيف أحاكيه ، هو لم يستعمـل هذه اللغة . كان يظن أننا نعيش من دون وعى وأننا خـلقنا كى نخدمه ، فى حين أنا أقـول له عكس ذلك وأننى لا أرضى بما فعله فى الوقت الذى كان يظن أننا راضون عما يفعله .

◆ بما أن محور حديثنا هو العلاقة مع الـغرب وثقافاته ، وهو محور الأحاديث التى أجريناها مع مفكـرين آخرين ، أريد أن اعرف كيف تتناول "الغدية" الـعلاقة مع الغرب فى هذا الغد الذى تبشر به ؟ وما هو الجديد فى ذلك ؟

● الفلسفـة التى مررت بها بدأت حـين كانت بلادى مستـعمرة وكنت اشعـر بتخلف تاريخى مهـين وبمضايقـة فى ذاتى ، حينمـا استقلت بلادى لم تعـد قضيتـى هى إثبات شخصيـتى أو ذاتى أو ثقافتى بل إثبات وجودى كـمشارك فى الحضارة ، فحـينما تأملت حضارة التصنيع وجدت أننى مهمش فيـها ، وهذا هو شعور العالم الثالث . ومن ثم نشأ وعى الآن داخل بلـدان العالم الثـالث بضرورة اعـادة النظر فى مـواقفنا من الغـرب ومن أوضاعنا التاريـخية وأنه ينبغى أن نفك عـربة العالم الثالث عن قطار الغـرب لنبنى نماذج لأنفسنا ونكون قوة يمكن أن تدخل فى حوار مـستمر مع الغرب . وهذا هو السؤال الذى ينبغى أن نفكر فيـه فى الغد لأن المسألة التى تفصلنا عن هذا الغرب أصـبحت شاسعة ، فإذا بقيـنا فى مكاننا نطلق صيحـات الاحتجاج والعـويل ستزداد المسافـة بيننا وبين الآف السنين وتتسع الهوة بين إنسانيتين: إنسانيـة التخلف وإنسانية ما بعد التصنيع . لهذا يجب أن نفكر فى الغد وأن نعى واقـعنا من دون أن نكذب على أنفسنا ونقول أنـنا بلاد نامية . نحن لا ننمو ، بـل التخلف هو الذى ينمو . . . ينبـغى أن نعيد النظر أيضـا فى سلوكنا وثقافاتنا . .

◆ سؤال أخـير : ما الذى قلتـه فى هذا الحوار وتريد فـى النهاية أن تضـيف إليه أو تنقص منه او تقول ما لم تقله بعد ؟!

● أظن أننى قلت كل ما أومن بـه دائما إلى درجة أننى أسيئ إلى نفسـى أحيانا لأننى لا أجامل . وأعتقد أن ما سجلته ولم يكن مكتوبا صدر عن صدق .



مصطفى صفوان

الاستغراب يؤدى إلى التحرر الوطنى

مصطفى صفوان يعتبر من أبرز المشتغلين فى مجال التحليل النفسى ، ويقيم فى فرنسا منذ أكثر من نصف قرن . درس الفلسفة فى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى فترة الحرب العالمية الثانية ، وتخرج منها عام ١٩٤٣ وفيها تتلمذ على أيدى ثلاثة من كبار الاساتذة آنذاك : يوسف كرم ، أبو العلا عفيفى ومصطفى زيور ، ويعود لهذا الأخير الفضل فى توجيهة نحو دراسة التحليل النفسى فى باريس . ولأنه كما يقول آراد أن يتفلسف من خلال علم مرتبط بالواقع. . حيث كان يشعر بأن هناك مشاكل بلا حل كأنها أبواب مغلقة ، كالشعور بالذنب بسبب وبدون سبب والاستعداد للعقاب الذاتى . . .

وفى باريس تعرف على جاك لاكان ، وتابع محاضراته ثم فى فترة لاحقة طور أفكاره وعمقها خاصة فى مسألة العمليات الأولية فى الحلم والتى ينبنى عليها تكوينه ، والأعراض النفسية المصاحبة له مثل النقل والتكثيف التى وجد جاك لا كان أنها فى صميمها ذات طبيعة لغوية شأنها شأن المجاز ، وكتب كتاباً فى هذا الشأن وله أيضا إضافات فى مسألة التمييزات الأبوية والأب المثالى كقدوة . وصدر له بالفرنسية : دراسات فى الأدويب ، اللاشعور وكاتبه ، الكلمة أو الموت ، ونظم وجمعيات التحليل النفسى ، لا كان ومشكلة تكوين المحللين ، ويعد حاليا كتاباً يتضمن تقديم المشكلات التى طرحها جاك لاكان فى السيمنار الذى استمر ثلاثين عاماً . وفى هذا الكتاب يحاول صفوان تقسيم إنتاج جاك لاكان وحصر ما تبقى منه . وفى مجال الترجمة إلى العربية قدم ترجمة فريد لكتاب فرويد تفسير الاحلام . ومقال فى العبودية المختارة لإتين دى لابويسيه .

أما فيما يتعلق بقضايا كتابنا فمصطفى صفوان ، يرى أن الغرب هو الأقوى، والأقوى يستخدم دائما قوته فى استغلال الضعيف ، وأننا نعيش فى عصر صليبية بروتستانية أمريكية أشد قسوة من صليلة العصور الوسطى . لكنه فى الوقت ذاته ينتقد دائما عدم إدراكنا للغرب بصورة دقيقة . وينتقد ضعف وعشوائية وندرة ترجماتنا عن الغرب مقارنة بالأمم الأخرى .

وبحكم معايشاته للثقافة الغربية ، ومن واقع معاملاته اليومية مع كثير من مرضاه ، أجرينا معه هذا الحوار لمعرفة حدود وإمكانات التعايش مع الثقافة الغربية، وإمكانات الخروج من مأزق العلاقة السائدة مع الغرب .

◆ **طرح بعض المستشرقين سؤالاً محدداً : لماذا لا يوجد استغراب كما يوجد استشراق فماذا تقول :**

● لا توجد مدنية إلا وقامت على ما تركته مدنية أخرى .. فلا يمكن تصور حضارة اليونان من دون خبرات المصريين فى البناء ومسح الأراضى ومن دون علم الفلك ونظام العدد عند الأشوريين والبابليين ، والعرب أنفسهم لا يمكن تصور حضارتهم من غير حركة الأخذ عن اليونان خاصة فى ميادين العلوم والفلسفة ولكن كل مدنية تأخذ تركة غيرها برغبتها وبوحى من حركتها التلقائية الخاصة ، بينما المقهور ليس لدية وقت لبناء مدنية وحضارة وأخذ ما تركته الحضارات السابقة عليه . ونتيجة تفوق الغرب منذ بداية عصر النهضة الأوروبى والحركة الصناعية وغزو أسواق العالم الثالث . أخذت علاقتنا بالغرب مع الأسف شكل علاقة الغالب والمغلوب . فى البداية كانت الغلبة للغرب لها شكل الوجود العسكرى فى بلادنا ، وهو الشكل المألوف للاستعمار منذ أيام الرومان وحتى نهاية الامبراطورية، حاليا تطورت غلبة الغرب ولم يعد هناك الوجود العسكرى المباشر بل ثمة استعمار جديد ، فلا وجود للثكنات العسكرية التى كنا نجرى ونقذفها بالحجارة فى فترات شبابنا ، نحن نعيش اليوم فى ظل استعمار جديد مكانه شاشات التلفزيون والسينما والعقول ، وهكذا تبدل شكل الاستعمار لكن بقيت المسألة هى مسألة علاقة الغالب بالمغلوب ، ومن هنا أجد من الصعب فى هذه الأوضاع أن يطلب أحد من مواطنينا أن يقبلوا فى مختلف المجالات على الغرب بشهية ، وأن ينقلوا عنه كما فعل أسلافنا . يصح أن يحتاج الغالب إلى فهم ومعرفة المغلوب ، ويقال أن المعرفة قوة وتحكم بينما المغلوب لا يهمه أن يفهم الغالب فإن مسألة فهم الآخر وعدم فهمه تعتبر التكافؤ فى التعامل معه أولاً ، ومن ثم فلا عجب إذا لم يكن هناك استغراب - بمعنى رؤى ودراسات علمية من الشرق إزاء الغرب - يواجه الاستشراق ، ولا أنتظر هذا

الاستغراب والنقل الحاد عن الغرب - وهو بصراحة شيء ضرورى الآن إذا أردنا لأنفسنا الاستمرار - إلا بعد انتصار حركات استقلال وتحرر وطنى من سلطة الغالب ومنطق علاقة الغالب بالمغلوب ، وبعدها يمكن أن يبدأ الاستغراب .

◆ **هل تعتقد أن ضعف «الاستغراب» وعدم إدراكنا للغرب بصورة جيدة ودقيقة يعود - إضافة لما ذكرته عن نتائج علاقة الغالب والمغلوب - إلى أننا لم نعد نرى فيه الآخر الذى ينبغى أن ندرسه ونأخذ عنه .**

● هو موجود عندنا ببضائعه بشركاته ، بتمثيله السياسى ، لكن علمه يبقى فى جامعاته ، وآدابه تبقى فى بلاده ، ومقولاته العقلية تبقى فى قوانينه المكتوبة وغير المكتوبة فى عاداته ، كل هذا لا ينتقل إلينا ، أما الاستهلاك الغربى فهو موجود بالشكل الذى يحرك الحديد فى الجرح وليس بالشكل الذى يحقق الفهم والتعقل والمحبة . وهذه النزعة الاستهلاكية لا تخلف فهماً وإنما انبهاراً ورغبة فى المماثلة السطحية كما تساعد من ناحية ثانية على بروز المعارضة الدفينة التى تبدو فى التوكيد الأجوف للشخصية ، فتأكيد الشخصية بدون إنجاز عمل تتحقق فيه هذه الشخصية هو من قبيل الكلام الفارغ . ولهذا أقول إذا كان هناك أمل فى ظهور استغراب بالمعنى الذى أشرت إليه فإنه لن يأتى إلا بعد معركة تحرر تعيد للناس كراماتهم المسلوبة وثقتهم فى أنفسهم بما يجعلهم يقبلون على من كان عدوهم فى السابق ، لن يأتى استغراب إلا من خلال تعامل الند للند وبهذا تحقق الحد الأدنى من الكرامة المسلوبة .

◆ **هل تعتقد أن الغرب مسؤول بصورة ما عن انتشار النزعات الاستهلاكية فى بلادنا ، والادراك غير الجيد من جانبنا لصورته ؟ هل الغرب مسؤول - أو يشجع- ظاهرة الاستشراق العربى ؟**

● الحديث عن المسؤوليات ، حتى لو كان وجيهاً ، فإنه لا يغنى ، ومن الأفضل الإقرار بالواقع أولاً . وهذا الواقع يشير إلى تفوق الغرب فى وسائل الإنتاج التى قضت على ما يسمى بالبيئة المختارة لكل مجتمع ، فنحن نصنع السجاجيد لأنها جزء من نعيم

مجتمعاتنا ، ونصلى عليها ، حاليا الغرب قضى تمـاماً على البيئة المختارة لمجتمعاتنا ، يرسل لنا الغـرب مقصات مزخـرفة مصنوعة خـصيصاً للعـالم العربى ، فانتـهت الحرف ونضبت البيئة الطبـيعية الناتجة من رغبة ذاتية وخاصة لمجـتمع ما ، ما أقوله لا يعنى أننا أمام الوضع الحاضر يـنبغى أن نعود إلى مجتمع حرفـى لأن هذا من قبيل الأوهام . ومن جهــة ثانية فإن التاريخ لا يخضع فقط لوسائل الإنتاج بل لوسائل التدمير أيضاً ، فالغرب قد سيطر على الكرة الأرضية بامتلاكه مجال وسائل الإنتاج ووسائل التدمير معاً .

◆ **إذاً هناك مسؤولية واضحة تقع على هذا الغرب الذى ينتج ويهدم فى نفس الوقت .**

● أعتقد أن أكبر غـلطة ارتكبها الغرب هى عمله على إفشال حـركات التحرر الوطنى فى العـالم الثالث فى سنـوات الستينات . ولـو كان الغرب قـد تـرك لهـذه الحـركات - لومومـبا ، ناصر ، سوكـارتو - فرصة الوصـول لأهدافها - وهو الاسـتقلال والاعتـماد وعلى الذات - ربما كانت براكـين الغضب فى العالم الثالث الآن غيـر ما هى عليه ولكن الغرب فـضل الاحتفـاظ بهيبـته بأى شكل . إنه كـان يخلق حومات خـيانة تسـاعد على استمرار هيمنته لكن النتيجة النهائـية إن ذلك قد عمق من احتدام علاقة الغالب والمغلوب ، واعتقد انه إذا كان هناك مجال للتكلم عن المسـؤوليات فأنا لا أرى للغرب مسؤلينه أكبر من مسؤليته فى القضاء على حـركات التحرر الوطنى فى الستينات .

◆ **حاليا هل يوجد دوافع واضحة لدى الغربيين تجعلهم يحاولون تغيير صورتهم عـن «الآخـرين» ومساعدة بلدان العالم الثالث فى الخروج من مأزقها ؟**

● لا يوجد دافع وبالتالى لن يحدث هذا .

◆ **لا توجد دوافع أخلاقية ، إنسانية ؟!**

● نعم يوجد خـطاب أخلاقى ، لكن لكى يطمـئن فقط ضمـير الغربيين بـما يزيدهم أمعاناً فى نفس الطريق . وكى يسـتمر تفوق الغرب فى مجال الإنتاج ومجـال التدمير معاً . والخطورة إن الغرب متفوق فى المجالين واستفحلت سيطرته بحيث بدأ أفراد المجتمع المغلوب يشككون فى إنسانية الغرب وقيمه .

◆ **هناك من يرفض الحديث عن صراع بين شرق وغرب ماذا تقول فى هذا الشأن؟**

● أفضل بحث طبيعة الصراع القائم من خلال مصطلحات الشمال والجنوب ، كما أن الحديث عن هذه العلاقة ينبغى أن يكون فى مستوى مختلف من مستوى العلاقة بين المجتمعات ، أى مستوى البشر باعتبارهم كائنات ناطقة . فمن هذه الناحية لا يوجد فرق ، فالإنسان سيطرح نفس الأسئلة الوجودية التى تتعلق بالحياة والموت والمصير ، لا يوجد اختلاف بين البشر بوصفهم كائنات ناطقة ، والثقافة باعتبارها مظهراً للإنسان بوصفه حيواناً ناطقاً موجودة للتفاهم ، لكن حركة المجتمعات بما هى عليه من صراع شىء آخر لا يجعل من الثقافة أداة للتفاهم . . فالثقافة الغربية ذات الأبعاد الإنسانية جديرة بالاحترام فى عمقها وخلفيتها ابتداء من حضارة اليونان حتى افكار هايدغر من الوجود والزمان ، ولكن هذا شىء وثقافة سينما رامبو وروكى شىء آخر .

◆ **فى هذه الحال لماذا لا نتفق على أن الصراع يدور بين شرق وغرب طالما أن الأبعاد وطالما أن الثقافة - بوصفها بعداً إنسانياً - لم تعد كذلك بل أداة فى صراع الغالب والمغلوب ؟**

● الثقافة وفقاً لمنطق صدورها عن الإنسان بوصفه حيواناً ناطقاً هى للأخذ والعطاء ، والقوى يقضى على هذه الطبيعة الخاصة بالثقافة ويزهد النفوس فى التواصل الثقافى ويشجع العزلة والانكفاء الذاتى ، فلماذا أقرأ بروست وبلزاك إذا كان العسكرى الفرنسى رابض فى أرضى ؟

◆ **كيف الخروج إذ من مأزق ثقافة غربية المفروض أنها ذات بعد إنسانى كونى وبين واقع أنها مستخدمة فى نطاق الهيمنة الغربية على الآخرين ؟**

● نحن نعيش حال تصدع وتنافر بين القيم الثقافية التى أخذناها عن الغرب والقيم الثقافية الخاصة بنا . ولا شك فى أن اتصال الشرق بالغرب قد أدى إلى تفجير مقولات قديمة وإدخال مقولات جديدة من دون أن يكون هناك أى مرشد نحو طرق واضحة للخروج من هذا الصراع بين المقولات . فوظيفة الكلمة لدينا تختلف أحياناً عن وظيفة

الكلمة فى الثقافة الغربية . بالنسبة لنا الكلمة قد تكون أحياناً نوعاً من الشرق بينما وظيفة الكلمة فى الثقافة الغربية ليست بعيدة عن الحاسب الآلى ، إذا نزلت فى الفندق فى أميركا مثلاً وأردت أن تطلب خدمة من الإدارة فلا بد أن تسير وفقاً لبرنامج ويبدأ من ذكر الإسم أولاً ثم رقم الغرفة التى تقيم فيها ثم نوع الخدمة التى تبحث عنها كما لو أنك تمول عقلاً اليكترونيا . . . وهكذا تمر مجتمعاتنا - بجانب ما يتولد فى النفوس من قهر - بنوع من «اللخبطة» فى المقولات والتصورات العقلية التى انبنى عليها كيانها ، وليس هناك من طريق للخروج من هذا المأزق سوى عن طريق نجاح حركات التحرر بحيث يتكون أفق تظهر من خلاله الحلول الصحيحة .

◆ **إلى حين أن تنجح حركات تحرر وطنى هل تستمر العلاقة مع الثقافة الغربية على ما هى عليه الآن من «الخبطة» ؟**

● أننا فى مأزق وعلينا أن نعيد إدراكنا لثقافة الغرب وان نقبل برغبة حقيقة فى التعرف على ما فى هذه الثقافة من أبعاد إنسانية مع احترام لثقافة السلف فى الوقت نفسه. ليس من المعقول مثلاً أن تتحول أقسام الآداب الأجنبية فى جامعاتنا إلى أقسام لتعليم اللغات الأجنبية كى يذهب الطلاب بعد ذلك للعمل فى شركات سياحة ومطاعم غربية . . .

أقول ذلك وأنا أعلم أن الدعوة للإقبال على ثقافة الغرب الإنسانية والوصل بينها وبين تراثنا وحاضرنا ليست بالمسألة السهلة لكن مازال الأمل قائما بانتصار حركات تحرر وطنى ينفتح بعدها الطريق نحو هذه المعادلة المفقودة

◆ **واصلنا الحديث مع مصطفى صفوان فى لقاء آخر وسألناه إذا كان يرى مبرراً للحديث اليوم عن شمال وجنوب ، أو شرق وغرب فى ظل امتداد وانتشار واقع وخطاب العولمة المتزايد يوما بعد يوم ؟**

● نعم هناك مبرر للحديث عن ذلك فى زمن العولمة . فنحن لأول مرة فى التاريخ نشاهد حرباً قائمة على أسباب تسمى إنسانية أو أخلاقية . والسؤال هنا : هل هذا تقدم

فى الوعى الإنسانى كمـا يدعى البعض أم هو رجوع إلى ما كان يسـمى فى القرن التاسع عشر بسياسة المدفع . وأيا كان اختيارك بين الأمرين فالواقع أننا نعيش سياسة القذائف .

● والحقـيقة المؤكـدة أن العولمة تصطدم أمـام أعيننا بالنزعـات القومية . والعـولمة تصطدم بالقومية الصربية الأرتوذكسية ، ولا يوجد مانع من أن تصطدم بالإسلام وبهويات أخرى ، فـالمشاهد أن النزعـات القوميـة تتزايد فى كورسـيكا والباسك والكاتـلان أمثلة عديدة فى أوروبا وفـى أيرلندا . . وحتى داخل المـجتمعات ذات الـهوية الوطنية الثـابتة وغير المـهددة مثل الأمة الفرنـسية تجد خصـائص جديدة تظهر لجمـاعات وطوائف من اليمين إلى اليسار . . وتوجد تعريفات جديدة لـمجاميع وطوائف دينية جديدة . فالعولمة تسير إذاً مع تزايد النزعات القومية ومع تزايد الطوائف والمجاميع القائمة على أسس دينية وطائفية أخرى . وليس هذا بجديد أو مفاجـىء ، فماركس منذ أوائل القرن التاسع عشر قال أن المـضى نحو مدنيـة تشمل العـالم كله سيفـاقم من حدة الشعـور بالخصوصـيات والهويات - وهذا شيد طبيـعى - فأنت فجأة تجد بيتك الخاصة والمكـونة بطريقة معبرة عن احتيـاجاتك ورغباتك من سجـادة الصلاة إلى التمرهندى . . وقـد بدأت تنهار تحت وقع محلات المكدونالد والكوكاكولا و . . . تشابه العـالم يفقد الإنسان شخصيته إلا فى المقومات غير المادية وغير المصنوعة ، أى عنصريتك أو دينك أو وطنك . . . الخ .

◆ **البعض من الذين ينظرون نظرة تفاؤلية للعولمـة الزاحفة يعتبرون أن مسألة الصراع مع الغـرب لم تعد ذات فيـمة ، وأن علينا العـمل من أجل تجـاوز تخلفنا فى الـسـياق الراهـن حتى نستعيد مشاركتنا الحضارية التى فقدناها ، كيف تنظر إلى ذلك؟**

● بالنسـبة للشرق والغـرب ثمة حاجتـان : مسألة الصـراع ومسألة تخـلف الشرق أو العالم العربى بالتحديد عن ما كان له من المشـاركة الحضارية فى المدنية . بالنسبة للشق الأول هناك صراع قطعاً . فواقع الأمر أن هناك أنظمة تابعة للقوى الغربية الكبرى لا ينفى وجود الصراع لأن التبعية ذاتها تعنى أن الـقوى أنتصر وأنك أصبحت تابعاً له . . ويمكن

القول أن الصراع فى فترة ما قد أخذ شكل حرب صليبية شنتها الكنيسة الكاثوليكية ، ولاحظ المفارقة أن الكنيسة الكاثوليكية كان لها ادعاءات إنسانية .. ثم جاءت الحر فى وقت أن الاتصال بين العرب والغرب على أشده . فمن المعروف أن الغرب اكتشف قارات العالم بما اكتسبه من فن الملاحة عند العرب كالبوصلة وغيرها . وتم له ذلك بمساعدة العرب أنفسهم . ماجلان لم يعبر إلا بمساعدة الملاحين العرب الذين تركوا أنفسهم فريسة سهلة للتطويق دون أن يشعروا ... والآن نعيش فى أجواء صليبية بروتستانية ليس بها رجعة والدليل على ذلك أنظر صورة العرب فى أمريكا ... هذا من ناحية الوضع الحالى بين الشرق والغرب . أما الشق الثانى من القضية والخاص بانتهاء وانمحاء مشاركة البلاد الناطقة بالضاد فى الحضارة بينما عرفت أوروبا وثبة لا مثيل لها ليس فقط فى مجالات العلم وإنما فى كل المجالات ... من أين أتى هذا التقدم لديهم ؟ اختلاف اللغات الدارجة لم يمنع التقدم . لم يتحدثوا لغة واحدة ، على النقيض اللغة الواحدة كانت تعطلهم .. هنا الآراء تتنازع . وفى تقديرى أن توكفيل فى كتابه عن الديمقراطية كان قد كشف عن السر مبكراً . لقد تنبأ منذ منتصف القرن التاسع عشر بأن مستقبل العالم سيتوقف على الصراع بين أمريكا وروسيا ، وأشعر القارئ تماما بأن رأيه أن أمريكا ستنتصر بسبب نظمها ومؤسساتها وقوانينها .. وهذا ما حدث هزمت روسيا بسبب تمسكها غير المعقول بمجتمع موحد لا يقبل الخلاف داخله ، وإنما يتكون من طبقة واحدة لديها كل الحق والتاريخ يفتح لها أبواب المستقبل وهى طبقة العمال . هنا التمسك بفكرة الجماعة المتجانسة بصورة تامة ولا تقبل أى خلاف فى داخلها هى فكرة لا صلة لها بالواقع لأنه لا يوجد مجتمع فى الدنيا إلا وبه بذور للحرب الأهلية .

ومن هنا كانت ضرورة الرجوع للكلمة والحوار لتجنب هذا الخطر الموجود باستمرار . وتاريخ أوروبا هو تاريخ توزيع القوة منذ اليوم الذى جعل فيه قسطنطين الأمبراطورية الرومانية تتحول إلى المسيحية . كان الأباطرة يترأسون المجابهة وحصل صراع بينهم وبين البابوات ثم بين الملوك والأباطرة وبين الملوك وبعضهم البعض ، وبين الملوك والنبلاء ، وبين النبلاء والفلاحين ... تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى

هو ثورات الفلاحين وتوزيع القوة بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . . . الأمريكان استولوا على هذا التراث . . وبحيث أن فكرة اللولبى (جماعات الضغط) التى نعتبرها نحن فكرة حقيرة هم يفتخرون بها لأنها فى نظرهم الدليل الأمثل على القدرة على حل المشاكل بالتفاوض ، بينما المجمع المتجانس لا يقبل إلا حاكماً واحداً لا يحكمه قانون إلا الكتاب المقدس، والذى يملك وحده حق تفسيره مثل ستالين عندما احتكر حق تفسير ماركس، ولا يصبح للطرف الثانى أى حقوق أمام هذا الحاكم . أما تاريخ الغرب فكان من شأنه أن يؤدى إلى وجود دولة القانون أى الدولة التى تخضع للقانون وسيادة القانون على نفسها . . . العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فى أمريكا مبنية على دستور ، وعلى أحسن ما وجد فى أوروبا بحيث أن لكل فرد مشاركة فى الحكم ، وأمريكا هنا لديها ميزة عن أوروبا لأن أفراد الشعب الفرنسى ، أو الإنجليزى ، وإن كان لديهم شعور بأنهم يضعون السلطة فى الحكم إلا أن علاقتهم بالسلطة التنفيذية دائماً مشتملة على صراع لذلك عندهم عدم ثقة فى السلطة التنفيذية بينما الأمريكى تخلص من الشعور بالعداء للسلطة ، وتجدهم أثناء الأزمات الكبيرة يداً واحدة .

◆ **تجدهم يداً واحدة فى "الصدام" مع الآخرين ؟!**

● إذا كنت تقصد أطروحة "صدام الحضارات" كما عبر صموئيل هانتجتون فأنا أرى أن بها بعض الصدق لكنه صدق يفضى إلى نتيجة مخيفة وهى أن الغرب لا ينبغى أن يرفع يده عن السيطرة المطلقة وإلا حدث انفجار . . . ثم أنه جعل الصراع مؤسسا على فكرة ماهية الحضارات وهذا كلام خطير لأنه كلام يأخذ ملامح عنصرية ، أما أنا فأقول غير ذلك ، ورغم حديثى سابقا عن صراع صليبى جديد لكننى أراه غير مؤسس على اختلاف الماهيات والهويات وإنما اختلاف نظم الحكم بالتحديد ، الأمر الذى يسمح بالاقتباس والتغيير بشكل إنسانى ، وهو أمر يختلف بالطبع عن مجرد الانحباس فى الصدام .

◆ **تتحدث عن الاقتباس والترجمة من أجل التغيير فى ظل الصدام والصراع ؟!**

● المؤكد أن الغرب مع تقدمه ، فى ظل الصراع يترجم عنا أكثر مما نترجم نحن عنه . العجيب فى العالم العربى أن كل شىء يجرى فيه وكأن هناك رقابة غير مرئية وغير محسوبة فى موضوع الترجمة عن الغرب . بينما العرب القدامى أخذوا كل شىء من الحضارة الغربية اليونانية باستثناء المسرح والشعر ، فلنقل أن العرب آنذاك كان لهم عذرهم . . . لكننا بعد قرون من الحكم التركى وقعنا تحت رقابة لازالت مستمرة . ورغم كل ما ترجم إلى اللغة العربية فإننا لا نستطيع القول أن الكتب الرائدة فى الغرب قد ترجمت . وضربت لك مثلاً بتوكفيل . وأضرب لك مثلاً بأعمال كاتب معاصر هو جونتراجراس الذى ينظر إليه على أنه أرسطوفان العصر الحديث لم يترجم بدوره إلى العربية و ناهيك عن أنهم لا يعرفون كيف يترجمون .

◆ **سؤال أخير : بوصفك محللاً نفسياً أمضى ما يقرب من نصف قرن فى العاصمة الفرنسية هل ترى أن منهج التحليل النفسى يصلح للتطبيق فى المجتمعات العربية الإسلامية أم أنه فى حاجة إلى تعديل قواعده ليتلائم مع موضوعاته العربية ؟**

● الخلافات والاختلافات بين المجتمعات لا تؤدى إلى الاختلاف فى العلم نفسها بل العلم هو الذى يؤدى إلى تبيان الاختلافات بين المجتمعات . العلم الإحتكام فيه للعقل وهو الذى يبرز الخلافات القائمة بين المجتمعات وليس العكس. بالطبع التحليل النفسى مرتبط بوجود مجتمع ، الأسرة فيه قائمة على النظام الابوى واكتشاف «أوديب» ، يعنى تدهور مركز الأب واضمحلال الأسرة إلى الوضع الثلاثى ، وبالتالى يمكن القول أن التحليل النفسى كممارسة لن يسير فى الريف المصرى لأن الأسرة فيه قوية ومتماسكة وليست مقصورة على الأب والأم والولد . . . وبالتالى تجد فى الريف إيماناً قوياً بالأب ، واحتراماً له يجعل الفرد ليس فى مهب الريح كما هو الأمر هنا . لكن التحليل النفسى مع خريج جامعة أو مقيم فى المدينة أو مطلع على الآداب واللغات الاوروبية ، لا سيما هذا الذى يعيش فى ظروف عائلية قريبة من الغرب، وهى فئة كبيرة فى القاهرة والإسكندرية، أراه مهما جداً لهم وهم يتجهون فى أحيان كثيرة للتحليل النفسى .

وقد يكون الاختـلاف فى النظريات التى يتم استخـراجها من الممارسـة فى مصر، وهى تختلف بـاختلاف عقليات المـنظرين ، لكن منهج التداعى الحـر واحد ولا صلة له بالممارس، سـواء أكان فرنسيا أم عربيـا ، وكلامك يكون صحيحا عنـدما نطبق نظرية أو منهجاً فى غير مـجاله عندما نفتح عيادة للتحليل النفسى فـى قرية كذا بالريف المصرى ، أو عندما نطبق المنهج الماركسى فى مصر فى حين أن فكرة الأجر نفسها غير موجودة فى عقول المصريين ، فالعامل الذى يخرج فى الصباح لا يخرج بحثاً عن أجر عن عمل أداه ، وإنما يخـرج بحـثاً عـن الرزق . . الفكرة الأولى عندنا هى فكرة الرزق وليس الأجر . المسـألة ليست شرقاً وغـرباً هنا ،وإنما خطأ فـى التطبيق . . وأعود وأكـرر إن الاختلاف ليس فى طبيعة العلوم ، وإنما العلوم تظهر لنا الاختلافات الواجب مراعاتها عند التطبيق.

سميح فرســـون

الاســتغراب نقــد للغرب

يتجدد الحديث العربى عن «الغرب» من فترة إلى أخرى ، وذلك منذ بداية النهضة العربية الـحديثة ، إلا أن هذا الحديث عن عـلاقاتنا بالغرب وعن المـوقف الذى ينبغى علينا اتخاذه ضمن إطار هذه العلاقة ، قد شهدت تطوراً ملحوظاً منذ بداية الثمانينات .

الفترة الماضية شاركنا ، فى تنشيط وتجديد الحديث عن موقفنا من الغرب اليوم . وعن مراجعة قنوات اتصـالنا بالغرب بعد مائتى عام تقريباً على افـتتاحنا لهذه القنوات ، من بعثات تعـليمية إلى ترجمة إلى وسـائط إعلامية . . . وكانت التـساؤلات التى أثيرت تدور حول إعادة تجديد فهمنا للغرب . وحول تحـديد أكثر وضوحاً لحدود التعايش بين الثقافـة الغربية والثقـافة العربية ، وعلى التـساؤل عن وجود استغـراب عربى ، أو عدم وجوده ، وعن المناهج الأكثـر ملاءمة لدراسة ثقافة الغرب بصورة دقـيقة . . وغير ذلك من التساؤلات . لذلك كانت سعادتنا كبيـرة عندما ذهبنا فى أواخر كانون الأول (ديسمبر ١٩٨٦م) الماضى لمتـابعة ندوة نظمها مكتب الجـامعة العربية فى باريس تحـمل توجهاً رئيسياً بعنوان : كيف نفهم الغـرب . وعلى الرغم من أن بعض أبحاث الندوة قد نشرت ، إلا أنه لم يكشف بعد النقاب كاملا عن «أسرار» ما دار فيها من نقاشات .

هنا حـوار مع سمـيح فـرسون . أحـد المشـاركين فـى الندوة ، والذى التـقت اطروحاته حول ضرورة وجود استغراب عربى مع ما كنا قد نشرناه سابقاً .

وسميح فرسون يعمل أستاذا فى علم الإجـتماع بالجامعة الأمريكية فى واشنطن . ولد فى فلسطين ودرس فى لبنان وأكمل دراسته الجـامعية والدكتوراه فى أمريكا . وتدور اهتمامـاته الأساسية حول سـوسيولوجيا العـالم العربى السياسـية وعلاقة أميركـا بالعالم العربى . كمـا ساهم فى إنشاء رابطة الخريجـين العرب التى ستحتـفل بذكرى مرور ٢٠ سنة على إنشائها فى العـالم المقبل . ويترأس تحرير المجلة الفصليـة للدراسات العربية التى تصدر عن الرابطـة . وله مؤلفات عديدة أهمهـا «المجتمع العربى» و «الـعلاقة بين السود والبيض فى أمريكا» فضلا عن عشرات المقالات فى المجلات الدولية والعربية . . وهنا نص الحوار معه .

◆ **كيف تفسر أولاً تزايد الحديث فى الفترة الأخيرة عن موقفنا من «الغرب» .**

● ينبغى القول ، أولاً ، أن المؤسسات الحاكمة فى العالم العربى كانت منهمكة دائما فى معالجة المشاكل اليومية الناتجة عن الأوضاع الاقتصادية المتدهورة . وبالتالى لم يكن هناك وقت كاف للتفكير فى معنى علاقاتنا بالغرب . لكن مع انخفاض عائدات البترول وتراكم الديون على بعض الدول العربية ، بدأ العرب يفكرون فى معنى علاقاتهم بالغرب ، وبدأوا يتساءلون عن نوعية هذا الغرب الذى استطاع ، فى سنوات قليلة ، أن يحبط آمالنا ومشاريعنا ، وأن يقلب رأساً على عقب ما كنا نسعى إليه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن أوضاع العالم العربى بدأت تتأزم أيضاً ، ليس فقط على الصعيد الاقتصادى بل السياسى والاجتماعى والفكرى أيضاً . وصارت تطرح بالحاح قضية الليبرالية والديمقراطية والنموذج الغربى ، ومن هنا انطرحت أيضاً قضية علاقتنا بالغرب .

◆ **ألا تعتقد أن انتشار التيارات السياسية الجديدة فى العالم العربى قد ساعدت بشكل مباشر ، أو غير مباشر على إعادة التفكير فى موقفنا من «الغرب» وعلاقتنا به من جديد ؟**

● بالطبع هذه التيارات أجبرت الناس على إعادة التفكير فى علاقة الحاضر بالماضى والشرق بالغرب . وعن علاقة الحاضر بالحاضر الآخر ، والذات مع الآخر . وأعتقد أن بعض هذه التيارات لا يسمح بنمو فرص التفكير والإبداع ، لأنها ترجع باستمرار إلى السابق وتؤكد فقط على ماسبق أن حدث . لكن من جهة أخرى هناك بعض النخب والفعاليات السياسية والفكرية فى العالم العربى ، والتى لها مصالح من وراء تبعية العالم العربى للغرب . فالتبعية لها جذور اقتصادية وثقافية أيضاً . وهذه النخب العربية تريد أن تجعل من العالم العربى صورة طبق الأصل عن الغرب ، وتميل إلى استمرارية العلاقة معه كما هى الآن . كما تستمد هذه النخب العربية المهيمنة شرعيتها من العلاقة مع المصالح والأفكار الغربية ، فالواقع هذه النخب داخل الحكومات العربية ، وداخل القوى السياسية ، تسمح لها بأن تبدى رأيها بحرية وتفرض نفسها من منطلق العلاقة مع هذا الغرب. والأخطر من هذا كله هو أن هذه النخب تعتقد أن توجهها الثقافى والفكرى والتنموى هو الصواب ، وغيره هو الخطأ .

◆ **ما هو تأثير هذه النخب العربية الحاكمة على نشاطكم فى أمريكا ؟**

● بصراحة إننا فى أمريكا نعانى كثيراً من هذه النخب العربية الحاكمة ، لأننا عندما ننشط من منطلق وطنى ونجابه الأمريكيين على الصعيد السياسى والإعلامى نجد أن بعض النخب العربية الحاكمة تخذلنا أمامهم ، ولا تجعل لنشاطنا أى مصداقية . فكيف يقبلون بكلامنا فى أمريكا وحكامنا العرب أكثر ميلا إلى الأمريكيين؟ وهكذا فإن المسؤولين العرب يسحبون شرعية ما نقوله ونفعله فى أمريكا ضد الهجمة الأمريكية على العالم العربى والثقافة العربية . بالنسبة إلى الأمريكيين نحن منتقدون ولا تقبلنا المؤسسات المهيمنه لأننا ننتقدها .

◆ **أعود إلى موضوع حوارنا وأسألك لماذا لا يوجد من جانبنا دراسات دقيقة ومسوحات شاملة عن بلدان الغرب فى شتى الميادين . لماذا لا يوجد «استغراب»؟ وهل تتفق مع وجهة النظر التى ترى أننا نعانى من كثرة الاستغراب وليس ندرته؟**

● فى ما يتعلق بى ، فأنا أتصور أنه لا يوجد لدينا استغراب حقيقى بمعنى دراسات عربية عن المجتمع السوفياتى والبريطانى والفرنسى مثلاً .

◆ **لماذا لا توجد مثل هذه الدراسات فى تصورك ؟**

● القضية تعود . فى اعتقادى ، إلى القرار السياسى العربى فى المقام الأول ، فمنذ الحرب العالمية الأولى لم يكن القرار السياسى مرتبطاً بمؤسسات فكرية جامعية أو معاهد أبحاث . والتى لا يزال وجودها نادراً حتى الآن . بينما الأمريكيون ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، استجلبوا فرنسيين وانجليزاً كى يعاونوهم فى إنشاء مراكز أبحاث ودراسات عن الشرق الأوسط ، كى يفهموا بلدان العالم العربى ، وكى يحققوا أفضل الطرق فى السيطرة عليها ، وهنا الاستشراق طور نفسه وطور تصوره للعالم العربى من أجل أن يستجيب لاحتياجات السياسة الخارجية الأمريكية إزاء العالم العربى . أما فى ما يتعلق ببلادنا فلا نجد معاهد ومراكز أبحاث للاستغراب ، ولارساء تقاليد دراسية عن الغرب . وعدم وجود هذه المراكز نابع من حالة التخلف الفكرى والتنافر ، وقليل من

الحكام العرب يقبلون بأن تكون هناك ثقافة مستنيرة مساعدة للحكم . إنهم يفكرون فقط فى وجود ثقافة مضادة لهم وينبغى ضربها . وما هو موجود لدينا من استغراب لا يتعدى دراسة علاقات دولية عن سياسة أمريكا ، مثلا بالعالم العربى . وفى هذا يوجد إنتاج استغرابى جيد ، لكنه لا يتعدى ذلك أبداً إلى التساؤل عما هى العلاقة العضوية بين السياسة الخارجية للدول الغربية والبنية الاجتماعية والسياسية والفكرية داخل هذه الدول ، فمثلا التمييز بين الشيوعى والليبرالى والمحافظ لا يظهر فى أوروبا بالصورة نفسها التى يظهر بها فى أمريكا ، فالليبرالى فى أميركا يتميز بعدواة أكثر إزاء العرب وبدعم أكثر تجاه الصهيونية واسرائيل . أريد أن أصل من هذا المثل إلى إبراز أن العلاقة بين السياسة الخارجية وطبيعة المجتمع الذى يفرزها لم يتطرق إليها الاستغراب العربى بعد .

◆ **هل يكون الغرب ذاته هو المسؤول عن تأخر الاستغراب العربى وندرته ؟ وهل يكون الغرب ذاته مسؤولا ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، عن الصورة التى ندركه بها الآن ؟**

● هذا صحيح ، فالطالب العربى الذى يريد أن يدرس بعض ظواهر المجتمع الامريكى ، مثلا ، يقال له من اساتذته أن هذه موضوعات أشبعت بحثاً ، ومن الأفضل له بدلا من أن يعد دراسة عن السود فى أمريكا ، أن يقوم بدراسة هذا الموضوع أو ذاك عن العالم العربى ، وأنه من الممكن أن توفر له الجامعة الغربية منحاً دراسية ، أو ما شابه هذه الأمور والتسهيلات ، بغرض الحصول على دراسات محددة مطلوبة أساساً فى الغرب . وهذه الطريقة تعود، فى جوهرها إلى فترة الإستعمار الغربى لبلادنا ، حيث كان إعداد الكوادر فى مجال التربية والتعليم ينطلق من نظرة وظيفية ضيقة جداً ، بمعنى أن تأسيس المدارس والمعاهد كان لتخريج بيروقراطية تخدم المستعمرين ، باختصار ، كان الهدف ولا يزال خلق كوادر عربية داخل العالم العربى تعمل على مساعدة الغرب من الداخل .

◆ **هل تعتقد أن هؤلاء «المستشرقين العرب» مازالوا فى مواقع السيطرة والهيمنة داخل العالم العربى ؟!**

● مـازالت لهم السـيطرة على الـرغم من أننا فى حـالة اسـتقـلال . وما زلنا نـطبق الأهداف الاستـعمارية الوظـيفية ، أى إنتـاج موظفين ولـيس مفكرين أو باحـثين ، لأن المنطلق السـائد كان منطلق الخـبرة الاستعـمارية ومن دون تجاوز حـقيقى لهـا حتى فى الدول العـربية التى افتـتحت جامـعات مؤخـراً فى الخليج والأردن وغيـرها ، لا تزال لا تخرج أعداداً هائلـة من الطلبة من ذوى الثقافـة المحدودة ، ولا تصل إلى مستـوى ثقافة تسأل سؤالا وتبحث عن جوابه ، بل ثقافة تردد ما صـدر . إنها تنتج ثقافة شبه سلفية ، لكن عن أشياء حديثة وبمـضمون غربى ذى طبيعة وظيفية فقط فـلا توجد جامعة من هذه الجامعـات ، منذ الحرب العالميـة الثانية ، نجحت فـى تأسيس جامعات ومـعاهد بحث ودراسة . ربمـا كان هناك مؤخراً مـعهد دراسات عـبرية فى الأردن ، ومعهـد الدراسات الفلسطينية ، لكن بشكل عـام لا توجد كوادر منتجة لدراسات تسمع عنهـا وتتعرف إليها فى الغرب أو الشرق .

◆ **البعض يقول ، طالما أوضاعكم هكذا ، فلمـاذ تنتقدون إنتاج الاستشراق، أو أين إنتاجكم أيها الشرقيون ؟!**

● الحقيقة ، بـكل أسف ، تقول أن انعدام المعاهد والدراسات العليـا فى الجامعات العربيـة عن أنفسنا هى السبب الاكـبر الذى يدعم الاستشـراق ، وغالبية الشبـاب العربى الذى يأتى للدراسة فى الـغرب يأسسون دراساتهم انطلاقـاً من خبرة المستـشرقين ، لكن وانصافاً للحقيقـة أيضاً ينبغى أن نشير إلى وجود الباحثين العـرب فى الغرب ممن أنتجوا ثقافة مضادة للاستشراق ، ورابطة الخريجـين العرب فى الولايات المتحدة الأمريكية أكبر نموذج عمـلى لهذا الجيل من الباحـثين الذى خرج منه ادوارد سعـيد وكتابه الشـهير عن الاستشراق ، وقد كنا جميعاً أبناء هذا الـجيل نناقش هذه القضايا كل فى مجاله سواء فى علم الاجتماع أو الاقـتصاد أو السياسية، وكـانت المجلة الفصلية للدراسـات العربية التى أشرف عليهـا ، تساهم بدورها ، وعلى طريقتـها فى خلق ثقافة إن لم تكن مـضادة فهى بديلة ومتفهمة أكثر لقضايا وهموم الشعب العربى .

◆ **كيف بدا اهتمامك وتفكيرك بقضية الاستغراب ؟**

● يعدو ذلك إلى مـا لاحظته من انقسام حـاد فى وجهة نظرنا إزاء الغرب فـمن جهة تجد هناك من يعطى للغرب صورة جذابة إلى أبعـد درجات الجاذبية والإبهار استناداً إلى تقدم الغرب التكـنولوجى، استناداً إلى سيادة الديمقـراطية السياسية والحـريات والحقوق المدنـية لمواطنيـه، ومن جهة ثـانية تجد مـن يقدم صورة سلبـية وسوداوية عـن الغرب وسياساتـه القمعية خارجة حـدوده ومسؤوليته خارج عـن استمرار اقتصاد الفـقر والجوع والبطالة والتميـيز العنصرى . وهكذا نجد صوراً جادة ومتناقـضة عن الغرب . . . الصور الإيجابية ارتكزت على النمـاذج المثالية للغرب بينما الصور السلبـية ركزت على الحقائق الاجتمـاعية . وربما تكون هذه الصـور المتناقضة انعكاسـاً لطبيعة تناقـضات الغرب ذاته وليس فقط علاقتنا نحن به ، وفى تقديرى أن المـدخل الناجع لفهم المجتمع الغربى هو فى إلقاء الضوء على التناقضات الجوهرية فيه وإظهار قواه المحركة للتغيير والتحول .

◆ **هل يشكل هذا المدخل نموذجاً وحيداً لثقافة الاستغراب ؟**

● ليس هدفى فقط مـراجعة فى إطار القوى المحركـة سياسياً واجتماعـياً فى الغرب وإيضاح ارتباطـها بالمستقـبل العربى وإنما أيضاً إبـراز دور نخبة المفكرين وإنتـاجهم من نماذج وصـور للمجتمـعات العربية . ومن الواضـح ، كما تعلم ، فى الغـرب فإن كلا الصورتين عن المجتمع الغربى ومستقبله هما صيغ عقائدية نظرية تم وضعها منذ أمد بعيد لخدمة الآراء والمواقف السيـاسية لصالح الغرب بينما النظرة الغربية لـلغرب نفسه تجدها متعمقة وتتناول الـظواهر فى أبعادها التاريخية حين نجد الصور والآراء العربـية تفتقد مثل هذه الدقة والشمولية فى نظرتها لـلغرب ، وذلك لأنه مناط لها أن تلعب دوراً محدداً فى السياسة العربية ، وكذلك كنتـيجة للطبيعة الاجتماعية للنخبة العربيـة المنتجة والمستفيدة من نشر تلك الصور أى دور الصحافيين والتكنوقراط والمستشارين ، وبتعبير آخر إن تلك الصـور المتناقـضة والحـادة والمجردة عـن الغرب هى نتـاج الصحـافة والأيدولوجـيات والسيـاسات المنتفـعة من هذا الجـدل فى العالم العـربى ، وليست نتيـجة لعمل مـراكز أبحـاث علميـة عن ما يدور فـى الغرب . لقـد صارت هذه الصـور عن الغرب جـوهراً أساسياً فى الحوار العقائدى السياسى العربى .

◆ **هل يدهشك تزايد الحديث فى الفترة الأخيرة عن الغرب بصفة عامة بعد أن كانت هناك فترة يتم فيها التمييز بين أنواع من الغرب ؟!**

● ليس مستغرباً تزايد الحديث السياسى والثقافى العربى عن الغرب من حيث التنويع أو التكرار ، وسواء من خلال استعمال الصورة المجردة أو من خلال الانطباعات الجزئية والمنتقاه والمنحازة ، وإن كان يعكس الانقسام السياسى العربى والصراع الإجتماعى المحلى المتصاعد . من المؤكد أن صورة «الغرب» واستعمالها، شهدت قفزة كمية خلال السبعينات ، كما ذكرت فى بداية الحديث ، عندما شجعت فوائد النفط المالية الحكومات والأنظمة العربية على إعادة صياغة خطط التطوير الاقتصادى ، حيث ظلت نماذج المجتمع الغربى تستعمل فى خطط التنمية علناً أو ضمناً كى تستر المصير الاقتصادى والاجتماعى للدول العربية . وما يجدر ملاحظته هنا ، أن هذه النماذج الغربية تمتص الموارد العربية الضخمة وتؤثر فى حياة الأغلبية الكبير من الشعب دون أن يخضعها أحد للتحليل الدقيق وعن كيفية تأثيرها على المجتمع العربى .

◆ **لذلك تدعو إلى ثقافة الاستغراب؟**

● نعم . . . ما أجده غير قابل للتصديق هو عدم قيام أى حكومة عربية بإنشاء دوائر جامعية أو مؤسسات أبحاث لدراسة المجتمع الغربى . وفى حدود معرفتى ليس هناك أى دراسة عربية عن الاقتصاد أو التاريخ أو السياسة الأمريكية أو البريطانية أو الفرنسية أو السوفياتية . وكل ما شاهدته فى المكتبات ومخازن الكتب العربية هو عبارة عن ترجمات عربية للتاريخ والسياسة أو الاقتصاد الغربى بأقلام كتاب ومفكرين غربيين . نحن فى أشد الحاجة لتكوين مجموعات من الباحثين العرب ذوى الخبرة والمهارة العالية كى تعمل فى معاهد ومراكز عربية للدراسات الغربية .

◆ **تقول لا توجد أى دراسات علمية من الباحثين العرب عن الغرب ؟!**

● بالطبع لقد درس الباحثون العرب ، السياسات الخارجية لبعض الدول الغربية تجاه العالم العربى لاسميا فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية ، وعدا ذلك ، لم يصدر سوى

القليل جداً من الدراسات العربـية عن عملية صناعة قرارات السياسة الخـارجية الغربية أو عن أى ناحية من نواحى المجتمع الغربى التاريخية، الإقـتصادية، السياسية ، الاجتماعية أو الثقافية الخ . . . وينطبق هذا أيضاً على الباحـثين العرب المغتربين ، وقلة قليلة منهم توصلت فى دراساتهـا إلى موضوع الدراسات الغربية أو الـتغيرات العالميـة الفعالة . بل تجد معظم الباحثين العرب المغتربين تخصصوا فى الدراسات الشرق - أوسطية ، أو فى الثقافة والدين والمـجتمع العربى ولا سيما فى الصراع العـربى الإسرائيلى بالإضافة إلى ذلك ، وكما برهن ادوار سعـيد ، فإن معظم الباحثين الـعرب الذين تدربوا فى الغرب ، المغتـربين منهم أو العائدين لمجـتمعاتهم ، يدرسون المـجتمع العربى والثقـافة والتاريخ العربيين والعلاقـات العالمية من وجهة نظر استشراقـية كما وضعها وطبعها الـمستشرقون الغربيون .

◆ **نحن ندرك الغرب وندرسه ليس من مواقعنا ومصالحنا وإنما كما يريد لنا الغرب أن نراه . . !**

● نعم لقد أنتج المفكرون والمـثقفون وصانعوا السياسة الغـربيين ، النماذج والصور المغريـة عن التطور المجتـمعى الغربى وعملوا عـلى توزيعها وتصديـرها إلى دول العالم الثالث بمـا فيها الدول العربيـة . وفى الحقيقة تكمـن فعالية الغرب ليس فـقط فى إنتاج وتصدير السلع والتكنولوجيا بل فى إنتـاج وتصدير الأفكار والنماذج والمناهج التى تخدم المصالح الغربيـة . وقد أدى اعتماد هذه المناهج ، والعمل على أساسهـا ووصفها بأنها عقلانية وعمليـة وحتى أخلاقية من قبل قادة العالم الثالث ونخـبه المفكرة ، إلى اندماج أكثر فى اقتصاديات السوق الغربية وإلى وضـع أكثر اتكالية ومديونية من ذى قبل . وبهذه الطريقة يخـدم المثقفون وصـانعوا السياسة إبان الحـكم الاستعمارى المـباشر وهى دمج المصير الـعربى دمجا مباشراً فى الاقـتصاديات الغربية . هذا يعـنى بكلمات أخرى ، أن التحول الإجتماعى الاقتصادى العربى لا يتولد أو يسير ذاتيا بل يعتمد على المتغيرات فى اقتصاديات السوق الغربية .

◆ **الدعوة إلـى الاستغراب يـمكن أن تكون المخـرج من هذا المأزق أم أن التـحرر**

الوطنى – كما قال لنا الدكتور مصطفى صفوان – هو الذى يفضى إلى تأسيس مثل هذا الاستغراب الذى تدعو له ؟

● فى اعتقادى أن ما يحتاجه العرب لمواجهة هذا الإنتشار الغربى فى المجتمع العربى لا يتمثل فقط فى الأيدولوجيات المناهضة للإمبريالية – كما أن هذه المواجهة لا ينبغى أن تقتصر على الحركات الرجعية السياسية – الاجتماعية أو فى العودة إلى الإيدولوجية والرؤية الدينية وإنما فى الترويج الواعى للاستغراب ولثقافة الاستغراب وخلق دراسة راقية عن الغرب (وحتى عن الشرق) .

◆ **البعض يخاف من استخدام مصطلح الاستغراب لأنه ربما يفهمه أنه مماثل للاستشراق .**

● الاستشراق كما أوضح إدوارد سعيد هو خطاب مغلق على ذاته وهو رهينة للسلطات الفكرية والسياسية التى أوجدته كى يخدم بانتهازية صناع القرار الغربيين ويعبر عن اهتمامات الحكومات الغربية لذلك فالاستشراق يحمل فى مضمونة السيطرة والتحكم وحتى الاضطهاد للشعوب التى يدرسها ، أما ثقافة الاستغراب التى أطرحها فيجب أن لا تكون الصورة المعكوسة . ولا نهج معرفة من أجل التحكم بشعوب الغرب بل هى ثقافة هدفها تحديد المشرق العربى والغرب على حد سواء . من هنا ستكون ثقافة الاستغراب نقداً للغرب (والشرق) لا مدحا له . وتشكيكا فيه لا تقليداً له ، وتفهما للمشاكل الوجودية لشعوبه وليس عدائية تجاهه، وثقافة الاستغراب ضرورية ليس فقط لأنها تؤدى إلى تفهم أفضل للغرب بل لأنها تعطينا المنظور الصحيح لفهم مستقبل المجتمعات العربية

◆ **من الذى يمكنه تأسيس ثقافة الاستغراب والانطلاق بها نحو الأهداف المرجوه منها** فى تقديرى ، دراسة الغرب يجب أن لا تترك للصدفة أو تتم عشوائيا ، بل لابد أن تكون قراراً واعيا ومقصوداً من قبل الدول العربية. أو من قبل جامعة الدول العربية . ويجب أن يشمل هذا القرار إنشاء وتجهيز مراكز ومعاهد ومكتبات للدراسات الغربية ، وأن يتم تكوين جيل جديد من المستغربين العرب كى يساهموا فى دراسة المجتمعات والتاريخ والثقافات الغربية . . . لقد حان الوقت الآن لذلك .

كرم خلــــه

حذار من المركزية الشرقية

كرم نظير خـله غادر مصر فى عام ١٩٥٨ إلى ألمـانيا وظل يعمل فيـها حتى الآن وهو يقوم حالياً بالتدريس فى جامعة هامبورج ، كما صدر له العديد من الكتب بالألمانية فضلاً عن نشـاطه السياسى والإعلامى فـى المانيا الغربيـة دفاعاً عن القضايا الـعربية فى وسط معـاد للعرب . وكانت الـسلطات الألمانية قـد قررت إبعاده فى عـام ١٩٨٢ بعد مساهمته فى النـشاط ضد غزو اسرائيل للبنان ومذبحة صبـرا وشاتيلا ، لكن دعم القوى الديمقراطية فى ألمـانيا منع السلطات الألمانية من تنفيذ قرارها بـإبعاده خارج ألمانيا . . ومن هنا بدأ الحوار معه . .

◆ **من خلال معايشتك عن قـرب ، لأجواء الحياة السياسية والثقـافية والإعلامية فى الغرب نريد أن نسـتمع إلى تصوراتك حول الطريقـة التى ينظرون بها إلى الثقافـة العربية وممثليها والى العرب بصفه عامة ؟**

● يمكننى أن أتحدث فقط عن غرب أوروبا وعن ألمانيا الغربية على وجه التحديد ، لأن هذه المنطقـة هى التى أعايشهـا يومياً . منذ البـداية أقول - وهذا ليس أكتشـافاً من جانبى بل مـمارسة يشاهدها الجـميع - إن منطقة أوروبا الـغربية منحازة فى التـناقضات العالمـية وهى لا تتبنى قضـايا العرب ولا تنظر إليهـم إلا كمصدر للاستـغلال والربح ، فالعـرض العام للثقافـة العربية فى ألمـانيا هو عرض مجـحف ومعاد خاصـة فى وسائل الإعلام الرسميـة . ويمكن أن أضرب العديد من الأمثلة عـلى ذلك وآخرها عرض أوبرا عايدة فى مصـر وهو حدث فنى رائع لكن كافـة أجهزة الإعلام قد سكتت عـنه تماماً أو تكاد لأنه لا توجد لديهم الرغبة فى إظهار أن هناك أحداثاً ثـقافية ذات تأثير كبير تقام فى بلد عربى مثل مـصر ، هذا من جهة بينما من جـهة أخرى تجد ترويجا واسـعاً للأعمال الروائية التى تعـرض العرب فى صورة سلبيـة . فأعمال الروائى الألمانـى كارل ماين فى القرن التاسع عشـر (وهى قصص مغامرات تعرض العرب بصـورة سيئة) لا زالت تطبع حتى اليوم ولا تزال تباع بكميات كبيـرة فى الأكشاك . وأساطير لورانس العرب تجد من يأخذها علـى محمل الجد ، بـل الأغرب من ذلك أنك تجد أسـاتذة جامعات يـصدقون هذه الأساطيـر ويؤمنون فعلاً أن لـورانس العرب هو الذى خلق القـومية العـربية ، وهذه

النماذج التى نواجهها يومـياً تثير لدينا الاستفزاز فأنا صراحة ناقم على الـثقافة الغربية فى طريقة تقديمها للعرب وللثقافـة العربية . برأيى أن هذا الموقف لا ينم عن جهل أو عدم معرفة وإنما بناء على هدف سياسى معـين . وأنا بصدد كتابة مقال عن صورة العرب فى ألمانيـا وغرب أوروبا ، لتوضيـح كيف نشأت هذه الصورة الـسلبية للعـرب وكيف نمت وتطورت .

◆ **هناك انتبـاه واضح لدى كثير من الـمثقفين الـعرب إلى صورة العرب السلـبية فى أجهزة الإعلام الغربية بصفه عامة لكن بوصفك أسـتاذاً جامعياً فى أحد الجامعات الغربية نريد أن نستمع إلى تصوراتك عن هذه الصورة السلبـية للعرب وتاريخهم وثقافتهم داخل المقررات التعليمـية فى مدارس وجامعات الغـرب ذات الصفة الرسـمية كيف يتلقى فى تصورك ، الطالـب الأوروبـى صورة العربى ثقافة وتاريخـاً ؟**

● أنا لا أود أن أشير إلى المقـررات التى تحتمل تفسيرات مختلـفة بل أشير إلى تلك التى تعبر عـن وقائع أو حقائق ، فمثـلاً فى أطلس الجغرافيـا تجد الجغرافيا الاقـتصادية لألمانيا مليئـة بالمصانع ، الثروات ، الإنتاج والحضارة وعندمـا يأتى الطالب إلى منطقة العرب يـجد صورة بدوى يـجر جمـلاً أو راع يسير خلـف أغنامه أو راكب حـمار ، أو أكواخ متناثرة فى صحراء شاسعة ، بحـيث ينشأ وعى لدى الطالب منذ الصغر أن العرب هم مجمـوعة بدو يرتدون جلاليب ولا يفهمـون شيئاً فى الدنيا . وفى كـتابى الجديد - باللغة الألمانية - عن تـاريخ الشعوب العربية أشرت إلى فقرات كثـيرة من هذه المقررات التى تهزأ بالـعرب تاريخاً وحضـارة ، فالطالب فى ألمانيـا يقرأ مثلاً فى أحـد المقررات وصفاً عن العـرب عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ثم يـقولون إن العرب فى ما بعد لا يـختلفون عن العـرب فى ذلك الوقت . . أيضاً فـى المقررات التـعليمـية التى تتناول تـاريخ العلم وتاريخ التطور الـعلمى فى العالم لا تجـد غير التـركيز على العلـماء الغربيـين ، أما من سبقهم من العرب فـلا أحد يتحدث عنه . . . وهكذا يقدم للأوربيين ثقـافة الصمت عما هو إيجابى لدى العرب والترويج فى الوقت نفسه لما يسئ إليهم .

◆ **إذاً كيف تفسر هذا الحديث الممل فى الغرب عن أهمية الحوار مع العالم العربى ؟!**

● إنهم يقصدون بالحوار العربى - الأوروبى شيئاً مختلفاً عما نقصده نحن . فى ألمانيا ، على سبيل المثال ، توجد لجنة مشتركة مع كل دولة عربية يصل عددها إلى مائة . وتضم اللجنة المصرية الألمانية وزيرى الاقتصاد والمالية ووزيرى الخارجية ورجال الأعمال والبنوك والمستثمرين والمصدرين من البلدين . . . وهذا هو الذى يسمونه الحوار العربى - الأوروبى . وهى مسألة تلاعب بالألفاظ ، إذ أن مبدأ الحوار غير موجود . . . قد يكون حكمى قاسياً لكن هذا نابع من خبرتى اليومية. ولو سألتنى منذ ثلاثين عاماً لسمعت منى مديحاً للغرب ، لكن مع طول مدة إقامتى ومع تكشف الحقيقة ومع متابعة الإعلام الألمانى يزداد استيائى يوماً بعد يوم. نعم أنا ملىء بالعواطف ولا أستطيع أن أنكر ذلك لكن نقدى مبنى على معرفة موضوعية علمية وعلى معرفة دقيقة بأجهزة الإعلام وبالمقررات التعليمية هنا. . . لكن نقدى أيضاً لا يقتصر على وسائل الإعلام الألمانية بل يشمل وسائل الإعلام العربية . ففى «بون» وحدها توجد ٢٠ سفارة عربية وأغلبها لديها قنصليات فى عديد من المدن الألمانية فضلاً عن مكتب الجامعة العربية . ومع الأسف كل هؤلاء لا يقومون بدورهم على الوجه الأكمل .

◆ بوصفك أستاذاً جامعياً فى إحدى جامعات ألمانيا نريد أن نسمع وجهة نظرك فى هذا التناقض السائد فى معظم العواصم الغربية ما بين حديث يتغنى بالبحث عن الحقيقة والموضوعية واحترام حقوق الإنسان وما بين ممارسة مناقضة لذلك . كيف تفسر هذه المفارقة بين حديث لا ينتهى عن احترام الحقيقة وحقوق الإنسان بينما عندما يكون الأمر متعلقاً بالعرب فإننا نجد هذا الحديث يتوارى تدريجياً . كيف تفسر اشتباه الوعى الغربى هذا ؟

● أنا متفق معك فى ما تقول وأرى فعلاً أن هذا تناقضا حقيقيا فى أوروبا الغربية . وهو تناقض يعكس انهياراً واضحاً للقيم . أنا لا أريد أن أمجد العالم العربى لأن فيه نقاط ضعف كثيرة . ولو أن الموضوع هو نقد المجتمع العربى لسمعت منى الكثير . لكن حسب رأيى إن البعد القيمى موجود فى العالم العربى، على الرغم من كل المآسى ونقاط الضعف التى يعيشها . الإنسان العربى لديه قيم ثابتة يحترمها بينما الأمر فى أوروبا

مختلف تماماً، لكننى فى الوقت ذاته أريد أن أكون حذراً عندما أتحدث عن أوروبا الغربية لأنه توجد فيها قوى تناضل من أجل السلام وحركة ديمقراطية ، من دون شك لكن للأسف الصوت المسموع فيها هو صوت الإعلام الذى لا يحترم القيم والذى ليست لديه قيم يحرص على احترامها. والأمثلة على ذلك عديدة . ففى ألمانيا يوجد العديد من الصحافيين «النجوم» الذين ينشرون عن البلاد العربية من دون أن يعرفوا أى كلمة عن العربية، ولا أعرف كيف يأتون بهذه الأخبار التى يتحدثون عنها . هناك صحافى ألمانى مشهور يدعى «شول لاتور» ألف كتاباً عن البلاد العربية واعطاه عنوان : «الله مع الصابرين» ويريد أن يعطى للقراء بدءاً من العنوان صورة عن العرب تثير النفور منهم وتصفهم بأنهم لا يفعلون شيئاً ، بينما هذا المؤلف لا يعرف فى الواقع كلمة عربية واحدة . فكيف يستقى معلوماته ، وكيف يثق فى من نقل له الكلام الذى يرويه . والغريب أن هذا الكتاب ثم ترويجه بصورة خيالية ، ولا يغيب اسم مؤلفه عن أجهزة التليفزيون أو الصحف أسبوعياً . وأخطر ما فى هذا الكتاب الذى يعلّم الألمان كيف ينظرون إلى العرب هو أنه ينشر «نظرية جديدة» تقول إن الذى يهدد السلام فى العالم ليس حسب رأيه القنبلة الذرية أو الصواريخ المنتشرة فى أوروبا أو التسابق على التسليح والجوع بل الذى يهدد سلام العالم ، أولاً هى المقاومة الفلسطينية وحركات التحرر الوطنى فى العالم . وأنه قد يأتى يوم يغلق فيه العرب حنفية البترول على أوروبا الغربية .. وللأسف فإن كثيراً من الصحافيين فقدوا الإحساس بالحقيقة وأن ما يكتبونه عن البلاد العربية لا يتفق مع مبدأ احترام الحقيقة .

◆ **ألا تعتقد أن هذه الأحكام المسبقة فى أوروبا عن العرب قد لا تشجع على وجود تفاعل وتواصل بيننا وبين هذا «العالم الحر» ؟!**

● نعم الأحكام المسبقة عقبة كأداء ، لكن لا ينبغى أن نستسلم .

◆ **أريد أن أقول ، إذا كانوا لا يريدون أن يفهمونا ويصرون على سوء فهم متعمد ، فلماذا نسعى نحن للحوار معهم ؟ لماذا لا نترك مسألة الحوار جانباً حتى يعيد الغرب تصحيح وعيه بنا من جديد ؟**

فى الغرب هناك القوى الرسمية السائدة وهناك أيضاً قوى ديمقراطية . لا بد أن نعترف أن هناك قوى كثيرة فى أوروبا مهتمة بالتفاهم معنا .

◆ **كيف تتعامل إذاً مع عالم تتغلب فيه بالأحكام المسبقة ؟!**

● هذه عملية صعبة للغاية ، فإظهار الحقائق بشكل إيجابى ومقنع هى عملية بالغة الأهمية . فى البداية فكرت أن على الطلاب العرب أن يقاطعوا جامعات الغرب لكننى توصلت إلى أن هذا رد غير حكيم . ففى أوروبا تراكم علمى لم يأت بالصدفة بل جاء نتيجة استغلال إمبريالى لعدة قرون . وبالتالى علينا أن نستفيد من هذا التراكم العلمى حتى نرفع من مستوى العلوم عندنا بدرجة تغنينا عن جامعاتهم وتجعلنا عند مستوى التبادل العلمى . عندى أمل وتفاؤل ، لكن المشكلة لا زالت قائمة ، أى كيف تحمى الكادر العربى فى أوروبا الغربية من التشويه وتغييب الملامح وأن يظل محتفظاً بثقافته وقيمه . . .

◆ **كتابك الأخير عن تاريخ الشعوب العربية - باللغة الألمانية - هل هو موجه إلى القارئ الألمانى من أجل تغيير الصورة المرسومة عن العرب وتاريخهم ، أم أن له أهدافاً أخرى ؟**

● هناك عدة أسباب دفعتنى إلى كتابة هذا الكتاب . أولاً هناك سبب مباشر هو أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر كتاب شامل عن العرب باللغة الألمانية . هنا كتابان فقط وقد نفدا وبالتالى لا يجد الشخص الألمانى الذى يريد أن يتعرف إلى العرب وتاريخهم كتابا كى يقرأه . وهناك أيضاً طموح علمى بغض النظر عن أن الشعوب العربية قريبة من قلبى وارتباطى العاطفى بها فعندما تسمع آراء خاطئة يتكون لديك الحافز أن تكتب الأشياء الصحيحة عن هذا الموضوع . وهذا ما دفعنى إلى تقديم وجهة نظر أخرى عن تاريخ العرب . وأبدأ كتابى بالتأريخ للعرب منذ الـ ١٠٠٠٠ سنة فمن الإجحاف أن يتم تصوير تاريخ العرب انطلاقاً من الـ ١٣٠٠ سنة الأخيرة ، وأنا بصدد اكتشاف مسائل عظيمة فى تاريخ العرب قبل الإسلام . مثلاً ظاهرة المثنى هى ظاهرة فى منتهى الأهمية ، إنها ظاهرة لا تختلط فقط من الناحية العددية بين المفرد والجمع ، بل هى تعبير عن

إحساس جدلى قوى، فالعدد لدى العرب فى منتهى الأهمية أيضاً فى الفلسفة المادية عند قدامى العرب . وقد أعطيت مساحة كبيرة فى كتابى لهذا المجتمع العربى القديم . فى تعاملى مع التاريخ العربى تجمعت لدى اكتشافات وتراكم علمى وأصبحت عندى نظرية واضحة وهذا ما دفعنى لتدوين هذه الملاحظات بشكل منهجى بالنسبة لفترة الإسلام فى تاريخ العرب فقد كشفت الافتراءات على العرب خاصة أن هناك اتجاهاً فى أوروبا الغربية يميل إلى إظهار العرب بصورة متخلفة ومتأخرة وأن سبب ذلك يعود إلى الإسلام . لكن هذا غير صحيح ولا بد أن نثبت لهم نقيض ذلك .

◆ **هناك بعض المستشرقين يتساءلون : لماذ لا توجد دراسات شرقية عن الغرب مثلما هناك دراسات غربية عن الشرق . ماذا تقول عن هذا التساؤل ؟!**

● ما هو الاستشراق أولاً ؟ أليس هو علم أنتجه الاستعمار والإمبريالية . جامعة هامبورج ذاتها والتى أعمل فيها كان اسمها الأصلى عندما تأسست منذ ٧٠ سنة هو «المعهد الكولونيالى» فالمسألة واضحة تماماً إذ ثمة ارتباط بين تاريخ الاستشراق وتاريخ الاستعمار . لكن كون بعض المستشرقين اليوم لا يخدمون الاستعمار ، فإن هذه مسألة أخرى لم تغير من الاتجاه العام للاستشراق . فالاستشراق يخدم إلى اليوم الأهداف الإمبريالية بوسائل مختلفة، فإذا زرت أحد هذه الأقسام الاستشراقية ستجدهم يقسمون العالم العربى إلى طوائف وفئات ، فمع الاستشراق لا تجد شيئاً اسمه اليمن بل الزيديين ، ولا تجد شيئاً اسمه لبنان بل السنة الشيعة الموارنة ، وعشرين طائفة وطائفة . وهكذا يظهر هدف الاستشراق وهو تفتيت القومية العربية وتدعيم الطائفية ، الغريب أنهم عندما يدرسون بلادنا يسمون ذلك استشراقاً وعندما ندرس نحن الغرب يسمون ذلك دراسة العالم والمدنية والحضارة .

◆ **ومع ذلك دعنى أسألك ، هل هناك فعلاً دراسات شرقية إزاء الغرب، هل تعتقد أننا قمنا بهذا الاستغراب ؟**

● توجد دراسة الآداب واللغات الغربية فى جامعاتنا .

◆ **لا . . أقصد دراستها من خلال وجهة نظر شرقية وليس كما هى**

● لا ، لدينا وجهة نظر إنسانية . نحن لا نملك هـذا التفكير العنصرى الموجود فى الغرب . العنصرية فى رأيى مرتبطة بالإمبـريالية ، مرتبطة بالنظرة من أعلى إلى أسفل ، وإذا كان لدينا من ينظر إلى الغرب نظرة بدائية مرتبـطة بالجهل وليس بالاستغلال كما هو الشأن مع الإمبريالية العالمية . . . فـى بلادنا ندرس الهند والسودان وفرنسا والمانيا وفى إحساس كل منـا أن بلداننا تكوّن أجزاء من حضارة إنـسانية ، أما الباحث الغـربى عندما يدرس مصر أو السعودية فإنه يشعر أنه أمام مجتمع بدائى ويدرس هذا المجتمع من أعلى إلى أسفل وهذه النظرة العنصرية لم تمت بعد .

◆ **فى هذه الحالة هل تعتقد أن موقفنا هذا سليم ، أى أننا ندرسهم بروح إنسانية فى الوقت الذى لم تمت فيه نظرتهم العنصرية إلينا؟!**

● أجيـب بنعم ولا . نعم مـن ناحيـة أن فرنســا ليسـت فقط نابلـيون والاسـتعـمار والإمبريالية بل فيها أيضاً تراث ديـمقراطى وثورى ، ومن أجل هذا لابد أن تستمر نظرتنا . وأجيب فى الوقت نفـسه بـ «لا» عندما أتذكر دور فـرنسا الاستعمـارى . لذلك أدعو دائما إلى أن يـكون هناك تعليم وتدريس فـى مدارسنا وجامـعاتنا لا يتغـاضى عن الدور الاستعمارى لـلدول الأوروبية . وأن يكون تعاملنا واعياً ، وقد أشـرت فى كتابى «تاريخ الشعوب العربيـة» إلى أمثلة من كتب التاريخ التى تصور اعـتداءات الدول الأوروبية على شعوب أخرى بأنه «حـملة استكشافية» ، بينمـا عندما يكون الأمر متعلقـا بالعرب فإنهم يستـخدمون أسـوأ الصفات . لكنـنى ذكرت هذه الأشيـاء لأقول إن العنصـرية ما زالت موجودة فى الـغرب لكننى لا أدعو إلى مـجابهتها بعـنصرية مضادة بل مـوقف إنسانى . نحن مثلاً ندين الظلم والتـعذيب والهمجية والتنكيل بنا ولكن لا نديـن الفرنسى كفرنسى أو الألمانى كألمانى .

◆ **أنا متفـق معك فى أنه لا ينبغى أن نواجـه العنصرية بعنصرية مـضادة ، لكن من جهة أخرى فإن الـدعوة إلى وجود دراسات شرقية عن الغـرب تنطلق من واقع أن العالم**

منقسم فعلاً إلى حضارات وثقافات مختـلفة وبالتالى - بغض النظر عن المدلول المباشر لكلمـات الاستـشراق والاستـغراب - من الـطبيـعى أن تكون هناك وجـهة نظر تقـابل الاستشراق أى دراسات من الشرق إزاء الغرب . فلـماذا لا تقبل المسألة فى هذا النطاق وليس فى نطاق أنها دعوة عنصرية لمواجهة عنصـرية الغرب. لماذا أدرس الثقافة الغربية كغربى وأنا شرقى عربى . ألم تقل فى بداية الحديث إن القيم ما زالت تلعب دوراً رئيسياً فى المجتمع العربى . لماذا لا تظهر إذاً هذه القيم فى نظرتنا للغرب ؟!

● أولاً فاتنى أن أعلق على قول بعض المستشرقين الذين يقولون - كما ذكرت لى - لماذا لا يوجد استغراب كما أن هناك استـشراقاً . وفى الواقع اعترف بأننى منحاز ولست محايداً فى هذه القضيـة . ففى أوروبا الغربية تركيز للثروة العالمـية عبر قرون من النهب والاستـغلال ، ولديهم أيـضاً تراكم هائل للـمعلومـات وهذا لم يأت صدفـة ، وعندهم إمكانيات للـمعرفة أكثـر منا ، وثانياً أنا أعذر المـقهور ولا أعذر القـاهر ومع ذلك أجرؤ على القول بأن لدينا كـثيراً من العلماء والمفكرين والـصحافيين يتوخون الدقـة تماماً فى حديثهم عن الغرب أكثر من «الموضوعية» المتوفرة لدى أقرانهم الغربيين . فالعالم مقسم حالياً إلى دول غنية بصورة فاحشة ودول فقيرة بصورة لا تصدق . وهناك واحد من اثنين ، إما أن يقصر الفـرق بين الغنى فى الشمال والفقر فى الجنوب، وإمـا أن يستمر طمس هذه المـعادلة والترويج لـنظرية عنصرية تـقول إن الإنسان الغـربى إنسان ذكى ، مـثقف ويعرف كـيف يستفيـد من الطاقة ، بينما الـعرب كسالى وغـير أذكياء ولا يعرفـون كيف يستفـيدون من الطاقات المـختزنة لديهم ، وذلك سـبب فقرهم ومآسيـهم ، الأمر الذى ينقل إلى المواطن الأوروبى مقومات العنصرية مـنذ الطفولة ، أما بالنسبة إلى الدعوة إلى دراسات شرقية إزاء الغرب فأنا متفق مع هذا لكن أريد أن أشدد على التقسيم والاستغلال بين دول غنية ودول فقيرة قبل التشديد على التقسيم الجغرافى بين شرق وغرب .

◆ **الدعوة إلى دراسات شرقـية لا تخفى استغلال الدول الغنية الـدول الفقيرة بل هى دعوة لإظهار إن لهـذا الاستغلال الاقتصـادى وجهاً ثقافياً أيـضاً ، وأرى أن الدعوة إلى دراسات شرقية (استغراب) هى توضيح أكثر قوة وعمقاً لمسألة الاستغلال وذلك من دون الوقوع فى فخاخ العنصرية أو التشويه .**

● أنا متفق معـك فى أنه لا ينبغى علينا أن نقع فى (الفخ) الذى وقعـوا فيه وأن نقول كما تعودنا فى الاستشراق علينا أن نعاديهم فى الاستغراب (دراسات شرقية)، وأن لا نقع فى فخ رؤية التاريخ الغربى على مقاييس خاصة بنا من خلال مركزية شرقية أو عربية كما يفعل الغربى الذى يقترب منا كلما تحدثنا مثله أو لبسنا مثله . . .

◆ **نعم الدعوة إلى دراسـات شرقية عن الغـرب (استغراب) ليس طموحـها أن تكرر أخطاء الغـربيين أو عنصـريتهم . إنها دعـوة إلى الوعى الذاتى والانطلاق مـن أطر ذاتية للمعرفة وليس من أطر عامة مطلقـة، أناه دعوة إلى إعادة تأكيد الأسس والمراجع الذاتية للثقافة الـعربية فعندما أدرس المجتـمع الفرنسى أو غيره هل أدرسه كفـرنسى أم كشرقى عربى . هل هذا سؤال خاطىء أم صحيح ؟**

● ليس خاطئـا ، وأضيف أن التجرد عـن هذه الأسس الذاتية هو اغتـراب ، كما أن الإنسان برغم أنه لا يستطيع أن يقفز على ظله إلا أن هذا يحدث أحياناً فى بلادنا .

◆ **فى هذه الحالة أنت تكتب التاريخ انطلاقاً من أهداف معينة تريد تحقيقها، وبالتالى . . هل يمكن أن نقول إنك تخلصت من وهم الكتابة العلمية المحايدة ؟**

● منذ بداية تكـوينى العلمى ونحن ندرس أن العلـم محايد لكن مع تـطورى العلمى والمعرفى بدأت أرفض هذه النظرية . والغريب أن غالبية الأساتذة فى الجامعات الألمانية يرفعون شعار الحياد العلمى بينما إذا نظرنا إلى حـياتهم العلمية وإنتاجهم سنجد أن كلمة حياد لا معنى لها . فهم محايدون طالمـا تتفق معهم فى الحكم السائد . والطالب الذى ينتقد الأوضاع يرسب لأنه غـير محايد رغم أن الحقيقة تقـول إن الأستاذ ذاته هو المنحاز وليس الطالب . وفى تـصورى أن المدرسة التى كـانت تجرى وراء الحياد فـى العلم قد سقطت نهائيا وذلك على الرغم من أن ٩٠٪ أكثر أسـاتذة الجامعات الألمـانية لايزالون يؤمنون بالحياد العلمى حتى اليوم . وأرى أن هنـاك فرقاً بين أحادية الجانب والإنحياز . أحادية الجانب عـمل غير علمى لا يرى الجانب الآخـر من الصورة بينما المنحـاز علميا يشاهد هذا الجانب الآخر ويرى التطور نتيجة الصراع ما بين الطرفين .

◆ **هل وجهة نظرك بضرورة الانحياز تنطبق أيضاً على مناهج الكتابة التاريخية؟ بمعنى**

هل نقـول إنك تخلصت أيضاً مـن وهم عالميـة المناهج فى مـجال العلوم الإنسـانية ؛ وأطرح هكذا التساؤل ، لأن هناك كثيراً من المثقفين العرب لا يزالون يؤمنون بهذا الوهم ويتعـاملون مع المناهج كـمناهج عامـة واحدة تصلح فـى كل زمان ومكان ؟ ما شـأننا ومرض - ولا أقول منهج - التحليل النفسى المنتشر فى الغرب ؟

● أنا متفق معك فـى أن طريقة تفكير هذا البعض الذى تقصده هـى خطيرة فعلاً بل أقول إنها مأساة كبيرة عندما نعيـد إنتاج الفكر الإمبريالى ليس عن طريق غزو من الخارج والذى يعيد إنتاج الفكر الإمبريالى ، ولابـد أن نقاوم هذا ، وموضوع المنهج يحتاج إلى منهج . وإحدى الظواهر الهامـة للعلم فى المجتمع الرأسمالى فى الـفترة الأخيرة هى أن كل النظرية المـعرفية قد ألـغيت . جامعة هـامبورج مثلاً بهـا خمسة آلاف مـحاضرة فى الأسبوع الواحد ولا توجـد محاضرة واحدة منها عن النظرية المـعرفية . وانا لا أرى فى المسـتقبل القـريب إمكانية تعـويض هذه الناحيـة لأننا نفكر ونكتب عن ضـرورة إصلاح المقـررات ونلفت النظر لكن بدون أى تـجاوب معنا. لكن أقـول وأشدد باستـمرار على ضرورة أن يعود العلم إلى وضـعه فى إطار نظرية معرفية معـينة بناء على منهج ولابد أن تكون هناك نظرية عامة للعلم الذى يدرس . . .

◆ **هل تستطيع القول إن جـامعاتنا العربية تلك مناهج عربية فى الـبحث والتفكير فى نطاق العلوم الإنسانية أم أنهـا جامعات مازالت بدورها غارقة فى خرافـة المناهج العلمية الحديثة الوافدة من هنا أو هناك ؟**

● فلنكن صرحاء مع أنفـسنا ، فرغم الثراء العلمى الكبير لأجيـال عربية إشتغلت فى البحث ورغم التراكـم العلمى الهائل لعلماء عرب فى أوروبـا . لكن مع الأسف الشديد فإن جامـعاتنا لا تزال تقوم بدور عـملية إعادة إنتـاج التفكير الغـربى . وأعتقد أن تعـبير "المركزية الأوروبية" ليس وهماً بل حقيقة واقفة . نحن هنا فى جامعاتنا العربية نردد ما يقال فى الغرب ، والمنهج هو العربية والثقافـة هى العربية والحضارة هى العربية . لكن أريد أن أؤكد ، رغم دفاعى المستميت عن العرب إلا أننى إنسان يشترك فى صفة الإنسان

مع كثيـر من البشر فى أنحاء المـعمورة فأنا فى شخـصية واحدة مثل: الوطـنى المصرى والقومى العربى والإنسان العالمى وليست هذه أشياء متعارضة بل هى أشياء تكمل بعضها ، ليس لدى اتجاه أننى عربى مميز عن الأفارقة أو عن البشر عامة. نحن نتميز فقط عنهم لأننا أصـحاب قضيـة ومقهـورون وأرضنا مسلـوبة . أننا نتمـيز عن الآخرين بـحكم أننا ضحايا . لكن عندما ينتهى هذا الاضطهاد ينتهى التمييز . نعم هناك إنتماء عربى . . هذا موجود ، إنما نحن أيضاً جزء من البشر لسنا أعلى منهم ولا أقل منهم كذلك .

أنطوان المقدسي

للغرب دائما وجهــــان

أنطوان المقدسى أحد أبرز المثقفين السوريين والعرب اطلاعاً على الثقافة الغربية ، وإسهامه فى مجال التأليف والترجمة ترك ثماره الواضحة فى إنجازات وزارة الثقافة والإرشاد القومى بسوريا ، وكان من أوائل الذين قاموا بالتعريف بالتيارات والاتجاهات الفكرية والسياسية فى عواصم الغرب الكبرى .

شارك أنطوان المقدسى فى الكثير من الندوات الهامة وألقى عدداً من البحوث المتميزة ، من أشهرها دراسته عن " الصورة العربية للحضارة الغربية والاستجابة لها " عام ١٩٨٣ ، وهى دراسة رائدة فى ميدانها ، وتعتبر أقرب أعماله إلى موضوع كتابنا الباحث ، من خلال الحوار مع مفكرينا العرب ، عن تجديد موقفنا من الغرب اليوم .

التقينا أنطوان المقدسى فى العاصمة التونسية عام ١٩٨٨ أثناء انعقاد ندوة «العقلانية العربية» ، وقبل أن نحاوره بصدد دراسته الشهيرة عن صورتنا للغرب ، طرحنا عليه أولاً السؤال الذى يتردد من وقت لآخر على ألسنة بعض المستشرقين :

◆ **بعض المستشرقين ،والإعلاميين الغربيين، يقولون إن لدينا - نحن العرب - سوء فهم وعدم دقة فى إدراك وتصور الغرب ، وأننا لا نملك دراسات وأبحاث عن الغرب توازى ما أنتجوه من دراسات وأبحاث عن الشرق ، ماذا تقول عن هذا الكلام ؟**

● نحن صورتنا عن الغرب أصح وأدق من صورتهم لنا . انظر إلى كتب التاريخ فى المدارس الغربية غالبا ما تجدها تشوه صورة العرب . بينما كُتبنا أكثر إنصافاً بكثير من كتبهم . لذلك أنا أعتبر هذا السؤال الذى يطرحه بعضهم سؤالاً لا معنى له ، لأننا - نحن العرب - نعتبر أن الغرب أكثر تقدماً منا . ونذهب إليه لكى نقتبس عنه أصول الحضارة الحديثة ، ونقول دوماً : إن الغربيين اقتبسوا فى الماضى عنا ، ومن حقنا أن نأخذ عنهم . كما نقول إن الحضارة الغربية ظاهرة عالمية وليست ملكا لأحد ، ومن المؤكد أننا نعرف عن الغرب ، أو عن أوروبا بشكل عام ، أكثر بكثير مما يعرفه الأوربيون عنا . إلا أن الغربيين درسوا تاريخهم بعناية ، أما تاريخنا فقد بقى مجهولاً لنا

بسبب قرون الانحطاط التى أوقفت مفكرينا وأدباءنا عن الكتابة . . .

بالطبع قد نجد بعض النماذج الهامة فى كتب كبار المستشرقين مثل : استشهاد الحلاج لماسينيون ، وكتاب ليفى بروفنسال عن الأندلس ، أو كتاب بروكلمان عن تاريخ الأدب العربى . . وقد يجوز التساؤل هل كتبنا نحن مثل هذه الكتب عن شكسبير وهوجو وغيرهم من أدباء ومفكرى الغرب . ربما تكون الإجابة فى اللحظة الراهنة بالنفى لكننا مع ذلك فى طريقنا للنهوض ، وبدأنا بمعالجة أمور أساسية عن الغرب ذاته ، فمثلا وضع أحد مفكرينا كتاباً عن "المرأة العربية فى الملاحم الأوربية فى القرون الوسطى" ، مما يدل على أنه درس بعناية فائقة اللغة اللاتينية ولغة القرون الوسطى . كما أن وهيب عطا الله قد وضع كتابا مرجعياً عن «أدونيس فى الأدب اليونانى» ، وهو اليوم من المراجع العلمية ، ومع تقدمنا فى هذا الاتجاه يمكن أن نكتب أشياء كثيرة عن الغرب وعن أنفسنا وتكون مفيدة لنا ولهم . لكننى أكرر ، مرة أخرى ، أننا نعرف عن الغرب أكثر بكثير مما يعرفه عنا ، لأن أغلب المثقفين العرب يجيدون لغة أو أكثر من هذه اللغات الأوروبية ، قراءة وكتابة ، فى حين لا نعرف إلا قلة قليلة من المستشرقين ، منهم أندريه ميكيل مثلاً ، من الذين يكتبون باللغة العربية . وهذا الجهل باللغة العربية هو الذى يجعل المستشرق يخطىء ، ويدفعنا إلى انتقاده عن حق . فهناك أمور دقيقة فى كل ثقافة لا يدركها ابن الثقافة الأخرى إلا من عاش زمنا طويلاً مع عالم هذه الثقافة وأجاد الكتابة بلغتها . ومن ثم ، فإن مدارسنا كلها وبكل درجاتها ، أى من الصفوف الابتدائية إلى الجامعة ، تدرس تاريخ أوروبا ولغاتها ، فى حين أن اللغة العربية وآدابها لا يدرسها من الأوربيين إلا المتخصصين .

◆ **يقولون إنه لا يوجد نظام من البحث العلمى المنهجى والمنظم فيما يتعلق بدراسة الغرب من جانبنا ، وأن ما هو موجود ، محاولات فردية متناثرة هنا وهناك ؟**

● لقد بدأت تتكون الآن هذه التقاليد البحثية العلمية . فى العام (١٩٨٨) اشتركت فى مناقشة ثلاثة رسائل جامعية ، بجامعة دمشق بقسم الفلسفة ، الأولى عن برجسون ،

والثانية عن سارتر ، والثالثة عن البنيويين الفرنسيين (ليفى شتروس ، ميشيل فوكوه ، لوى التوسير) ، وعدد الرسائل التى تكتب عن قضايا غربية أو أوربية فى جامعتنا أضعاف ما يكتبه الأوربيون عنا . وهذه بداية ، ولا تنس أن أغلب الجامعات العربية تعود فى نشأتها إلى نصف قرن ، فى حين أن معظم الجامعات الغربية تأسست فى القرن الثالث عشر أو بعد ذلك . ولهذا فاعتراض السيد المستشرق ساقط ، ولا معنى له ، وليعذرنى إذا كنت قاسيا . وأنا لا أنكر أنه يوجد بين المستشرقين عدد ممن اتسموا بنزاهة كاملة ، ولكن يوجد بينهم مع الأسف من يكره العرب ، ويحقد عليهم ، ويحاول رغم علمه الوفير ، أن يبرز فقط مثالبهم، وأنا أعرف بعضهم شخصيا ، ولا ألومهم ، فالناس أنواع ، فى أعلى المستويات الثقافية ، وفى أدناها ، بين العوام والنخبة ، والإنصاف يقتضى أن نقول دوماً ما لنا وما علينا . فنحن أمة فى مرحلة تعيد تكوين نفسها ، ومراحل التكوين دوما صعبة .ونأمل فى المستقبل القريب أن نصل إلى المستوى الجيد الذى نرضاه لأنفسنا . وعلينا ، من جهة العرب والغرب ، أن نرى دوما فى الآخر الجانب الحسن وأن لا نسترسل مع المهاترات .

◆ **ألا ترى أن العالم العربى والإسلامى يشهد الآن بدايات صورة جديدة عن الغرب غير تلك المألوفة عنه فى ثقافتنا الحديثة ؟!**

● لا أعتقد أولاً أنه توجد صورة واحدة عن الغرب عندنا . هناك صور كثيرة تبدلت بتبدل المراحل التاريخية . فمن الطهطاوى مثلاً وعلى مبارك إلى شبلى شميل توجد مسافة زمنية قصيرة ، ولكن المسافة فى فهم الآخر كبيرة جداً . والمواطن الجزائرى العادى كانت له قبل الاستقلال صورة عن فرنسا . واليوم تجد مع الأجيال الجديدة صورة أخرى . وبالجملة لقد اعتبرنا نحن العرب، فى بداية هذا القرن، الغرب نموذجاً للحضارة وللأخلاق الرفيعة ، ولكن مع الأسف أسرع الغرب بتكذيب ذاته بعد سنوات قليلة فى عام ١٩١٦ وهو عام اتفاق الشريف حسين مع مكماهون وهو عام إتفاقية سايكس بيكو ، التى اقتسمت المنطقة العربية بين إنجلترا وفرنسا وبعدها بقليل معركة

ميسلون . . . الخ . إن للغرب وجهين ، وجه استعمارى ، وآخر ثقافى إنسانى ، ويمكن تصنيف الغربيين بين هاتين الفئتين . . فلا يمكن إلقاء حكم واحد أو صورة واحدة . فضلا عن أن كل إنسان يكّون صورة ما عن الآخر وفقاً لمزاجه ووضعه . فالأديب غير الدارس ، يطلب الخيال الذى يذهب أبعد من الواقع ، وستبقى علاقتنا مع الغرب علاقة مد وجزر، صعود وهبوط ، حتى تستقر البلاد العربية وتحصل على حقوقها .

◆ **قلت إن صورة الغرب عندنا ليست واحدة . وأعددت دراسة عن «الصورة العربية للحضارة الغربية والاستجابة لها» . فما هى هذه الصورة ، بالنسبة لك وكيف تتكون : وما هى المراحل التى تمر بها ؟**

● الصورة بشكل عام ، كما أوضحت فى دراستى ، ليست كيانا ثابتا ، كما أنها ليست مجموعة أشكال وألوان وحسب ، بل هى وجه من أوجه رد فعلنا على فعل الآخر ، وقد تكون فعل الإبصار ، الذى به ندرك الآخر ونجسده ،والصورة هى رؤية أيضا نحقق عبرها لأنفسنا مثالاً للآخر ، تبرز فيه مواطن القوة ومواطن الضعف أو بالأحرى ما نعتقده كذلك . والرؤية ، كما أراها ، هى فعل جماعى، عفوى ، سابق على التحليل ، تتألف من مجموعة الصور والتصورات والأفكار والأحكام والمعتقدات والأعراف والعواطف والانفعالات والأساطير ، التى تلخص فى ذهن شعب ما شعباً آخر : ويترجمها هذا الشعب عمليا فى مواقف وحركات . . . وسلوكات جماعية ، حتى لو قام بها فرد واحد . وهى ذات مستويات متعددة وتتكون أول ما تتكون فى الشعور ، وعندما تزول الملابسات التى استدعتها، تتوارى مخلّفة وراءها ترسبات ، هى مركبات انفعالية تتراكم فى اللاشعور حيث تتحول إلى قوة متفجرة مكبوتة تعود إلى العمل عندما تستدعيها الأحداث ، فنتائجها تفاجىء العالم كله ، لأنها لا تدخل فى أى إطار من أطر فلسفات التاريخ ولا أى إطار تفسيرى آخر . . .

● والصورة تمر أثناء تطورها بمراحل ثلاث ، فى تصورى ، هى أيضاً من مستويات

وجودها : الأولى جماعية تتكون معها الصورة عفويا إثر الاتصال الأول بين شعب وشعب وتعبر الجماعة عن هذه الصورة ، بالأجناس الأدبية الخاصة بها ومنها الحكم الشعبية والكلمات المأثورة والأساطير والحكايات . . . والثانية فردية تتألف مما يكتبه كُتّاب شعب عن شعب آخر ، وبهذا يتأثرون ويؤثرون فى الرؤية الشعبية . فيعبرون عنها وفى الوقت ذاته يعبر كل منهم عن وجهة نظره . . والمرحلة الثالثة تبدأ فى زمن النقد الذى يأتى متأخراً ، عندما يتناول التحليل المنهجى صور فترة زمنية مضت وانقضت ، فيضع كل صورة فى إطارها ليبين أنها فقدت مسوغات وجودها ، وبهذا يخلع عنها هالتها السحرية ويفرغها من شحنتها الانفعالية . . .

◆ **دراستك عن « الصورة العربية للحضارة الغربية» . هل يمكن أن نقول إنها تمهد ، فى ثقافتنا ، إلى هذه المرحلة الثالثة التى تتحدث عنها تحت عنوان «زمن النقد» ؟**

● فى الحقيقة مرت الصورة العربية للغرب بثلاث مراحل ، هى مفاصل تاريخنا السياسى فى عصر النهضة ، أى منذ غزو نابليون لمصر (١٧٩٨-١٨٠١) إلى أيامنا . الأولى وتمتد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وقد رافقت بدايات الاستعمار والتحديث ، والثانية هى مرحلة ما بين الحربين ورافقت توطد الاستعمار وحروب التحرير . والثالثة مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، أى مرحلة الاستقلال والثورة العلمية - التقنية التى حلت محل الثورة الصناعية وواكبت تبدلات كثيرة فى العالم كله تناولت القيم والبنى والأيديولوجيات الموروثة . . فى المرحلة الأولى والثانية كانت علاقتنا مع الغرب وحده ، أى بالدرجة الأولى مع الدولتين العظميين إذ ذاك ، أما المرحلة الثالثة فارتد الغرب إلى المرتبة الثانية وحلت محله دول أخرى أكثر قوة منه بكثير ، واتسع العالم ، إذ شمل أقطاراً كانت مستعمرة فاستقلت ، وكانت تعيش على هامش التاريخ فصارت من قواه . وتعددت مراكز القوى . . فثمة الآن انقسام أوروبا إلى شطرين : الشرق والغرب، والعالم إلى جنوب فقير وشمال غنى ، إلى دول منحازة وأخرى غير منحازة . . وتساير صورة العرب للغرب تطور العلائق بيننا وبينه ، فتتبدل بتبدلها . .

◆ **ماذا عن المرحلة الأولى التى أشرت فيها إلى الطهطاوى وتلخيص باريز ، ثم الصورة - البرنامج ، والصورة - المحاكاة ؟!**

● من المعروف أن البواكير الثقافية الأولى قد ظهرت إثر عودة أول بعثة دراسية أوفدها محمد على باشا إلى باريس ، ومن يومها إلى اليوم مابرح الغرب حاضراً بشكل أو بآخر فى أغلب الكتابات العربية ، حيث قدم لنا الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣) كتاب "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" ، الذى ظهر عام ١٨٣١ وأعيد نشره ثلاث مرات فى القرن التاسع عشر ، والذى يعتبر أول - وربما أكمل - صورة عربية للحضارة الغربية كما تبدى فى باريس ، التى كانت إذ ذاك أكمل نماذجها .فالكتاب يتضمن وصفا غنيا بالتفصيلات لحياة الباريسيين فى جوانبها الأهم، أولاً السكن واللباس والغذاء . . ومن ثم التنظيمات الإدارية والدستورية . ويشدد الطهطاوى على الخدمات العامة التى لامثيل لها فى بلاده كالمدارس والجامعات والمعاهد العلمية ، أو كالحدائق الواسعة المفتوحة للجميع ومراكز العناية بالصحة ومكافحة الحرائق . . . يلى ذلك عرض مفصل للدستور والمؤسسات الدستورية التى تضمن للجميع حرية الرأى والكلام والتجمع والاعتقاد . . . وكان الطهطاوى يحرص باستمرار على أن يقيم بينه وبين الحضارة الغربية التى يعجب بها ، فاصلاً يحميه شر الاندماج ، فيكثر لهذا الغرض من ترداد الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والشواهد الشعرية وأخبار العرب . . ليؤكد هويته الإسلامية - المصرية - العربية . . . كما أنه يستخدم المعايير الإسلامية للكشف عن ثغرات الحضارة الفرنسية ، وأهمها الربا ، واستهتار الفرد بالقيم الأخلاقية والدينية وسهولة المرأة وتزلف الرجل لها . . . ويطلق على الفرنسيين أحيانا اسم "نصارى" ، وهو يعلم أن قيمهم ومؤسساتهم لا علاقة لها بالمسيحية إذ ذاك . وكانت استجابة الهطاوى لصورة باريس هذه سريعة المفعول ، فهو يشرع بالعمل من أجل تحقيق ما يمكن تحقيقه منه إثر عودته من العاصمة الفرنسية ، فيترجم ويؤلف ، وفى الوقت ذاته يشغل مناصب عليا فى الإدارات الثقافية . ويؤسس "دار الألسن" التى ما تزال قائمة حتى الآن . ويبدو أنه كان يعدها لتكون بمثابة جامعة متخصصة فى تعليم اللغات والتعريف بالحضارة الغربية .

◆ **هذا عن "تلخيص باريز" . وماذا عن الصورة - البرنامج ؟**

● بوسعنا أن نستخلص من كتابات مفكرى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين برنامجا للإصلاح الاجتماعى مشتركاً بين أكثرهم ، وهو برنامج - صورة ، شكَّل مجال اللقاء بيننا وبين الحضارة الغربية . أما الصورة بالمعنى الذى حددته فعلينا أن نبحث عنها فى الحساسية العميقة التى تكونت لدينا عفوياً لدى جماهير ومثقفين نتيجة اصطدامنا بالغرب وحضارته ، وتتألف هذه الصورة من قطبين متعارضين : الواحد نابذ والآخر جابذ ، فنحن كنا وما نزال نرفض بكل جوارحنا ، بكل كياننا ، المستعمر ، وفى الوقت ذاته نشعر بشعور لا يقاوم أننا مشدودون إليه .

◆ **ما هى عناصر هذه الصورة - البرنامج ، الذى تحدثت عنه فى دراستك ؟**

● يمكن تجميع عناصر هذه الصورة -البرنامج حول أربعة محاور هى : محور الدولة المتمثل فى تنظيم سلطانها وتحديد صلاحياتها ، وكان أول من اقترح نموذجا إسلاميا للدولة الحديثة هو خير الدين التونسى (١٨١٠-١٨٩٩) . . وبالطبع لم يقبل إلداى الذى كان خير الدين وزيراً له طوال أربع سنوات بأرائه فى هذا الشأن لأنها تحد من سلطاته ، وسلطة السلطان ، وكل منهما يريدان سلطة لا محدودة، أما المحور الثانى، فى هذه الصورة -البرنامج ، هو محور التصنيع ولم يصطدم بعقبات كالتى كان متوقعا أن يصطدم بها تبديل بنية الدولة الموروثة عن قرون من الممارسة . ولكن كانت له صعوبات أخرى ، تجاوزها يحتاج إلى مشاريع طويلة الأمد . أما المحور الثالث فيتعلق بالبنى الذهنية ، وغايته إحلال العقلية العلمية محل العقلية الخرافية الأسطورية السائدة ، واحتلت المدرسة المقام الأول بين اهتمامات رجالات النهضة كلهم . . أما المحور الأخير فى برنامجنا فهو تحرر المرأة، الذى اهتم به أيضاً رجالات النهضة والمسلمون منهم بصورة خاصة لأنه كان يستلزم منهم التمييز بين ما يقبل به الشرح وبين ما يرفضه من أوجه التحرر الأربعة التى أخذ بها الغرب ودفع بها إلى حدودها القصوى على اعتبار أنها من مستلزمات الحضارة الحديثة وهى الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات وتعليم المرأة . .

◆ **تحدثت أيضاً عن الصورة - المحاكاة ؟**

● نتيجة التطور الطبيعى الذى بدأ يتجاوز منجزات القرن التاسع عشر أخذنا نتلمس طريقا إلى تصور جديد لذاتنا ، وللآخر وعلاقتنا به . فى هذا السياق استبدل الخط التقدمى (شبلى شميل ، فرج أنطون) الصورة - البرنامج ، بالصورة - المحاكاة . وهذا ما سيفعله سلامة موسى بدون لبس ، علينا أن نحتذى الغرب كى نواجهة فنتساوى معه .

◆ **هناك أيضا الصورة - التحدى ؟**

● فى الحقيقة كان المثقفون العرب ، على الخصوص الذين درسوا فى الغرب ، يريدون، على اختلاف اتجاهاتهم السياسية ، التفاهم مع الغرب لاعتقادهم أنه بموقعه الجغرافى والحضارى والتاريخى هو المحاور الطبيعى لنا ، وأن علينا أن نأخذ عنه، بشكل أو بآخر ، ما يسعفنا فى نهضتنا . والغرب هو الذى أصر على الرفض، حتى اقتلع من أرضنا بالقوة . وما يرفضه على الضبط نقطه واحدة لا غير : الاعتراف بنا كذات، والذات لها الحق بالاستقلال والسيادة على أرضها. . فالصورة - التحدى لها وجهان : الوجه الأول هو تصورنا لذاتنا ، أن نكون بمستوى العروبة أو لا نكون ، والوجه الثانى هو تصورنا لحضارة الغرب . أن نكون من مقياسها أو لا نكون . . .

◆ **هناك من يتحدث عن شرق فى مواجهة غرب ، وجنوب فى مواجهة شمال، ما مدى انطباق هذه التعبيرات فى نظرك على واقع اليوم وصراعاته ؟**

● ظهرت بين أواسط الثلاثينيات وأوائل السبعينيات مجموعة من المؤلفات الروائية (حوالى أربعين قصة قصيرة وخمس أو ست روايات ، على ما أعلم) وعدد ضئيل من الدراسات التحليلية يمكن جمعها - وقد جمعها بعض النقاد - تحت اسم الشرق والغرب ، وربما رجحت كفة شرق على كلمة عرب لأن الروائيين استخدموها بهذا المعنى ، أو لشيوعها بين الناس كمرادف لكلمة عرب . . . كما نجد موضوع الشرق والغرب فى

مجالات أخرى كثيرة غير الرواية والقـصة . لكن فى تقديرى أن زمان هذه التعارضات - المدرسية - قد مضى إلى غير رجعة ، فالحضـارة التكنولوجية المبرمجة توحد البشر فى الكثير من أوجه وجـودهم . . . وبتعبير آخر علينا أن نفهم أن العـالم تجاوز القرن التاسع عشر وصراعاته ومشكلاته، فعلينا أن ننظر إلى المستقبل والمشكلات التى سيفاجئنا بها . فالحضارة الغربيـة ذاتها التى تشكلت فى القرن التاسع عشر والتـى حاولنا تقليدها صارت كلاسيكية ، أى جديرة حـقا بأن تقرأ وتفسر وتستعاد ولكن فـى إطار فلسفة جديدة، هى التى يبحث عنها الفكر الإنسانى وهو فى القرن الواحـد والعشرين ، وتحل محلها ثقافات جديدة هى التى علينا أن نتطلع إليها .

السيد ياسين

فهمنا للتبعية مصدره الغرب!



كيف ندرس الآراء الغربية عن الشخصية العربية والتراث العربى؟ وأى مسافة نضعها بيننا وبين دراستنا لهذه الصور الغربية، أو بتعبير آخر. . كيف يوفق الباحث العربى بين متطلبات الدراسة «العلمية» وبين التزامه الوطنى والقومى، وبصفة خاصة عندما يدرس صوراً وآراء معادية ؟ ثم ما هو موقع الباحث بصفة عامة من الموضوع الذى يدرسه فى نطاق ما يسمى العلوم الإجتماعية أو العلوم الإنسانية ؟

كانت هذه التساؤلات، وغيرها، محوراً رئيسيا فى الحوار مع السيد ياسين مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام، والحوار مع السيد ياسين له دلالته الخاصة، فنحن نتحاور مع باحث مارس هذه التساؤلات عملياً فى كتابه الذى صدر للمرة الأولى تحت عنوان «الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى فى عام ١٩٧٣»، ثم فى كتبه الأخرى التى توالت فى الصدور وصولاً إلى أعماله الأخيرة عن «الوعى التاريخى والثورة الكونية» و «الزمن العربى والمستقبل العالمى» .

والسيد ياسين فى كتبه الأولى والأخيرة، فضلاً عن محاضراته ومقالاته، يكشف عن متابعة ورؤية لما يصدر فى الغرب، وقدرة على رصد التغييرات والتحليلات الجديدة لكبار المنظرين فى العالم، وهو عندما يقرأ ويرصد ويحلل لا يغيب عنه الواقع الذى يعيش فيه، وبالتالى كان الحوار معه ضرورياً فى إطار تحديد وتجديد موقفنا اليوم من الغرب .

بدأنا الحوار مع السيد ياسين انطلاقاً من مفهوم الآخر لنا، وهو الرؤية الغربية السائدة فى مراكز البحث الأكاديمى وأجهزة الإعلام الغربية عن مجتمعات الشرق فأبدى السيد ياسين فى بادية الحوار الملاحظة التالية :

● ينبغى التمييز أولاً بين أعمال رصينة نجحت فعلاً فى فهم مجتمعاتنا بعناصرها السياسية والثقافة والإجتماعية وبين أبحاث أخرى فشلت فى تحقيق ذلك . أو أرادت عن وعى تقديم صورة مشوّهة لهذه المجتمعات . فى إطار التراث الغربى فى دراسة مجتمعات العالم الثالث وعلى وجه الخصوص الدراسات المكرسة للعالم العربى.

نستطيع التمييز ببساطة بين نوعين من الأعمال، أعمال علمية أكاديمية، الغرض منها الدراسة الموضوعية لهذه المجتمعات تاريخاً واقتصاداً وسياسة. وأعمال علمية، طابعها دعائى والغرض الصريح أو الكامن منها هو تشويه صورة هذه المجتمعات العربية . وأرى أن هذه التفرقة أساسية منذ البداية، وفى كتابى: «الشخصية العربية بين الذات ومفهوم الآخر» مارست هذا التمييز فى التراث الغربى والإسرائيلى المكتوب عن العالم العربى بعد هزيمة ٦٧ . ومثال بارز على هذه الأعمال الدعائية دراسة هركابى الذى كان مديراً سابقاً للمخابرات الإسرائيلية وهو الآن أستاذ علم النفس الاجتماعى فى جامعة تل أبيب وله دراسة شهيرة انتقدتها فى كتابى المذكور، وهى دراسة تعتبر مثالاً بارزاً على ما يطلق عليه دراسات علمية دعائية الغرض هدفها أساساً هو تشويه صورة المجتمع المصرى والعربى . وأريد أن أحتفظ بهذا التمييز بين العلمى والدعائى بالنسبة للدراسات الاستشراقية بصفة عامة، هناك دراسات لمستشرقين ممتازة وتعلمنا الكثير منها عن مجتمعاتنا، وهناك دراسات أخرى الغرض منها هو التشويه. فى الدراسات العلمية الموضوعية قد نختلف أو نتفق مع الباحث فى قراءته لتراثنا وواقعنا، لكن هذا لا يعنى بالضرورة أنه مغرض أو متحيز، بينما نختلف صراحة مع أصحاب الدراسات الدعائية .

◆ **لكن لو سلمنا بوجود مثل هذه الدراسات العلمية الموضوعية، ألا نضع فى الحسبان الإطار السياسى الذى تدور فيه هذه الدراسة أو التوظيف السياسى لنتائجها ؟**

● أى بحث علمى سواء قام به باحث وطنى أم باحث أجنبى يمكن أن يوظف سياسياً لا شك فى هذا .

◆ **لكن هناك اختلاف بين السياق الذين يوظف أعمال باحث عربى وبين التوظيف الأجنبى لباحث غربى،**

● هذا تقصد بهذا السياق ؟

◆ **أقصد أننى أنتمى لثقافة معينة ودائرة حضارية معينة، فأنا لا أبحث فى فراغ محايد**

بل فى إطار سياسى وثقافى أنتمى إليه، فالدراسة العلمية الموضوعية تقع فى دائرة تعطيها معناها وملامحها، أما الدراسة العلمية الصالحة لكل زمان ومكان فلا أعتقد بوجودها .

● لم يقل أحد إن الـدراسة العلمية صـالحة لكل زمان ومكان، أنـا أتحدث فى إطار تفرقة مبدئية بين دراسات علمية مـوضوعية ودراسات علمية دعائية . فى النوع الأول من الدراسات قد نجد قراءة معينة لباحث معين وقـد نختلف معه فيها، هذا أمر وارد كما هو وارد أيضاً بالنسبة للقراءات المحلية لبـاحثين عرب، بعبارة أخرى لست من أنصار الإدانة المطلقة للبحوث الاستشراقية، فكـل باحث له قراءته الخاصة، مثلا أليست هناك قراءات متعددة للحركة الإسلامية المعاصـرة بين الباحثين العرب ؛ الإدانة أمر سهل لكن البحث الموضوعى لكل كتاب أو دراسة يحتاج إلى جـهد يتحلى بروح الإنصاف . وفى اعتقادى أن الدراسات الاستشراقية قدمت للباحثين الوطنيين مناهج للدراسة لم تكن معروفة لديهم من قبل حتى فى دراسـاتهم للإسلام، لأنه قد حدثت قطيـعة فكرية بين تقاليدنا البـحثية القديمة وبين العصر الحديث، وهذا فى الـوقت الذى حدث فيه تقدم نظرى ومنهجى فى العلوم الاجتماعية فى الغرب، نعم المستشرقـون درسوا مجتمعاتنا بمنهجية ونحن تعلمنا هذه المنهجية منهم، قد نختلف مع بعض نتائجهم، لكن هذا الاختلاف معهم لا يختلف عن الاختلافات القائمة بين الباحثين الوطنيين .

◆ أتفق معك فى ضرورة التمـييز بين أعمال علمية وأعمـال دعائية، لكن أشدد على أنه حتى فى فئة الأبحاث العلمية الغربيـة لا يمكن النظر إليها على أنها نابعة من فراغ أو بدون وسط وسياق يعطيها مغزاها، لا أعتـقد أنها دراسات تدور فى فضاء عالمى مطلق، فعندما يدرس مستشرق ظاهرة من ظواهر العالم العربى فى هذا المجال أو ذاك فإنه يفعل ذلك من خلال دائرته الثقافية ومعاييره فى النظر والرؤية، وهى منطقية بالنسبة له لكن قد لا تكون كذلك بالنسبـة لى وقد لا تؤدى إلى فهم حقيقى للظواهر الـمدروسة فى أحيان كثيرة، حتى فى "المناهج العلمية" فأنا لا أرى لها صـفة الشمولية والعالمية كما يتوهم بعض باحثينا خاصة أولئك الذين يحـفظون بعض هذه المناهج عن ظهر قلب وكأنها شئ مقدس ومعيار نهائى لإدراك الظواهر، دون أن تكـون هناك مسافة نقدية بين هذا الباحث

وبين المنـهج الذى يطبقـه، وكأنه منهج عـابر للقـارات يطبق على الريف الفـرنسى أو الإنجليزى أو المـصرى، بنفس القدر من المسـاواة، وكأنه لا توجد ثقافات مـختلفة فى العالم يفترض اختلافها، اختـلاف المناهج ومعايير النظر والحكم على الاشياء، أريد أن أخلص من ذلك أن هناك أبعاداً أيديـولوجية للمنهج وأن الأبحاث العلميـة التى تقصدها تنتمى إلى دائرة ما وليست نابعة من فراغ أو موجهة إلى فراغ .

● أنا أتحفظ هذا الكلام على أساس أن هناك عمومـية فى المنهج وخصوصية، هناك فى المناهج العلميـة ما هو عام وما هو خاص . بالطبع الباحث فى العـالم الثالث ينبغى أن يكون باحثاً نقدياً، ليـست مهمته التطبيق الميكانيـكى الفج لمنهج تبلور فى الخارج، فالمنهج له علاقة بالنظرية وبالتالى لو أخـذت كلامك على إطلاقه فهذا معناه أن المناهج التى تبلورت فى الخارج قد لا تصلح إطلاقاً للتطبيق فى الداخل .

◆ **فقط أقول أن الأبعاد الأيديولوجية للمنهج تجعل من الضرورى وجود مسافة نقدية بين باحثينا الوطنيين وبين هذا المنهج .**

● وجود مسافة نقدية أمر لا غبار عليه ومعترف به، الباحث فى العالم الثالث لابد أن يتسلح بنظرة نقدية حيـال النظرية الغربية السوسيولوجية والسياسـية والاقتصادية، وبالتالى للمناهج. . هذا مؤكد .

◆ **بل أذهب إلى انطباق نفس الأمر على تطبيق القـواعد التقنية والإجرائية للمناهج، فلنأخذ نموذج الإحصاء وجمع البيـانات، هل أتعامل مع الإحصاء بنفس الصورة التى تم التعامل بها فى الغـرب، أنا شخصياً فى بعض الفترات عندما تعـرض أمامى استمارة كى أملأها لم أكن أسجل إجابات حقيقيـة عن الأسئلة المطروحة، وأعتقد أن هذا الأسلوب ليس حالة خاصة بل هو موقف الكثيرين .**

● نعم هناك ابعاد ثقافـية فى طريقة جمع البيانات، لكن قضيـة المنهج أعقد من هذا بكثير، وتغير قـضايا وإشكاليات قد لا يبدو لها إجابات واضـحة ومحددة حتى الآن. لو تحدثنـا على سبيل الـمثال عن المنهـج الماركسى وهو مـنهج نما فى الغـرب هل يمكن

تطبيقه أم لا على مجتمعاتنا العربية، حتى لو أخذت حيطتك النقدية، هذا منهج نما فى إطار سياق معين ورؤية معينة، هل يمكن تطبيقه أم لا فى دراسة المجتمعات العربية المعاصرة ؟

◆ **أحد المفاهيم الأساسية التى تشكل طبيعة هذا المنهج الماركسى فى دراسة المجتمعات هو مفهوم الطبقات.. ولو تكلمنا عن طبقات فى المجتمعات العربية وتكوينها وتباينها أو مرونتها، سنجد أنها ليست بنفس الوضوح والتبلور الذى ميز تشكل الطبقات فى المجتمعات الغربية ... الطبقات غير متبلورة لدينا بالصورة المتعارف عليها والتى نشأ المنهج الماركسى كقراءة لها .**

● لكن هذه الطبقات موجودة أم لا ؟ هل المجتمع مكون من أفراد أم من طبقات أم من فئات ؟

◆ **هذا يرجع لتحديدنا لمفهوم الطبقة أيضاً !!**

● أنا أتحدث عن التعريف الكلاسيكى للطبقة، والطبقات هى الجماعات الكبيرة من الناس التى تتمايز عن بعضها البعض طبقاً لعلاقاتها بأدوات الإنتاج .

◆ **هل تعتقد أنك تستطيع كباحث اجتماعى أن تدرس ظواهر المجتمع العربى انطلاقاً أو اقتصاراً على هذا المفهوم الضيق للطبقات الاجتماعية .**

● بالطبع أستطيع .

◆ **أليست الأبعاد الأيديولوجية والثقافية يمكن أن تساعد بصورة كبيرة فى فهم الظواهر الاجتماعية للمجتمعات العربية ؟**

● ومن الذى قال إن هذه الأبعاد غير متضمنة فى المنهج الماركسى ؟

◆ **لا ليست لها المكانة التى تسمح بفهم دقيق للظواهر الاجتماعية.**

● هذا الكلام غير صحيح، فأين تضع كل الكلام الماركسى عن البناء الفوقى . ما

هو البناء الفوقى ؟ إنه القيم والعادات والتقاليد والقانون السائد والأيديولوجية السائدة . الأبعاد الثقافية موجودة فى المنهج الماركسى .

◆ **ما أريد أن أقوله إن الأبعاد الثقافية والأيديولوجية فى المجتمع العربى لها مساحة أكبر، ولا يمكن النظر إليها على أنها "بناء فوقى" ناشئ عن «بناء تحتى»، لأنها تكتسب فى أحيان كثيرة وزن البناء التحتى ذاته.**

● أعتقد أن المساحة المخصصة للبناء الفوقى موجودة وكافية، لكن هذا يتوقف على قراءة الباحث للمنهج، هناك بعض الباحثين يقيمون نوعاً من الاختزال للمنهج فى دراسة الأبعاد الثقافية، فهذه قضية هذا النفر من الباحثين وليست قضية المنهج ذاته، فالدراسة التكاملية فى إطار المنهج الماركسى تتحدث عن التفاعل الجدلى بين البناء الفوقى والتحتى طبقاً لأصول المنهج . إذاً مسألة المنهج وكونه نما فى سياق معين وله أبعاد أيديولوجية لا تمنع بالضرورة من تطبيقه على هذا المجتمع العربى، فى اعتقادى أن قضية المنهج قضية معقدة، وأنا أخشى لو قبلت ما تطرحه على إطلاقه أن نصل إلى رفض المناهج لأنها نمت فى بيئات أجنبية، ما أريد أن أقوله إن موقف الباحث- وهذا ما قمنا به عملياً وليس نظرياً كباحثين فى «المركز القومى للعلوم الاجتماعية» منذ الخمسينيات- هو القيام ببحوث نقدية للنظرية الغربية السوسيولوجية والسياسية من وجهة نظر علم اجتماع المعرفة، لقد وعينا ذلك، ولى كتابات منذ ١٩٥٧ و ١٩٥٨ عنوانها : الأزمة الراهنة فى علم الاجتماع، منشورة فى كتابى « دراسات فى السلوك الإجرامى»، وناقشت فيها المنهج النقدى، ودرسنا النظرية الغربية فى نشأتها وتطورها وعلاقاتها بالأيديولوجية ولم ننخدع بمقولة «العلم» لأن العلم الاجتماعى مخلوط اختلاطاً شديداً بالأيديولوجية، فمهمة الباحث فى العالم الثالث هى: كيف يميز بين العلمى والأيديولوجى فى النظرية الغربية السوسيولوجية والسياسية والاقتصادية. القضية الثانية كانت بحثنا عن المناهج، هناك مناهج فى دراسة الطبقات الاجتماعية رفضناها، وهناك على سبيل المثال منهج وظيفى يعتبر أن المجتمع يقوم على فئات وليس على طبقات، ولكى تدرس هذه الفئات عليك أن تنزل إلى الميدان لسؤال الأفراد . كيف تضع نفسك

على هذا السلم التدرجى، هل تنتمى إلى الطبقة الوسطى أو العليا أو الدنيا أو العليا العليا . . . فكأنه يعتمد فى تحديد الوضع الطبقى على إقرار ذاتى للأفراد . نحن رفضنا هذا المنهج لأنه منهج غير موضوعى فالمنهج الموضوعى لدراسة الطبقات الاجتماعية ينبغى أن يقوم على دراسة الملكية فى المجتمع . . فى يد من ؟ ومصادر الانتاج فى يد من؟ والثروة القومية فى يد من ؟ ولا يعتمد على الإقرار الذاتى للأفراد، فهذا منهج مدان لأنه غير دقيق . لدينا إذاً مستويان : الأول خاص بالنظرية، والآخر يتعلق بالمنهج، وهذا كله لا يكفى، فالهدف النهائى هو إبداع منهج وصياغة نظرية تتفق مع التاريخ الاجتماعى للمجتمع المصرى والعربى .

◆ **أنا متفق معك فى هذه النقطة الأخيرة لكن اختلافى فى أن الرؤية النقدية من جانبنا للنظرية الغربية ليست موجودة بالصورة التى تحدثت عنها فى الغالب، ما هو موجود لدينا هو نسخ وتكرار ممل بحيث أن الملامح الوطنية والقومية غائبة فى مجال البحث العلمى.**

● أنت تظلم حركة العلوم الاجتماعية فى مصر والعالم العربى .

◆ **إذاً ارفع هذا الظلم وقدم لنا تلك الإنجازات التى خرجنا بها بعيداً عن أنساق العلوم الاجتماعية الغربية .**

● هناك فى مصر المجلة «الاجتماعية القومية» والمجلة «الجنائية» التى أصدرها المركز القومى للبحوث الاجتماعية منذ سنوات طويلة، وهناك كتابات علماء الاجتماع المصريين فى النظرية الاجتماعية، منذ الستينات كانت هناك مناقشة حول هذا الموضوع على صفحات مجلة "الطليعة" حول الأيديولوجية والعلم فى النظرية الاجتماعية وحول التزام الباحث الاجتماعى.

● ثمة وعى لدى علماء الاجتماع المصريين بأهمية النظرة النقدية للنظرية الغربية وبأهمية التطبيق النقدى للمناهج، ونحن مازلنا على عتبات المرحلة الثالثة التى أسميها مرحلة الإبداع فى مجال النظرية ومجال المنهج، ولم نخط بعد خطوات حاسمة فى هذا

الطريق . . . أنمـا من اللافت للنـظر أنك تجد الآن فى العـالم العربـى حركة نمـو علم اجتماع عربى مـا زالت غامضة الملامح، لكنها تشير وتـوحى بأنها بدايات الانطلاق نحو المرحلـة الثالثة، هناك إحـساس أننا فى حاجـة الآن لان نصوغ نظريتنـا السوسيولوجـية الخاصة التى تـتفق مع تاريخنا الاجتماعى . هـناك وعى بذلك لدى الطليعة المثـقفة من علماء الاجتماع العرب بأننا فى حاجة إلى الدخول فى المرحلة الثالثة .

◆ **كيف تفسر أن الاستشراق قد احتل مساحة أكبر من الاستغراب ؟**

● لأن حركة الاسـتشراق صاحبت حـركة المد الاستعـمارى فى العالم العـربى وكما يقولون فى مجال الانتربولوجيا، كان العلم يسبق العلم، قبل الغزو الاستعمارى كان هناك ارسال الرحالة الانثـربولوجيا والعلماء لدراسة المجـتمعات الآسيوية والأفريـقية الغازية، فعلم الانثـربولوجيا كما هو مـعروف قد نشأ نشأة اسـتعمارية، وكان أغلب مـشاهير هذا العلم يعـملون فى أجهزة الاسـتخبارات الـغربية، ثم تحـرر العلم بعد ذلك بحـكم المد الاستـعمارى، فقـد كانوا فى حاجـة إلى فهم هذه المجـتمعات، مـثلاً عندما احـتاجت الولايات المتـحدة الأمريكية بعـد احتلال اليابان إلى أن تفـهم المجتمع الـيابانى لأحكام سيطرتهـا عليه بعد الحرب العالـمية الثانية، كلفت بـعثة انتروبولوجيـة بإعداد دراسة عن الشخـصية القومـية اليابانيـة وكانت مكلفة مـن قبل الحكومة الأمـريكية، كثـير من هذه الدراسات تم فى إطار حركـة المد الاستعمارى وحـاجة هذه النظم إلى فهم المجـتمعات التى سيدخلون إليـها، كل من شارك فى هذه الدراسات قد شارك فـى هذا الإطار، فبعد الأصول الاستعمارية للاستشراق فإنه استمـر كتقليد بحثى ولم يقتصر مع ذلك على تلك الأصول الإستعمارية.

● فى هذا الإطار، أكرر: هناك مجال للتمييز بين دراسات موضوعية علمية ودراسات دعائية ومن الصـعب إدانة كل الدراسات الاستشراقـية، لأن القراءات تتعدد حتـى بالنسبة للباحثين الوطنيين، وبالتالى لا أستطيع أن أدين مستشرقاً قرأ الإسلام قراءة خاصة باعتباره مستـشرقاً لأننى قد أجد باحـثاً وطنياً قد يصل إلى نفـس القراءة وقد اجد قراءة ماركـسية للإسلام ما هو المانع ؟ وقد يصل المستشرق والباحث الوطنى إلى نفس النتائج .

◆ **كأنك تقول: فى العلم لا توجد اختلافات بين الثقافات ؟**

● لا أقصد ذلك، أنت تدفع حديثنا إلى تعميمات قد لا أوافق عليها . أقول: احتمال كبير إذا طبق باحثان أحدهما أجنبى والآخر وطنى نفس المنهج أن يصلا إلى نفس النتيجة سواء كان منهجاً ماركسياً أو منهجاً وظيفياً . يمكن لباحث أمريكى أن يطبق المنهج الوظيفى فى دراسة المجتمع المصرى ويدعى أن المجتمع بلا طبقات بل فئات . وهناك باحث وطنى قد يطبق نفس المنهج ويصل إلى النتيجة ذاتها، هذا مقصدى، لا أقصد أن هناك مناهج عابرة للقارات أو الثقافات فقد تحدثنا عن حدود النظرة وحدود المنهج... الخ . أعود وأقول إننا فى النقد الايديولوجى للاستشراق ننسى الإسهامات الإيجابية لبعض الدراسات الاستشراقية فى تطبيق مناهج معينة استفاد منها الباحثون الوطنيون فى دراسة مجتمعاتنا، كما أننى أرفض مقولة الغرب كغرب، فهذه مقولة غير علمية، وأرفض مقولة الشرق كشرق، إنها صياغة للكلمة، هناك فى الغرب تيارات مختلفة ورؤى أيديولوجية مختلفة ورؤى محافظة ورؤى ليبرالية ورؤى راديكالية، إذاً هناك ثلاث رؤى أساسية، فأى رؤى تتحدث عنها؟ هل تتحدث عن الغرب المحافظ أم الغرب الليبرالى أم الغرب الراديكالى، قد نجد أنفسنا أقرب إلى الغرب الراديكالى؟ أو الغرب الليبرالى من المحافظ فى فرنسا، مثلاً، هناك ريمون أرون هناك رودنسون، هناك بورديو من يقول أن هؤلاء جميعاً تستوى أفكارهم العلمية، حتى أدرس إذاً علم الاجتماع الفرنسى، على أن أدرس الأصول الأيديولوجية لجورفيتش . ما هى الفروق بينه وبين ريمون ارون وبورديو وآلان تورين وآخرين ... لابد من معرفة الأصول الأيديولوجية لكل عالم منهم، ما أقصده بكلامى هذا هو عدم الوقوع فى التعميم .

◆ **أتفق معك أن علينا أن نميز بين مذاهب وتيارات الغرب كما ذكرت، لكن يبقى أن الأسماء التى ذكرتها تدور إسهاماتها فى نطاق دائرة ثقافية محددة، هناك دوائر ثقافية ينتمى إليها الباحث والفكر والبحث العلمى، بالتالى فلا توجد أبحاث علمية فى فراغ خاصة فى مجال العلوم الإنسانية، نعم هناك غرب محافظ وغرب ليبرالى وغرب راديكالى لكن بينهم جميعاً شىء مشترك ويخضعون لمصدر غربى واحد موحد ...**

ويظهر ذلك فى أمور كثيرة يمكن الإشارة إليها .

● آسف جداً التيار الراديكالى الغربى مناصر للعالم الثالث . هذا تقويم خاطئ، هناك فروق بين هذه الاتجاهات والتيارات . . أبرز ما تعلمناه عن العالم الثالث تعلمنا من هذا التيار الراديكالى الغربى، تحليلاتنا عن أسباب التخلف، طبيعة التخلف، التبعية، تعلمناها من هذا التيار فى أمريكا وأوروبا . . أليس كذلك ؟

◆ **أنا أتحدث عن ظواهر عامة وليس عن إسهامات بعض المفكرين أو الكتاب ؟**

● مع إيمانى بأن العلم يدور فى دائرة ثقافية، لكن ما هى نتيجة ذلك ؟ أنت حريص على هذه الصياغة لكن ماهى النتيجة التى تريد استخلاصها من هذه الصياغة ؟

◆ **ما أريد أن أخلص إليه هو الإشارة أولاً إلى أننى أشعر كثقافة وكمجتمع تغيب ملامحه تحت تأثير العلاقة مع الغرب، هناك حالة من الاختلاط بينى وبين الغرب، نتج عنها ضعف وهزال فى شخصيتنا وقدرتنا على التطور والإبداع . فلكى أكون شخصاً مبدعاً، ومجتمعاً مبدعاً، وثقافة مبدعة، فإنه علىّ أن أعرف ذاتى وأحدد هويتى أولاً .**

● قلنا هذا الكلام من قبل .

◆ **لم يطرح بعد هذا الموقف بصورة جذرية، نحن الآن لا نعرف فى ظل هذه العلاقة المريضة مع الغرب أين رأسنا من أقدامنا ! ما هو منا وما هو من خارجنا .**

● تتذكر ما قلته من دقائق عن أهمية أن نبنى نحن نظرية نقدية إزاء النظرية الغربية كلحظة أولى .

◆ **من نحن؟**

● نحن الباحثين الاجتماعيين فى العالم العربى .

◆ **ماذا تعنى بكلمة العربى ؟**

● من يعيشون فى العالم العربى هم عرب بالثقافة والانتماء والتاريخ .

◆ **وهل تعتقد أن العرب الذين يعيشون فى الأرض العربية هم منتمون فعلاً إلى الثقافة والتاريخ العربيين ؟**

● هذه قضية ثانيـة، أنت تدفع إلى متاهات، قلنا فى البداية إن هنـاك أهمية فى تبنى نظرة نقدية للنظرية الـغربية كلحظة أولى ثم فى لحظة ثانية هى تـكييف هذه المناهج مع الواقع وقلت نحن على أعـتاب المرحلة الثالثة من إبداع نظـرية ومنهج وهذا فى حد ذاته يضع المـسافات بينـنا وبين الغرب . أنت حـريص على وجود مـسافة توضـع من خلال المنهج النقدى، تقول إن التيارات الثلاثة تتم فـى دائرة ثقافية معينة واحدة، لكن لم تقل ما هى النتيجة التى تريد استخلاصها من ذلك ؟

◆ **أريد استخلاص أننى فى دائرة ثقافية أخرى.**

● لكن هذا معترف به .

◆ **لا، غير معترف به .**

● إذاً ما هو معنى المـنهج النقدى الذى أتحدث عنه منذ بداية هذا الـحوار، ثم غير معترف بها من قبل مَنْ ؟

◆ **من قبلنا نحن ! من قبل تلك الـطائفة من الباحثين الذين أسميتهـم «المستشرقون العرب» .**

● أختلف معك، منذ الخمسينيات ونحن على وعى بهذه المسافة النقدية .

◆ **لكنك عندما ترفض مـنطق وجود غرب وشرق فإنك تناقض ما قـلته فى الحديث عن مسافة نقدية ونظرة نقدية للنظرية الغربية .**

● أنا أرفض شيئاً معـيناً هو التعميم عن الغرب كغرب، لابـد أن نميز فى الغرب بين تيارات ثلاثة، هناك غرب متعدد ليبـرالى، محافظ، راديكالى، هذا الاختلاف جوهرى عن منطق الذين يقـولون بشرق وغرب . . . أنا أمـيز بين تيارات الغـرب، وجمهرة الباحـثين لدينا هم أقرب إلى التيار الراديكالى وقد نتبنى مقـولاته ومناهجه فى دراسة مجتمعنا، ما

هو العيب فى هذا؟!

◆ **العيب فى هذا أننى لا أنطلق من مناهجى الخاصة مع تطويرها .**

● عندما تقول إننا ليس لدينا وعى بهذا، فأنا أرفض هذا الكلام وأختلف معك، فالجماعة العلمية فى مصر والعالم العربى لديها هذا الوعى النقدى منذ نهاية الخمسينيات وهو مسجل فى أبحاث ودراسات.

◆ **ولماذا لم ينشر ويثمر ما هو مسجل منذ الخمسينيات؟**

● انتشر فعلاً، فى الستينيات نجحنا فى إثارة مناقشة واسعة على صفحات «الطليعة» وكان هناك إجماع حول ذلك وهذا أدى إلى ما تراه الآن من حملة نحو علم اجتماع عربى .

◆ **بالطبع، المرء لا يستطيع أن يتغافل عن إنجازات من سبقونا، بدءاً من الخمسينيات، لكن ما هو مطروح اليوم من دعوة نحو علم اجتماع عربى ليست نتيجة الجهود التى بذلت فى الخمسينيات والستينيات، بل نتيجة فشل هذه الجهود. فالناس بدأت تكتشف أنها عاشت فترة دعاية غير عادية ومن ثم يبحثون عن أراض جديدة، فالدعوة مؤخراً إلى علم اجتماع عربى نشأت من إحساس بعقم التكرار والترديد الأجوف لما يقال فى الغرب باستمرار، فاذا كان هناك وعى نقدى فعال ومؤثر إزاء النظرية الغربية منذ الخمسينيات - كما تقول - لما كانت أوضاعنا على ما هى عليه الآن فى مراكز البحث العلمى والاكاديمى، فهل تذكر لى إنجازات حقيقية أصبحت مراجع يشار إليها من الغرب أو الشرق.**

● أنت تتحدث عن التنظير فى العلم، وهل استطعنا أن نبدع نظريات لها صفة الشمول والعالمية بحيث يتبناها الآخرون، الطرح غير صحيح، لأن العلم الاجتماعى الفرنسى مثلاً هو نتاج تطور تاريخى طويل، وبالتالى كان هناك مجال لبروز مثل هذه النظريات . أما فى العالم العربى فإن علم الاجتماع معناه الحديث داخل جامعة القاهرة فى الثلاثينيات، قصر المدة لا يسمح بصياغة نظرية عامة عالمية، وهذ المسألة نتاج لتطور تاريخى طويل وتشابك المنابع والأصول الفلسفية، وحتى فى البلد الواحد ذاته فإن

المنظّرين قلة، وأغلب الباحثين أتباع فكر شخصى فى فرنسا مثل جورج جورفيتش أو ريمون أرون أو بورديو . . .

● عملية الإبداع فى مجال النظرية محدودة حتى فى أكبر البلاد تقدماً، بالنسبة لنا هنا لم نصل بعد إلى المرحلة الثالثة وهى أبداع نظريتنا الخاصة ومنهج خاص يعبر عن الواقع العربى، ولو نجحنا فى إنجازها قد تصبح نموذجاً لدراسة مجتمعات مماثلة .

◆ **فلنتاقش اذاً ما هو تصورك لشروط الإبداع فى المرحلة الثالثة ؟**

● أولاً، الدراسة النقدية الشاملة للنظرية الغربية السوسيولوجية والسياسية والاقتصادية ووعى دقيق بتيارات الغرب الرئيسية .

● ثانياً، المعرفة الدقيقة بالتاريخ الاجتماعى المصرى والعربى وأى نظرية سوسيولوجية لا تضع التاريخ الاجتماعى العربى فى حسبانها محكوم عليها بالفشل.

● ثالثاً، إن النظرية لن تنشأ إلا من خلال جهد جماعى واعٍ ولحسن الحظ تكونت الجمعية العربية لعلم الاجتماع العربى وتناقش مثل هذه الموضوعات وهذه بدايات صياغة نظرية عربية .

الحبيب الجنحاني

قضايانا أولاً والاستغراب ثانيا

في وقت واحد تقريباً عقدت ندوات في ثلاث عواصم عربية ، وكان موضوع الندوات الثلاثة هو التاريخ العربي وضرورة إعادة كتابته من جديد وفق أسس جديدة ، ندوة القاهرة كانت عن كتابة التاريخ بين الالتزام والموضوعية ، والثانية في ليبيا عن رؤية قومية في كتابة التاريخ العربي ، بينما عقدت الثالثة في بغداد أواخر كانون الأول (ديسمبر) الماضي . . لماذا هذا الإلحاح اليوم على قضايا كتابة التاريخ العربي ؟ وما هي أهداف ذلك ، وكيف يمكن إعادة كتابة التاريخ العربي من جديد ؟ وما هي المناهج التي تسمح أكثر من غيرها بقراءة علمية موضوعية لهذا التاريخ ؟ وإلى أي أفق تسير هذه "الصحوة" بين المؤرخين العرب والمهتمين بحقل الدراسات التاريخية في الوطن العربي . . . عن هذه التساؤلات ، وغيرها كان حوارنا مع المؤرخ التونسي الحبيب الجنحاني في نطاق مجموعة الحوارات التي أجريناها مع بعض المفكرين العرب حول علاقتنا وموقفنا من الثقافة الغربية ومناهجها . والحبيب الجنحاني أستاذ للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع العربي الإسلامي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تونس .

صدر له التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في بلاد المغرب (١٩٨٦) ودراسات مغربية (١٩٨٧) ، قضايا الفكر (١٩٧٦) ، وله عدد آخر من الكتب والدراسات المتصلة بالفكر المعاصر وإشكالياته .عضو في مجموعة من المنظمات العربية والدولية ، منها منتدى الفكر العربي (مقره عمان) وعضو مؤسس في اتحاد المؤرخين العرب .ويساهم بأبحاثه ومقالاته في عدد من المجلات العربية مثل : شؤون عربية ، المستقبل العربي . . .

◆ شاركت في الفترة السابقة في ندوة عقدت بليبيا تحت شعار : نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي . وكما تعلم ، عقدت ندوة أخرى في القاهرة وثالثة في بغداد عن إعادة كتابة التاريخ العربي ، كيف تفسر هذه الظاهرة وهذا الإلحاح على إعادة كتابة تاريخنا العربي . وفي مواجهة مَنْ ترتفع هذه الدعوة ؟!

● أريد أن أميز فى مسألة كتابة التاريخ العربى بين اهتمام يتعلق بالتاريخ القطرى وقضايا التاريخ القطرى ، مثل تاريخ مصر ، وبين الاهتمام بهذه القضية من أبعادها القومية ، وفى حالة الاهتمام بالتاريخ القطرى والتاريخ القومى أقول إننا امام قضية تفرض نفسها فى هذه الأيام . وفى الحقيقة هذا الاهتمام ليس خاصاً بنا فقط كعرب بل نجد فى تاريخ القوميات الكبرى أنها كانت تعيش وضعاً متأزماً مثلما يعيش العالم العربى ، وكانت ، فى مواجهة التحديات ، تريد أن تطرح مشروعاً حضارياً بديلاً فكانت تستنجد بالتاريخ . حدث هذا أيام بروز الوحدة فى ألمانيا ، حدث أيام الوحدة فى إيطاليا ، وفى فرنسا أثناء حركة التحرر من النازيين، وهكذا فإن الاهتمام بالتاريخ ينشأ فى مواجهة الأزمات والتحديات .

◆ **لكن ألا تعتقد أن الأزمات والتحديات التى تواجهها الأمة العربية ليست وليدة عامين أو ثلاثة ، وإنما تقود إلى ما قبل ذلك بسنوات عديدة ، وبالتالى يظل التساؤل قائماً : لماذا هذا الاهتمام الجديد بكتابة التاريخ العربى ومراجعته ؟ وفى مواجهة مَنْ تتم هذه المراجعة ؟**

● أعتقد أن هذا الاهتمام بكتابة التاريخ يعود أيضاً إلى إدراك أنه وقع اهمال للقضايا الحضارية بما فيها قضايا التاريخ ، وقد أدرك البعض أن الفكر السياسى السائد هو فكر ملئ بالشعارات ، وليس هو الفكر التحليلى النقدى ، وتبين للكثيرين أن هذا النوع من الفكر الشعاراتى لم يؤد خدمة كبيرة إلى الأمة العربية . من هنا برزت الحاجة إلى تعميق التفكير والمعرفة بالقضايا العربية . كما تبين تاريخ الفترة العربية المعاصرة فى كل قطر ، أو تاريخ الوطن العربى ككل ، كانت كلها محاولات جزئية وشكل من السطحية فى كثير من الأحيان . وهو ما كان له انعكاسات سلبية على التعرف الحقيقى للوطن العربى وتاريخه ، ليس فقط فى العصر الوسيط أو الحديث ، بل فى الفترة المعاصرة أيضاً ، وظهر ذلك بصفة خاصة مع بروز ظاهرة المذكرات السياسية التى طبعت فى الأعوام الماضية ، وهى مذكرات تضمنت أشياء إيجابية وأتت بمعلومات جديدة ، لكن ظلت

الأبحاث التاريخية متخلفة عن القضايا المعاصرة ، وعودة إلى ما سبق أقول : إن هذا الاهتمام بقضايا كتابة التاريخ هى للاستنجادية من جهة ، ومن أجل المعرفة التاريخية ، وهى ضرورية . من جهة ثانية ، ومن جهة ثالثة نظراً لازدياد تحديات التجزئة والتفتيت وهى تحديات ظهرت ، بصفة خاصة ، بعد محاولة أخراج مصر من الصف العربى وتوقيع كامب ديفيد واستمرار هذا المسلسل فى اجتياح بيروت. . . ومن هنا ظهر هذا الوعى بعوامل التوحيد والوحدة ، وأبرز عوامل هذا التوحيد هو التاريخ .

◆ **من هنا جاءت الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ العربى ؟!**

● نعم لأن كتابة التاريخ العربى فى شكلها القديم لم تكن مفيدة فى هذا الاتجاه ، أى توحيد الأمة العربية والتوجه بها نحو المستقبل ، بل كانت أحياناً معيقة لهذا الهدف فإذا راجعنا الكتب المدرسية فى المدارس الإبتدائية والإعدادية والثانوية فى معظم الأقطار العربية ، سنجد أن التاريخ المدون فيها هو تاريخ قطرى ضيق ولا يخدم بالتالى التوجه الوحدوى العربى ، وإلى جانب ذلك هناك عشرات بل مئات الكتب التى كتبت عن الوطن العربى وتاريخه فى دول أوروبا وأمريكا الشمالية ، وهى جهود مشكورة ، لكنها كتبت من وجهة نظر غير عربية وبعضها ملىء بالتشويهات لخصائص الهوية الحضارية العربية . وبرزت أيضاً ضرورة كتابة التاريخ العربى من جديد لمواجهة هذه الكتابات التى تكتب من خارج الوطن العربى ، والتى بعضها علمى وموضوعى ، لكن أغلبها ملىء بالأحكام المسبقة عن القضايا مجموعة من المؤرخين العرب الملتزمين بقضايا الوطن العربى بهذه القضية لكنهم فى حقيقة الأمر مازالوا عند مستوى طرح هذه الاشكالية فى اعادة كتابة التاريخ العربى - مع تقدير الجهود السابقة فليس كلها خطأ - بنظرة شمولية وجذرية وليس نظرة جزئية قطرية .

◆ **ألا تعتقد ، مرة أخرى ، أن عوامل التجزئة والتفتيت فى العالم العربى من جهة ، والكتابات الغربية «المغرضة» عن تاريخنا من جهة أخرى ، تعود زمنياً إلى فترات أسبق من الفترة الراهنة التى تشهد صحوة فى العودة الى التاريخ العربى . وبالتالى ألا يكون**

عامل تصحيح الوعى الحضارى العربى ، فى مـجال التاريخ وعلم الاجتماع وغيره ، من العوامل الأكثر مصداقية فى تفسير هذه الظاهرة ؟!

● نعم ، لا خلاف بشأن مسألة تصحيح الوعى ، لكن رغم ذلك فإن عوامل التجزئة قد أخذت منذ نهاية السبعينيات منعـرجاً خطيراً ، وبدأ تنفيذها فى الوطن العربى بأشكال مختلفة ، بل وأصبحت السيادة الوطنيـة مهددة فى لبنان وغير لبنان، وأصبح هناك شعور بأنه لابد مـن مواجـهة هذا الخـطر فى مجـالات مخـتلفـة ، وأن الاسلوب القـديم فى المواجهة ، أى أسلوب الأيـديولوجيات ، لم يعد مفيداً ، وأنه لابد مـن تفكير حضارى عميق لمعرفـة أسباب الواقع المتردى ، وهذا التفكير الحضارى المـعرفى يطرح نفسه فى قضية أخرى هى قضية الحداثة ، فهذا الشعار الذى رفعته الدولة القطرية بعد مرور ثلاثين سنة يعاد الـتساؤل حوله من جـديد ، فهذا الشعـار الذى تبنته الدولة القطريـة فى معظم أنحاء الوطن العـربى عندما أعلنت أنها تريـد أن تلحق بركب الحضارة والمـدنية ودفعت ثمناً باهظاً لـهذه الحداثة فى مشـروعاتها التنمـوية ، لكننا نكتـشف بعد ذلك أن التبـعية ازدادت ، وأن التخلف ازداد ، وبالتالى بدأ بعض المفكرين العرب يطرحون من جديد : ما هى الحداثة التى تريد أن نحققها .

◆ **حتى لا ينقلب هذا الاهتمام الجديد إلى "موضة ثقافية" سرعان ما تتبخر ألا تعتقد أنك كمـؤرخ مطالب بالتأريخ لهـذا الاهتمام الجديـد الذى بدأ يظهر تدريجيـاً ؟ وكيف ظهرت ملامح هذا الوعى الحضارى العربى اليوم ؟**

● فى الحقيقـة ، هذه الحالة الثقافية عـمرها قصير ، وربما تمـتد من حيث الزمن، إلى مـا بعد هزيمـة حزيران ١٩٦٧ ، وانـطلاقاً من هذا الـتاريخ بدأت بعـض الأصوات العربية تعلن أن المعركة مع العدو الصهيونى الإمبريالى هى معركة حضارية وأننا مطالبون ، فى ضوء هذه الدعوة ، بمراجـعة شاملة فى نظمنا التربوية لأنها نظم ملـيئة بالعيوب ، ولا يمكن أن تـخلق أجيـالا جديدة قـادرة ، وفى المـجال التـاريخى ضرورة الـنظر إلى التاريخ كعامل توحيد ، وفى المجال الفكرى إعادة تصحيح الوعى . والوعى بالكثير من

القضايا وطرحها بشكل جديد ونقدى ، وفى المجال السياسى لا بديل عن الوحدة العربية ، وأنها لابد أن تبنى عـلى أسس جديدة ، لأن الأسس القديمة آلـت إلى الفشل ، وكل هذه فصول من ملامح الوعى الحضارى والمعركة الحضارية . . .

◆ **فى نطاق المعركة الحـضارية التى اكتشف فيها العرب ضـرورة إعادة كتابة التاريخ وبلورة مدرسة تاريخية عربية ، بالنسبة لعـلماء الاجتماع العرب . . .تبرز مسألة المناهج المستخدمة فى هذه الحقول المعرفية بصـورة رئيسية فهل تعتقد أنه يمكن خوض المعركة الحضارية وبـلورة مدرسة عربية فى مـجال العلوم الإنسانية ، ونحن لا نزال نـتعامل مع قضية المـناهج ، فى مجالات علمية حيـادية لا تتأثر باختلاف الحضـارات والثقافات ، فأنت ، على سـبيل المثال - تـقول فى بحثك المقـدم فى ندوة ليبيـا : «أين الأساليب العربية المتبعة اليوم من المدرسة التاريخـية الألمانية الجديدة ؟ أين الأساليب المتبعة فى الحقل التاريخـى فى الوطن العربى تدريساً وتأليفـاً من التيارات المنهجية الـعالمية . . . وأين المناهج العربية المتبعة اليوم من المدارس التـاريخية الفرنسية التى تزعمتها وما تزال مجلة الحوليات ؟!» . ولا أعرف هنا إذا كنت تطالب بإبداع مناهج عربية أم أنك تطالب بأن تقتفى أثر هذه المدارس التاريخية التى أشرت إليها ؟!**

● نعم ، طـرحت هذه التـسـاؤلات بصيـغـة أين ؟ لأننا مـا زلنا فـى مرحـلة طرح الاشكاليات ، نحن لم ننجح بعد فى الوطن العـربى فى أن نبلور وأن تبرز معالم مدرسة تاريخية عربية ، أى مدرسة لها منهجـها وأسلوبها ، هذا لم نصل إليه بعد. بالطبع لدينا كتابات تاريخية هامـة ولدينا مؤرخون عرب يستعملون مناهج مخـتلفة- وهى معروفة فى الشرق أو الغرب - فهناك من يـتبع أساليب ومنهج المدرسة التاريخيـة الفرنسية ، وهناك من يتبع أسـاليب ومنهج المدرسة التـاريخية الفرنسـية ، وهناك من يتبع منهـج المدرسة التاريـخية الوضـعية . . . ونحـن لا نملك أن نتحـدث عن مدرسة تاريـخية عـربية ذات خصائص ومميزات واضحة اليوم .

◆ **من حيث أننا لا نملك منهجاً فى الرؤية . . .**

● نعم ، أنا شخصياً تقلقنى هذه القضية وحاولت منذ سنوات أن أقدم نماذج علمية لما يمكن أن تكون عليه هذه المدرسة التاريخية العربية وخاصة فى دراستى لتاريخ المجتمع العربى الإسلامى فى العصر الوسيط ، وبدلا من أن أقول إن هذه المدرسة ينبغى أن تتميز بكذا وكذا ،حاولت ذلك عمليا من خلال تقديم نماذج حية لما يمكن أن تكون عليه المدرسة العربية التاريخية ، لكن لا تزال هذه المدرسة فى حاجة إلى أن تبلور منهجها فى الرؤية وهذا المنهج لم يتبلور بعد .

◆ **هل يمكن أن تقدم أسباباً تفسر هذا التأخر ؟**

● لأن الحقل التاريخى فى العالم العربى يعانى مما تعانيه بقية الحقول المعرفية الأخرى ، نحن لا نزال نعانى من مشاكل تخلف ، لن يتصور أحد إمكانية خروج مدرسة عربية تاريخية عملاقة ومميزة فى ظل نظام تربوى مهلهل وضعيف ، يؤلمنى أن أقول هذا ، لكن ما أقوله يعكس حقيقة ما يجرى فى مدارسنا وجامعاتنا . فطريقة تدريس التاريخ فى معظم جامعاتنا لا يمكن أن تبشر بمدرسة تاريخية عربية تقف جنباً إلى جنب مع المدارس التاريخية العالمية فلا زالت سائدة أساليب السرد التاريخى وذكر الأحداث التاريخية . .

◆ **ينبغى القول أيضاً إن هناك تقليداً لمدارس تاريخية غربية منها الماركسية ومدرسة الحوليات الفرنسية ، وليس فقط ما ذكرته من أساليب السرد التاريخى التقليدى . .**

● عفواً . . لكن حتى هذا التقليد لا يتم بصورة صحيحة أيضاً . . . فياليتنا اتبعنا مدرسة الحوليات كمرحلة أولى ، لكن أقول للأسف حتى مرحلة التقليد لم ننجح فيها أيضاً . بالطبع هناك مجموعة من المؤرخين الكبار الذين نعتز بأعمالهم، لكن ماذا يستطيع أن يفعل بعض الأفراد فى مناخ جامعى ملىء بالعلل والعيوب، فكيف لأستاذ جامعى أن يخلق روحاً نقدية بين صفوف الطلاب ، ونحن نعلم أن المحاضرة يحضرها أكثر من ألفى طالب على سبيل المثال ، إنها محاضرة عامة وليست محاضرة جماعية فى هذه الحالة . . . هذه الأوضاع لا يمكن أن تسمح بوجود مدرسة تاريخية عربية ، وذلك

يحدث فى ميادين أخرى بطبيعة الحال ، وبالتالى أرى أننا فى المرحلة الراهنة علينا أن نعمل بتواضع وان نضع اللمسات الاولى لبروز مدرسة تاريخية عربية ولا بد أن نستفيد من المناهج العالمية خاصة أن هذه المناهج قد حققت ثورة عملاقة فى الغرب منذ الحرب العالمية الأولى وحتى اليوم ، فالهوة تزداد عمقاً بيننا وبين التقدم الذى تشهده هذه العلوم ومناهجها التى هى كسب للبشرية جمعاء ، ولا ينبغى تحت شعار إبراز مدرسة عربية تاريخية أن نتجاهل هذه المدارس ومناهجها .

◆ **والعكس صحيح أيضاً ، أى أنه لا ينبغى تحت شعار الاستفادة من تقدم المدارس والمناهج الغربية أن نتجاهل الأسس والمقومات التى يمكن أن تُبنى عليها المدارس العربية فى التاريخ والاجتماع والفلسفة . . .**

● هنا ينبغى تحقيق ما أسميه بالمعادلة الصعبة . ليس معنى هذا أن نتقوقع على أنفسنا بل نستفيد من هذه المناهج - سواء الماركسية ، الوضعية ، الحوليات - لأن هذه المدارس تتضمن جوانب شمولية كونية ولها خصوصيات أيضاً تتعلق بالمناخ والظروف التى نشأت فيها .

◆ **هل نحن فى تعاملنا مع هذه المناهج نميز بين ما هو عام وما هو خاص بها فى اعتقادك ؟**

● لابد أن نميز بين العام والخاص فى ممارساتنا "العلمية"

◆ **أنا أتساءل عما يحدث فعلا فى ممارساتنا «العلمية» ؟!**

● ما يحدث هو أننا لا نراعى هذه التفرقة بين ما هو عام وما هو خاص فى هذه المناهج ، يمكن أن نستفيد مثلا من التقدم الحاصل فى منهجية قراءة النصوص.

◆ **ما يحدث فى تصورى أننا كثيراً ما نتحدث عن شمولية المنهج فى الوقت الذى يتجاهل فيه المؤرخ العربى ، أو عالم الاجتماع ، أو المفكر الرؤية الخاصة التى تجسدها الثقافة التى ينتمى إليها مؤرخونا .**

● هنا المشكلة والصعوبة ، سأعطيك مثالاً نموذجياً ، هناك مدرسة تاريخية تعد حديثة جداً فى ألمانيا فى كلية التاريخ بالجامعة الجديدة فى مدينة "بيلفلد" وقد تحدثت مع ممثليها أثناء مؤتمر للتاريخ العالمى فى العام الماضى ، وكل رواد هذه المدرسة التى تحمل مشعل الريادة الآن من أبناء مدرسة "الحوليات" الفرنسية ، وطوروا بعض نقاطها الرئيسية ، أضرب هذا المثل لأقول إن هذا ممكن فى الثقافة العربية أيضاً، بمعنى يمكن أن تستفيد من المناهج الغربية وأن نحافظ فى الوقت نفسه على خصوصيات المدرسة التاريخية العربية .

◆ عندما تقوم بمهمة التأريخ للفكر العربى الحديث والمعاصر . . أى المناهج ترى أنها أصلح فى حل ألغاز هذه المعادلة الصعبة ؟!

● اتفقنا على أننا لا نملك مدرسة تاريخية عربية ، والحال هذه ، كيف ندرس تاريخ الأفكار العربية خلال نصف القرن الماضى ، وما أقوم به هو أننى أعود أولاً إلى جميع النصوص الأصلية المتعلقة بهذه الأفكار وليس ما كتب عنها من ملخصات سواء من قبل عرب أو أجانب ، وذلك حتى أتخلص من أى تأثير قد لا يساعد فى فهم حقيقة هذه الأفكار ، فأنا أريد أن أعرف هذه الأفكار مباشرة وبنفسى وبدون وسائط ثم أدرسها بعد ذلك من منظور شمولى وليس جزئى ، مثلا حدث الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ لا أدرس هذا الحدث فى علاقة مصر وسوريا فقط ، بل أدرسه فى محيطه العربى وفى أصدائه فى عواصم عربية أخرى ، وبالتالى أعطى للأفكار طابعها الشمولى والوحدوى ، وفى المرحلة الثالثة أقرا كل ما كتب عن هذه الأفكار فى تلك الفترة التى أدرسها لأرى إذا كان ما كتب قد تأثر برؤية ما أو نزعة ما ، وبالتالى أستطيع أن أكون لى موقفاً مستقلا وأستطيع أن أنتقد الرؤى الأخرى التى أرخت لهذه الأفكار أيضاً فى نفس الفترة ، لكن طالما أننا لا نملك بعد منهجية واضحة ، تظل القضية اجتهادات شخصية . . فمؤرخ آخر قد لا يسلك هذا السبيل ، وإنما يسلك السبيل السهل ، يقول ما كتب عن هذه الأفكار هو كذا ، وربما لا يدرك أفكاراً أخرى ، نحن الآن فى هذا الوضع المؤلم فى

كتابة التاريخ فى الوطن العـربى . مثال آخر من المدرسة الماركسية التـى نحترمها ونقدر جهودها ، لكن عندمـا نطبق بعض مفاهيمهـا على العالم العربى نجد عدم مـواءمة بينها وبين الموضوعات التى تعبـر عنها . فمؤرخو المدرسة الماركسيـة يطبقون مفاهيم برزت وتطورت فى مناخ حضارى وواقع اقتصادى واجتماعى معين ، ويريدون تطبيقه على واقع اجتماعى عربى يختلف عنه تماماً . هذا ما يحدث ، نحن نريد أن نتجاوز هذه المرحلة .

◆ **وما الذى يحول دون ذلك ؟**

● حاولت فى دراسة سابقة وضع أسس منهج مدرسة تاريخية عربية ، تبدأ بنقد دقيق للوضع الـمعرفى فـى الحقل التـاريخى العـربى الحالى . مـا هو هذا الوضع ؟ مـا هى المدارس المؤثرة فيه . . فأغلب المؤرخيـن الآخرين لا يشعرون بهذه المشكلة . يقولون : لماذا خلق مدرسة تاريخية عربية ، يـكفى ما نستخدمه من مناهج ومن دون إدراك فهم لعملية الوعى وإعادة تصحيح الوعى .

◆ **ربما لأن هذا الأمر يكشف عن الاغتراب الذى يعيشون فيه .**

فى الحقيقة ، الذين يدركون أهميـة هذه المحاولة هم قلة بين المؤرخين العرب، لكنها قلة رائدة .

◆ **نحن نسمع هذه الأيام عن مـدرسة عربية فى علم الاجتمـاع ، وأنت تتحدث عن مدرسـة تاريخيـة عربيـة لكنى أخشى أن يـصير الحـديث عن مدارس عـربية نوعـاً من "الموضة" ومن دون أن يقدم أحد إضافات جديدة وحقيقية .**

● نعم هناك خطر أن يحدث مثل هذا الأمـر ، لكن ما هو أكثر خطورة من ذلك هو أن يغطى علـى هذه المحـاولات الطابع الأيديولوجى الـشعاراتى ، وتـقتل فى المـهد . أحاديث الموضة الثقافية خطـرها وارد ، لكن ما هو أخطر ، كما قلت ، أن يتم السيطرة على هذا التوجه الجديد بأيديولوجية معينة .

◆ **قلت أثناء حديثك إن ما تقدمه ، فى هذا الشأن ، هو اجتهاد شخصى ، وقلت إن**

العودة إلى قراءة النصوص الأصلية ، ثم قراءة ما كتب عنها ، وربطها بالسياق الشمولى ، لكنى أرى خلاف ذلك ، وأرى أن البداية لابد أن تكون أولاً بالعودة إلى المرحلة التى كانت لدينا بها مناهج ذاتية فى التاريخ ، وأن يبحث ثانيا لماذا انقطعنا عن هذه المناهج ، أو لماذا انقطعت عنا ، وأن نبحث عن إمكانية الاستفادة منها أو تجديدها ، أو هدمها إذا لزم الأمر ، وفى الوقت ذاته لا نغض الطرف عن المناهج الغربية وإنجازاتها ، أقول ذلك لأننى لم ألاحظ فى حديثك العودة إلى ما كنا نملك من مناهج ورؤى ، ربما فى العودة إلى هذا الطريق قد تكشف الوعى الحضارى المفقود .

● أتفق معك فى أننا لا ينبغى أن نبدأ من الصفر ، بالطبع لدينا تراث عربى ثرى وضخم فى مجال الحقل المعرفى التاريخى ، ولدينا أسماء لكبار المؤرخين . طبعا هم مؤرخو حوليات ، لكن أيضا لهم رؤيتهم وأساليبهم ، ولابد أن نتعرف على ذلك بدقة ، مثلاً المؤرخ العظيم المقريزى قام بمجهودات مهمة ، ولا يمكن أن تتصور كذلك البحث عن منهجية تاريخية تتعلق ببعض بلدان المغرب العربى والتركيبة القبلية بدون الاستفادة من تراث ابن خلدون ، إذ لا يمكن لمدرسة جديدة أن تكون منقطعة عن أصولها ، لكن حاليا القضية موجودة ومطروحة فيما يتعلق بالمناهج الحديثة العالمية ، ومع ظهور الجامعات العربية التى كانت استفادتها من هذه المناهج استفادة متواضعة والتى لم تربط هذه المناهج بأصولها التاريخية ، هذه المدرسة الجديدة من مهماتها قراءة جديدة للتراث التاريخى العربى . . . وأنا أؤمن أن القضية فى الوقت الحالى ، وفى ظروف العالم العربى الذى نعيشه اليوم هى أشياء تتجاوز المجهودات الفردية ، ينبغى أن تكون عمل جامعات ومراكز بحث ، وهو ما نفتقد إليه فى الوطن العربى ، هذه هى القضية الكبرى . . لابد أن تبرز مؤسسات جدية علمية تتبنى هذا التيار الحضارى ، وينبغى أولاً وقبل أى شيء أن تبتعد عن محاولة السيطرة عليها وأيديرلوجيا من هذا النظام أو ذاك .

◆ **تساؤل محورى ، فى هذا الكتاب ، وسبق أن طرحته على مفكرين آخرين، يقول بعض المستشرقين : أنتم تنتقدون الاستشراق وأبحاثنا عنكم ، لكن ماذا كتبتم أنتم عنا ،**

وهل قدمتم شيئا يذكر بالنسبة إلى ما كتبناه نحن عنكم ؟ ماذا تقول أنت عن هذا الطرح ؟

● فى الحقيقة أنا أعتبر هذا الطرح يحتوى على مغالطة ، ومنطق لا يصح ، لأن هناك قضية موضوعية . . نحن لا ننكر أننا مجتمع يشكو من التخلف ، ومن الركود الذى طال سنوات عديدة ، وفترة استعمارية سادت قروناً من الزمن ، هذا الحديث يمكن أن يوجهه أصحابه إلى بلد أوروبى ، هذا الكلام يمكن أن يتوجه به مفكر فرنسى إلى مفكر ألمانى أو إيطالى ، أما أن يقال هذا بالنسبة للمجتمعات النامية والمجتمع العربى بالذات فإنه يحتوى مغالطة كبيرة . لأننا نحن فى الحقيقة ، لابد أن نكون متواضعين ، وأننا لا يمكن أن نقدم شيئاً كبيراً لموضوعات عن تاريخ الغرب لأنها موضوعات قد أشبعت بحثاً من جانب الغربيين أنفسهم ، وإن كان هذا لا يمنع بعض الباحثين العرب من إعداد رسائل علمية حول موضوعات تتعلق بالغرب ، وقد تكون جيدة ، لكنها فى النهاية جزئية ومحدودة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن قضايانا وموضوعاتنا فى حاجة إلى جهودنا وهى كثيرة ، فكيف أهتم بموضوع يتعلق بالغرب وأمتى وتاريخى وبلادى فى حاجة إلى جهودنا المتواضعة . ليس معنى هذا أن نتجاهل تاريخ الآخرين ، وأكرر طرح بعض المستشرقين فى هذا الشأن يتضمن مغالطة ولا يمكن المقارنة بيننا وبينهم فى هذا المجال .

◆ **بعض من حاورتهم من المفكرين العرب رفضوا هذا الطرح لكن لأسباب أخرى غير تلك التى ذكرتها الآن ، يقولون إن المغالطة فى طرح هذا النفر من المستشرقين تكمن فى أننا لدينا بالفعل استغراب أكثر من اللازم . كيف تنظر أنت لمسألة الاستغراب الحضارى ؟**

● إذا تحدثنا عن الاستغراب فى مجال البحث العلمى فقط ، فهنا أقول إن التعريف بالغرب والكتابة عنه ممكن ، لكنها تظل جهوداً جزئية ولا يمكن أن تقارن باهتمام الغرب بالشرق عبر الاستشراق ، ثم إن هذا الاستشراق لم يأت صدفة ، بل جاء نتيجة ظروف تاريخية واستعمارية ، ربما لو جاء يوم واستعمرنا الغرب لأنتجنا استغرابا موازيا للاستشراق .

◆ **هل يكون الاستغراب بالضرورة مرادفاً للـهيمنة والسيطرة على الغرب أم يمكن أن يكون هناك استغراب بدون استعمار ، أعنى استغراب حضارى ؟**

● أردت من كلامى أن أوضح فقط أن الاستشراق جاء فى ظروف معينة . أما الكتابة عن الغرب . فهى موجودة فى مئات الكتب المترجمة ، هذا نوع من الاستغراب . هناك كتب عربية عن الحروب الصيليبية كتبها مؤرخون عرب وهى موجودة ، لكن من الطبيعى أن تحتل الموضـوعات العربية والوطنية الدرجة الأولى ، ومـن هنا حجم هذه الدراسات بالنسبة لاهتمـام الغرب بالشرق قد تكون أقل فى مجال البحـث العلمى ، أما إذا تحدثنا عن الاستغراب كظاهرة حضارية ، فتصبح مـقولة من قال لك أننا لدينا استغراب أكثر من اللازم بمعنى الاغتـراب ، وهذا أمر جلى وواضح إذا نظرنا إلى التبعيـة الفكرية واللغوية مثل بلدان المغرب العربى .

◆ **ألا تعتقد أن وجود ثقافة عربية قـوية فى نفوس أبنائها ، هو أمر يسمح بإنتاج هذا الاستغراب الحضارى ؟**

● لا يمكن لهم أن ينتجوا استغرابا بطريقة موضوعية فى مجال البحث العلمى، إلا إذا تخلص الوطن العربـى من عقدة التبعيـة للغرب حتى يستطيع أن ينـتج ويبدع ويكتب عن الغرب ، وهذا لا يمكن أن يتحـقق إلا إذا احتل الوطن العربى مركزاً حضاريـا متقدما . لكن أقول ، فى الحالة الراهنة ، لابد من التفـتح على الحضارات، لكن بشرط أن يكون ذلك بمقدار ، لأننا لو اتجهنا إلى الكتابة عـن الغرب والتعريف به فإن ذلك سيكون على حساب معـالجة مشاكلنا . نحن نجهل قـضايانا ، قل لى ما هى الأبحاث الاستـراتيجية الموجودة فى الوطن العربى ونحن نواجه عدو ؟ أين أبحاثنا عن الحاضر العربى والتوجه المستقبلى ونحن نعانى يوميـا من عدواً يحتل أرضنا ؟ كيف يمكن أن تطالبنى ونحن فى هذا الوضع المعرفى الضعيف ، وموضوعاتنا ومـشاكلنا تتطلب منا أن نبذل الجهد الكبير ، أن نفضل القيام بدراسات عن الغرب .

أنور لوقـــا

أنا مستغرب بدون استغراب

بعد مشاركته فى ندوة معهد العالم العربى ، فى العاصمة الفرنسية ، عن «الاستشراق موضع تساؤل» ، كان لنا هذا اللقاء مع الدكتور أنور لوقا عن الاستشراق ، الاستغراب ، صورة الآخر والعوامل المتحكمة فى تكوينها والمناهج فى ذلك . وأنور لوقا لا يفضل الحديث عن هذه القضايا من خلال مصطلح الاستغراب بل يرفض استخدامه ويرى أنه يعبر عن ردة ثقافية ويتحدث عن الحداثة وعلاقتنا بهذه الحداثة ويميل إلى مصطلحات الحداثة كما عاشها الطهطاوى التى تفترض اضطلاعاً بالعلاقات التى يستوجبها التفاهم مع العالم والانفتاح على المعرفة، من حيث هى معرفة لذلك يرى أن مصر والعالم العربى بوجه عام فى حالة عزلة عن العالم على المستوى المعرفى ، وأننا نجهل الفكر الحديث الذى يمس وجودنا المعاصر . ويرى أن للأوضاع السياسية دوراً فى تلك العزلة وكذلك الأوضاع الاقتصادية ، ويتساءل : هل ترجمنا إلى العربية ما قدمه مبعوثونا إلى معاهد الغرب والشرق من رسائل جامعية فيها حصيلة التفاعل بين تراثنا وأحدث نظريات العلوم لمفكرين أمثال مصطفى صفوان ومحمد أركون وإدوار سعيد وجورج شحادة، بوصفهم بعض صناع الحداثة عندنا ، رغم تعبيرهم عنها بالفرنسية أو الإنجليزية أو غيرها من لغات المراكز العلمية ولغات الفنون الجميلة .

وأنور لوقا أستاذ فى جامعة ليون - فرنسا - وعمل قبل ذلك أستاذاً فى جامعة إكس آن برونسانس - فرنسا - ولا يزال يعمل أستاذاً فى جامعة جنيف فى معهد الترجمة ، وكان قبل ذلك أستاذاً مساعداً فى جامعة عين شمس فى قسم اللغة الفرنسية .

◆ **هل تحدثنا ، أولا ، عن مسيرتك : كيف تعرفت على الثقافة الغربية ، انطباعاتك وكتاباتك الأولى ، وبمن تأثرت ؟**

● . . . من الشخصيات التى لعبت دوراً بارزاً فى توجيهى وتكوينى الثقافى جان مارى كاريه الذى تعرفت إليه عندما زار مصر سنة ١٩٥٠ ، وكان أستاذ الأدب الفرنسى فى جامعة القاهرة فى سنوات ١٩٣٢-١٩٣٤ ، كما أنه ألقى محاضرات فى الجمعية الجغرافية المصرية عن الأدباء والرحالة الفرنسيين فى مصر ، صدرت فى كتابه الشهير الذى يحمل العنوان عينه . وبعد أربع سنوات أمضاها فى مصر ، عاد إلى فرنسا ليشغل منصب أستاذ فى الأدب المقارن بجامعة ليون . والغريب أننى الآن فى جامعة ليون

أشغل المنصب نفسه ، والشخصية الثانية التى لعبت دوراً مهماً فى حياتى هى طه حسين وأسلوبه المـميز فى التـرجمة ، وكنت أريـد أن أعرف كيف حـوّل شعر راسيـن إلى لغة عربية تقرأها ، فلا تشعر أنها مترجمة . ثم بدأت الترجمة قبل أن أغادر مقاعد الطلبة فى كلية الآداب بجـامعة القاهرة ، وظهر أول كـتاب مترجم لى بعنـوان : صوت لابروبير ، وألاحظ الآن أن كلمة صوت قـد استخدمتها ، بدون وعى فى هـذا الوقت ، متأثرا بطه حسين الذى كـان الصوت بالنسبة إليه مسـألة جوهرية فى الحياة وفى الكتـابة مثل صوت باريس ، وصوت أبى العلاء المـعرى .... ثم ترجمت أعمالا أخرى لراسـين وفاليرى الخ... وانضم إلى الصـحافة ، كتبت فـى جريدة الزمان المسـائية بالعربيـة التى كانت تصدر عن إدارة جـورنال مصر بالفرنـسية ، وكان عملـى بها هو ترجمة بعـض الأعمال الغربية ، ونشرت سلسلة من المقالات ، ثم بعثت إلى فرنسا لتحضير رسالة الدكتوراه . وكنت أراسل أثناء وجودى فيها مجلة "الكاتب" التى كان يصدرها عادل الغضبان عن دار المعارف ، ثم كتـبت فى مجلة أوسع انتشارا هى «كتابى» التى كـان يصدرها حلمى مراد ، وكنت أزوده بالكثير من المقالات التى تعرف بالمسرحيات الحديثة والقصص التى تعبر عن التيارات الجديـدة فى فرنسا ... كنت أفعل ذلك وفى ذهنى القارئ العـربى المثقف . كذلك كتـبت فى مجلة اسمها «كـراسات التاريخ المصرى» وكان يـصدرها شاب نشط هو جاك داغر ، وأتذكر جيداً هذه المجلة لأننى كتـبت فيها مقالا بحسن نية تحت عنوان : "النهضة المصرية وحدود حملة بونابرت" أشرت فيـه إلى مسألة التأثير الثقافى للحملة الفرنسية وحطمت أسطورة أنهـا كانت إيقاظا ثقافيا فى مصر . وكنت مقـتنعا بأن النهضة الثقافـية المصرية لم تكن مـستوردة وإنما كانت تلـبية لحاجة عمـيقة عندنا مثّلهـا رفاعة الطهطاوى بصـورة نموذجية ... وقـد أثرت هذه المقالـة فى الفرنسيـين بشكل لم أكن أتوقعه ، رغم أنها لم تتضمن أى مهاترة بل كانـت بحثا تاريخيا علمياً ، ورغم أن المقال ظهـر عام ١٩٥٥ إلا أن ردود الفـعل عليه اسـتمـرت طويلاً . وأتذكـر أن جان لاكوتـير تحدث عن هذا المقـال فى كتابه عن عبد الناصـر كما حدّثنى جاك بيـرك بشأنه فى إحدى الحلقات الثقافية التى شاركنا بها سويا ... ثم أنهيت رسالة الدكتوراه وظهرت بالفرنسية عام ١٩٧٠ تحت عنوان : أدب الـرحالة المصريين فى فـرنسا فى القرن التـاسع عشر ،

وكانت بشكل ما الرد على كتاب جان مارى كاريه عن الرحالة والكتاب الفرنسيين فى مصر . . .

◆ **هل يمكن أن تقول إن رسالتك هى دراسة فى "الاستغراب" كما كان كتاب كاريه دراسة فى الاستشراق ؟**

● فى الواقع هما وجهان لعملة واحدة . لكنى أعتقد أن كلمة «الاستغراب» فيها طاقة هجومية لذلك أريد أن أستبعدها من الحوار ، فالحوار مع الغرب موجود منذ القدم . وفى الفترة الحديثة كان رفاعة الطهطاوى هو الرائد الذى جاء إلى فرنسا وورث تنوير القرن الثامن عشر ، ومكث مدة طويلة فى مناخ من الحرية الثقافية والإحترام المتبادل جعله يتمكن من الحوار مع الآخر ومع نفسه . وكلنا نعلم سلامة منهج «التخليص» الذى انتهجه صاحب «تخليص الإبريز» ، لقد كان مستغربا دون أن يختل توازنه الفكرى بهذا الاستغراب ، إنما الخلل ماثل اليوم بمجرد إشهار هذه اللفظة «الاستغراب» التى تنم عن معنى الانمحاء والجنوح وتعبر عن تهاوى قائلها إلى جانب معين . . الأكرم لنا أن نظل مستغربين على السليقة أى مستوعبين لعلاقتنا بالغرب ونحن واثقون من أنفسنا ونسلك سلوك أنداده .

◆ **إذاً أنت ترى المشكلة فى المصطلح الذى يحمل طاقة هجومية - موازية للطاقة الهجومية الموجودة فى الاستشراق - وليس مبدأ الاستغراب فى حد ذاته ، أى ضرورة دراسة الحضارة الغربية من خارجها ؟**

● بالطبع هذا الاستغراب الإيجابى الطبيعى موجود لدينا بالفعل منذ أقدم عصورنا الثقافية ، غير أننا لم نكن نطلق على هذا النشاط كلمة سلبية كالاستغراب ، مثلاً فى العصر العباسى أطلقوا على أكبر مركز للاستغراب اسم «دار الحكمة» حيث انبرى المترجمون لترجمة الكتب اليونانية ، أما اليوم فإن اشتقاق لفظة الاستغراب على نمط كلمة الاستشراق محاكاة لها أنكاء عليها وهو تناقض من جانب من يريد أن يتحرر من المحاكاة ويثبت أنه قوى مستقل . . يا للغرابة ! إننى أنا الذى أستغرب : أى أتعجب من هذا التناقض . لقد كانت لدى فكرة جيدة عن حسن حنفى كمفكر رصين ، لكن كتابه

الأخير يتضمن سطحية وغوغائية تعكس ظاهرة ردة ثقافية . كان طه حسين يتحدث عن الأخذ والعطاء بين ضفتى حوض البحر المتوسط ، فلماذا نصنع اليوم ردة ونكسة ؟ أليس من علامات التقوقع أن يظهر مصطلح «الاستغراب» فى هذه الفترة من الفقر الثقافى عندنا والتى لاحظنا فيها انحسار نشاط الترجمة ؟

◆ **هذا الاستغراب الإيجابى الذى تتحدث عنه ، فى مواجهة الاستغراب السلبى أو الهجومى ، أين نجده الآن ؟ أين تلك الدراسات والأبحاث والرؤى التى تمثل الثقافة العربية المعاصرة ؟ أين إضافاتنا ؟**

● أليس فى جامعاتنا أقسام اللغات الأجنبية وحضاراتها ؟ أقسام اللغات الحديثة كالفرنسية أو الإنجليزية واللغات القديمة والتاريخ والفلسفة . . . فيها نتعلم ونبحث ونناقش كيف يتصرف الآخرون ويعبرون عن مشروعهم الفكرى وبنائهم الحضارى، إننا نحلل كتبهم وعلومهم وأنظمتهم وتياراتهم الفكرية ، وهذا الاستغراب يمارسه أيضا أساتذة القانون فى كليات الحقوق وأساتذة العلوم فى مختلف المختبرات العلمية وأساتذة الفنون الجميلة . . . إلخ ، باختصار : مخاطبتنا للغير عن أنفسنا ومخاطبة أنفسنا عن الغير المماثل أمامنا هى عملية واحدة ذات شقين . والقول «بالاستغراب» إهدار لنصفها وإخلال بحقنا الطبيعى فى توازن الأخذ والعطاء .

◆ **كيف تفسر أن هناك بعض الباحثين الغربيين وكذلك العرب الذين لا يرون فى «الاستغراب» طاقة هجومية ، يطالبون بإلحاح بأن نبدأ مرحلة جديدة فى دراسة الحضارة الغربية من خارجها ؟**

● أنا أرى من الأفضل للحضارة العربية أن تدرس من خارجها بعين العرب أنفسهم . لأنه طالما نحن ملتصقون بنصوصنا وكلامنا خصوصا فى عهود الانحطاط التى نعيشها فإن النكسة ستزداد خطراً ، ولابد أن نبتعد قليلا وننظر إلى أنفسنا فى المرآة .

◆ **تحدثت عن الردة الثقافية وعن النكسة وعن الطاقة الهجومية . . لكن لدينا من يقول إن الطاقة الهجومية آتية من الجانب الآخر ، من الضفة الشمالية للبحر المتوسط ، وأن ما نفعله هو محاولة للاحتماء من هذا العدوان ؟**

● لقد عشت هذه التجربة أيام عبد الناصر ، كانت نوعا من الاحتجاج الوطنى، كانت رغبة فى أن نعبر عن أنفسنا بالعربية إلى درجة أنه خفض ساعات التدريس باللغات الأجنبية وكانت النتيجة أننا افتقدنا اللغات الأجنبية واللغة العربية أيضا ، ونسينا أننا عندما نستخدم لغة العالم الخارجى فإن ذلك يعد إضافة إلى ثرواتنا . هذا الإحساس بالنقص والانطواء ، أنا كنت أدرس اللغة الإنجليزية فى المرحلة الإبتدائية ، لقد انقرض هذا ، وصار لدينا ناس أميون حتى باللغة العربية. فمن الطبيعى عندما تدرس النحو الإنجليزى ستجد له قواعد معينة ستجعلك تفكر فى النحو العربى وستتقن قواعد النحو العربى عندما تقارنها بغيرها ، لكن لوحدها ربما لن تتضح العلة فى استخدام هذه القواعد ، فى تصورى أن ميزة إيجابية كبيرة فقدناها بفقدان اللغات الأجنبية .

◆ **بشكل عام فأن صورة الغرب فى وعى المثقفين العرب - والعالم الثالث - لم تعد تلك الصورة التى كانت فى الفترة التى بدأت فيها ترجماتك . والصورة الآن باهتة الألوان ولا أقول انهارت تماما ، كيف نفسر ذلك ؟ وعلى من تقع المسؤولية ؟**

● يبدو لى أنه ينبغى ألا نرد على أخطاء الغرب بأخطاء من عندنا وإنما نرد على الجهالة بالحكمة لكى نكسب . فعندنا يجردون علينا الجيوش والأساطيل لا ينبغى أن نتخلى عن قيمنا الثقافية ، وأعتقد أن تنازلنا فى الوقت الحالى عن الترجمة وعن البحث هو تخلٍّ عن قيمنا الثقافية وتفريط فى حقوقنا الخاصة جداً بل أعتقد أنه من الضرورى لنجاح المقاومة أن نفهم جيدا من الذى أمامنا وما الذى يكمن وراء فكره ، وأن نخاطبه بلغته ، وهذه أمور غير جديدة فى التاريخ . . .

◆ **فى الماضى القريب كان هناك إيمان عميق لدينا بقيم العقلانية والتنوير والآن هناك وعى بأن هذه القيم لا تسود بين الناس بالمقدار عينه . ولم تعد هناك معايير ثابتة ، فأى قيم ثقافية ندعى الحفاظ عليها وتنميتها الآن ؟ وهل يمكن استعادة مشروع طه حسين اليوم مرة أخرى ؟**

● أبدأ وأقول : طه حسين كان تعبيراً عن عصر معين . وكان دائما يقول نحن أنداد للغرب ، وبيننا وبينه علاقة مساواة . كان يدعو للتعامل مع الغرب بدون خوف وبدون

مركب نقـص ، ولا ينبغى أن ننسى أن طه حـسين أثناء حـرب المقاومة فـى الجزائر رد نياشين فرنسـية حصل عليها فى وقت سابق . فى الواقع إننا اليـوم لم نعد نملك أنفسنا . . . ثم نقول إن الغرب هـو الذى اعتدى علينا وجرّدنا من قـيمنا. . . لا ، نحن الذين تخلينا عن قيمنا . تلامذة طه حسـين فى كل مكان ، لكنهم شردوا عندما تناول السلطة رجال غير مـثقفين . . . جاء النظام العـسكرى فى مصر وأقصى طه حسـين ولم يتحقق مشروعـه ، لأن العالم شهد هزات وفـقدنا الآن البعد الثـقافى الذى مثله طه حـسين فى فترة ما من تاريخنا . . . الهوة الآن عميقة.

◆ **ما هى ملامح مشروع نهضة ثقافية جديدة فى العالم العربى؟ من أين نبدأ ؟**

● ينبـغى أن نبدأ باسـتعادة الثـقة بالنفـس ، ولن يكون ذلك عن طريق «وصـفات» جزئيـة وإنما باسـتعـادة تراث الأعماق الـثقافـية والحـضارية ، فمـصر والشـرق أساس الحضارات كلها . علينا أن نبدأ بالخروج من الأمية أولاً .

محسن مهدى

فلاسفة الإسلام تكلموا باسم الآخر

العلاقة مع الآخر لم تكن غائبة عن الحوار مع محسن مهدى الذى كرس نشاطه وأعماله لبحث قضية العلاقة بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة اليونانية، ومن أعماله الرئيسية : فلسفة الفارابى الأفلاطونية والارسطية (١٩٦٢) والفلسفة السياسية فى العصر الوسيط (١٩٨٤) . ويعمل محسن مهدى فى جامعة هارفارد، ويدير فى الوقت عينه «مركز لغات وحضارات الشرق الأدنى» . وقد ألقى عدة محاضرات فى معهد العالم العربى بباريس عن : الفلسفة السياسية فى الإسلام - الفارابى والأفلاطونية. وعن محاضراته وأعماله ورؤيته للآخر الفلسفى فى العصور الوسطى كان هذا الحوار:

◆ **بدأت مسيرتك الفكرية بدراسة بابن خلدون، هل كان ذلك مصادفة أم أن لهذه البداية دلالات يمكن أن تطلعنا عليها ؟**

● بدأت فى الحقيقة، بإبن خلدون لأننى كنت أتساءل عن تاريخه، عن علاقته بماضيه وبمستقبله، واخترت ابن خلدون لأنه كان ينظر إلى التاريخ العربى كجزء من التاريخ الإنسانى، ولأنه حاول أن يركز على أسس نشأة هذا التاريخ وطبيعته وتطوره . ولأنه كان يهتم أيضاً بمشكلة الانحطاط وتغير حالة العالم العربى من حالة كان له فيها موقع الصدارة فى ما يخص الإبداع الفكرى والحضارى إلى حالة أخرى أصبح فيها إسهامه من الدرجة الثانية أو الثالثة، فى الوقت الذى نهضت فيه أجزاء أخرى من العالم . وتجسد اهتمامى هذا فى كتاب أصدرته عن ابن خلدون، ثم قادنى هذا الاهتمام إلى دراسة الفلاسفة من أجل فهم الأسس الفلسفية للتاريخ وتطور المجتمعات . وكان من الطبيعى أن أتجه نحو الفيلسوف السياسى الذى يمثل الفلسفة السياسية فى الفكر السياسى الإسلامى . وهو الفارابى .

◆ **عندما انتقلت إلى دراسة الفارابى هل كانت أعماله متوفرة ومحققة بصورة علمية دقيقة ؟**

● وجدت بعض الكتب البسيطة للفارابى، فى ذلك الوقت، لكنها كانت فى طبعات

لا تقرأ، بينما كان كثير من مؤلفاته لا يزال مخطوطا فى أماكن مختلفة من العالم، بعضها كان فى العالم العربى، والقسم الأكبر منها كان فى تركيا وإيران وأفغانستان وروسيا. فأمضيت مدة كبيرة فى البحث عن هذه الكتب وقمت بتحقيقها ونشرها . ولحسن الحظ ما زال أغلبها يعاد نشره بصورة مستمرة، من دون علمى طبعاً، عن دار المكتبة الشرقية فى بيروت .

◆ **هل تُرجمت أعمالك بالإنجليزية عن الفارابى إلى العربية ؟**

● مع الأسف لم يترجم منها الكثير . بعضها ترجم إلى الفرنسية، وبعضها ترجم إلى العربية، لكن أغلبها لم يترجم بعد، وما زلت أفكر فى أن اجمع مجموعة منها لكى تترجم إلى العربية قريباً، غير أن اهتمامى المباشر الآن هو هذه المحاضرات التى ألقيها فى «معهد العالم العربى» . وستكون بداية لكتاب سيصدر عن فلسفة الفارابى السياسية وعلاقة الفارابى بالتراث الفلسفى اليونانى، خصوصاً الأفلاطونية من جهة، وإبراز أهمية الفلسفة السياسية للعالم العربى الإسلامى فى العصر الوسيط من جهة ثانية .

◆ **ما هى هذه القضايا التى من خلالها برزت أهمية فلسفة الفارابى السياسية بالنسبة لك ؟**

● يمكن القول إن من مزايا الفارابى أنه جاب بلدان المشرق . فقد ولد فى آخر المشرق . وسافر إلى بغداد وسورية ومصر، وصارت لديه فكرة عامة عن طبيعة العالم الإسلامى، فى وقت كانت الخلافة العباسية لا تزال تتمتع بشىء من الحياة والقوة، وفى هذا القرن العاشر حاول الفارابى أن يفهم طبيعة النظام السياسى فى المجتمع الذى عاش فيه، وكان يُشْعِر الإنسان بوجود قضايا وجودية ويومية معاصرة، هى التى تدعو إلى أن يستعمل تاريخ الفكر الفلسفى، كى يفهم ما يجرى حوله . وكتب الفارابى فى الكثير من الموضوعات، بيد أنه ركز على مشكلة علاقة مركز الخلافة أو الإمبراطورية بالمدن والأمم المختلفة التى كانت مندمجة بها. فقد كانت الخلافة العباسية فى هذا الوقت على

قدر كبير من الانتشار والاتسـاع، ومع ذلك، وهو الأهم، كانت هناك مدن عديدة، وأمم عديدة، ودول عـديدة، مسـتقلة تقـريباً فى عـلاقاتها مـع هذه الخلافـة، بل الطريف أن الخلافة العباسية، وهى مركز الشـقل فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، كانت هى التى تحافظ علـى علاقات هذه الأمم بعضهـا ببعض، فكانت هناك خلافة واحـدة لكنها تتضمن نظماً سياسية مختلفة، تجـمع بينها، كأنما هى دولة غير مركزية، وكان هذا أهم شئ فى نظرى، حيث نجد أمماً مستقلة تساعد بـعضها البعض وتساعد الخلافة المركزية . والملفت فى زمن الفارابى مـا جرى فى الموصل وحلب، إمارتين صغيـرتين يرأسهما الحمدانيـون، فقد كانوا يدافعـون عن الخلافة العبـاسية فى العراق نفسـه وعلى الحدود البيزنطية .ما أخلـص اليه هو أن النظام غير المركزى كانت له فوائد كـثيرة . فقد كانت الأمم والمدن مـهتمة بالـدفاع عن بعضهـا البعض، فمع وجـود اللامركزية والاسـتقلال الذاتى لهذه الدول كـان هناك نوع من الوحدة والتـعاضد، وهذه قضيـة أعتقد أنهـا تهمنا اليوم. نحن مـتفرقون ولا يـوجد هذا النظام الشامـل الذى نجد مثله فى أمـريكا وأوروبا مثلاً، حيث تـبدأ الدول والمدن صغيرها وكـبيرها . تتحد لغرض الـصالح العام، وهذا الشىء كان قـائماً فى التاريخ العـربى ثم ضاع، هذه إحدى الـمشكلات التى يفكر فـيها الإنسان عندما يدرس الفارابى .

◆ **عنوان محـاضراتك الست فى «معهـد العالم العربى» هى «الفـلسفة السيـاسية فى الإسلام »وتحتها «الفـارابى والأفلاطونية » والمتابع للمحاضرات التى ألقـيتها حتى الآن يخرج بانطـباع أنك تتحدث أسـاساً عن مصـادر الفارابى فى الفكر اليـونانى وليس عن الفلسفة السياسية فى الإسلام ؟**

● الواقع أن الطريقـة التى كان يكتـب بها الفارابى هـى طريقة طريفـة وغير معـروفة بصورة عامة، لكن أصولها قائمة فى الطريقة العامة التى كان يؤلف بها فى ظل الإسلام، وهى أن الإنسان عنـدما يكتب، فإنما يـكتب دائماً عن الأصول أو عن الأوائل، فـعندما

يريد أن يقول شيئاً فدائماً يتكلم باسم الأوائل، بمعنى أن يقول ما يريده باسم أفلاطون أو أرسطو .الواقع أن جميع هذه الكتب التى كتبها الفارابى هى إلى حد كبير مؤلفات شخصية، أى أن الفارابى كتبها من منظور ما ينبغى أن تكون عليه فلسفة أفلاطون أو أرسطو بدون أن يهمل بالطبع الاصول المكونة لفلسفة كل منهما . فالفارابى درس هذه الاصول وفكر فيها ليخلص إلى ما ينبغى أن تكون عليه الفلسفة، وهو عندما يتكلم عن أفلاطون، وأرسطو لا يتكلم كلاماً تاريخياً، إنما يتحدث من خلالهما، عن جذور الفكر الفلسفى، ويريد أن يقول من خلال ذلك : إذا أردتم أن تفهموا الجذور فهو هذا، وهكذا يصل إلى الشئ الذى يمكن على أساسه أن ندرس الواقع المحيط . وكما ذكرت، كان هذا الأسلوب شائعاً فى التراث الإسلامى . أى أن الإنسان عندما يتكلم باسم الآخرين يعطى لكلامه نوعاً من الأصولية، وهذا هو الشئ الذى ينبغى أن يتنبه إليه الإنسان فى رؤيته لكتب الفارابى .

◆ **لكن ألا يفترض الحديث عن «الفلسفة السياسية فى الإسلام» مصادر أخرى، أو بتعبير آخر : هل يمكن الحديث عن الفلسفة السياسية فى الإسلام من خلال علاقة الفارابى بمصادره اليونانية فقط ؟**

● بدون شك هناك فكر سياسى دينى فى الإسلام مبنى على القرآن الكريم والسنة . وهناك فكر سياسى بمعنى عام مبنى على ما شاهده علماء الإسلام فى النظم السياسية الجارية، وهناك فكر سياسى عند الفقهاء، حيث كانوا ينظرون إلى النظم السياسية من ناحية الفقه الإسلامى، وهناك فكر سياسى مهم لدى المتكلمين. وبدون شك أيضاً عندما يقرأ الإنسان أى كتاب جامع من كتب علماء الكلام سيجد فى نهايته فصلاً عن الخلافة . إذاً هناك فى الفكر السياسى الإسلامى أشياء مختلفة، فالفقيه يختلف عن المتكلم. . . وهكذا، وضمن هذا العدد من الطرق التى ينظر فيها علماء الإسلام إلى مشكلة الحكم، كان هناك الفكر الفلسفى السياسى . ولكل واحد من هذه الطرق مصدره أو مصادره الخاصة، والمصدر الأساسى للفكر الفلسفى السياسى هو المصدر اليونانى بشكل عام .

◆ **عندما يتحدث الإنسان عن فلسفة «إسلامية» فى جوانبها السياسية أو غير السياسية، فإنها بالضرورة تعنى علاقة ما مع الأصول الإسلامية أولاً . . .**

● عندما يقول الإنسان فلسفة اسلامية يستنتج مباشرة أن هذه الفلسفة انطلقت من القرآن الكريم أو السنة، وهى مصادر كانت تهم الفلاسفة المسلمين لأنهم دون ذلك لا يمكن أن يكونوا فلاسفة مسلمين، لكن عندما نظر هؤلاء الفلاسفة فى القرآن والسنة كانت لهم اجتهاداتهم الخاصة .

◆ **ما مدى حضور هذه الفلسفة السياسية فى واقعنا اليوم ؟**

● يجب أن يفرق الإنسان بين حضورها وما يجب أن تكون عليه، حضورها قائم، وهناك الكثير من الكتب الأساسية فى تاريخ الفلسفة السياسية موجودة باللغة العربية بدءا من جمهورية أفلاطون وحتى روح القوانين لمونتسكيو وغيرها . وهناك من يقرأ هذه الكتب . وبالتالى أرى أن حضور هذه الفلسفة السياسية فى العالم العربى سيكتمل، عندما يبدأ العلماء المسلمون بهضم هذه المصادر واستخدامها لفهم حاضرهم السياسى ومستقبله .

◆ **أقصد الفلسفة السياسية فى الإسلام .**

● كتب عنها الكثير، لكن مع الأسف ما كتب عنها يحتاج إلى تعمق وتدقيق، لأن ما يكتب فى الفلسفة فى العالم العربى اليوم فيه الكثير من التسرع، وهذا يجوز فى قضايا أدبية لكن القضايا الفلسفية تحتاج إلى تأمل وتفكير وإعادة تفكير وتعمق . . . ومشكلة الكلام عن الفلسفة السياسية فى الإسلام لها علاقة بواقع المجتمع العربى، وتحتاج إلى تفكير فى واقعه والعالم المحيط به. ولا بد من ربط هذا الكلام بالتاريخ الإسلامى، والواقع الإسلامى القديم أولاً، ثم الحديث . . . أعتقد أن قراءة الأصول الفلسفية اليوم أو الاهتمام بمختلف المدارس الفلسفية هما أكثر بكثير مما حدث فى الماضى، ولا اعتقد أن العالم الإسلامى، كان يقرأ الكتب الفلسفية بمقدار ما يقرأها اليوم . وقد لا

يفهم الإنسان المعـاصر كل ما يقرأ، إنما الواقع المؤكد أن الكتابات والـمدارس الفلسفية المختلفة هى على درجة كبيرة من الانتشار .

◆ **هذا يؤدى بنا إلى التسـاؤل عن العلاقة بين الفلسفـة العربية الحديثة، والـمعاصرة والفلسفة الإسلامية فى العصر الوسيط، هل هى علاقة استمرار أم انقطاع فى تصورك ؟**

● هى علاقـة استمرار، وانقطـاع فى الوقت ذاته . فهى علاقـة استمرار بـمعنى أن الفلسـفة الإسلاميـة فى العصـر الوسيط تدرس فى عدد كـبير من الـجامعات فـى العالم العربـى ثم تنتشـر فى ما يطبـع وينشر من الأصـول والدراسات عنهـا . لكن المـشكلة الفكرية التـى لم تعالج بعد هـى صلة الفلسفـة الأوروبية فى العصـر الحديث والفلسـفة الأوروبية المعاصرة بالتراث ألفلسفى الإسلامى، وهو أمر يـتطلب معرفة مباشرة وعميقة للتراثين.

◆ **فى قاموس صدر بالفرنسية منذ عشرة أعوام ويحمل اسم «قاموس الفلاسفة» هناك حديث عن الفلاسفة العرب المعاصرين فـنجد بعض الأسماء مثل : محمد غزالى، طه حسين، عبد الوهاب بوحديبه، الجابرى . . . كيف تنظر إلى هذا الاختيار ؟!**

● قد يكون مصدر هذا الاختيار هو جهل الـذين شاركوا فى كتابة مواد هذا القاموس لمعنى الفلسفة وربما سبب ذلك هو تلك الفكرة الغـوغائية عن الفلسفة والنظر إليها على أنها توازى الفكر بصـفة عامة، وبالتالى اعتـبروا الأسماء التى ذكرتها، وهى أسـماء كبار المفكرين العرب على أنهـا اسماء لفلاسفة عرب من دون أن يكون هناك دقـة فى التمييز بين الفلسـفة والأدب أو بين الـفلاسفـة والمفكرين والأدباء. فـى الماضى، عندمـا كان الإنسان يـتكلم عن الفلسـفة، كان مـن المعروف عـمن كان يتـحدث، كان يتـكلم عند الكندى : الفارابى، ابن سينا، أما اليوم فقد تغـير إلى حد ما، هذا المعنى المتضمن فى كلمة فلسفة، وهذا ما حدث أيضاً فى الغرب .

◆ **أين هى الفلسفة العـربية اليوم ؟ وأين هم هؤلاء الفلاسفة العـرب بالمعنى الدقيق للكلمة فى نظرك؟**

● قد لا يكون هناك فلاسفة عرب اليوم، إنما بدون شك هناك من يهتم بصورة جدية بمشكلة الفلسفة فى العالم العربى، وهناك أشياء جيدة كتبت منذ أن دُرِّست الفلسفة، فى جامعة القاهرة فى العشرينات من هذا القرن، وهناك من فكر سواء فى تحديث موضوع الفلسفة أو فى كيفية تدريسها، هناك اجتماعات جرت حول هذا الموضوع فى القاهرة وعمان ونشرت أعمالها فى بيروت عن واقع الفلسفة فى العالم العربى اليوم .

◆ فى محاضراتك حديث عن "المدينة الفاضلة"، يستدعى التساؤل عن إمكانيات تحقيقها، ومدى توافر النجاح فى هذه المحاولات قديما وحديثا ؟

● هناك سوء فهم، إلى حد ما، يتعلق بتحقيق المدينة الفاضلة فى التراث الأفلاطونى الفارابى، أعتقد أنه معروف عند دارسى أفلاطون أنه لم يعتقد أن الجمهورية أو المدينة الفاضلة، يمكن أن تتحقق، لذلك وضع كتاب النواميس ورسائله. ومن المعروف أن الجمهورية أو المدينة الفاضلة هى «مثال» فى السماء، لذلك لابد من أن ينظر إليه على إنه حلم، لكنه حلم لا علاقة له بالواقع، هناك أشياء كتبت، والفارابى نفسه كتب أشياء لها علاقة بالواقع السياسى، وتحسين ما هو موجود وليس تحقيق المدينة الفاضلة، لأنها عادة تستخدم كحلم يبعد الناس عن الواقع السياسى المعاش إلى حد ما، لذلك من الأفضل أن تكون للإنسان نظرة عن واقعه السياسى وكيف يمكن أن يحسن هذا الواقع خطوة خطوة. هذا هو الفكر السياسى السليم الذى يعرف أن الواقع هو الذى يجب أن يبدأ منه الإنسان ليتمكن من أن يخطو خطوة أو اثنتين فى الطريق الصحيح، وهذا هو الذى نحتاجه الآن، قد يعتقد البعض بأن الحديث عن المدينة الفاضلة يعنى ضرورة تحقيقها، غير أن محاولات تحقيقها فى الماضى أدت إلى خراب المدينة.

◆ هل تشير إلى بعض التجارب المعاصرة ؟

● من الأمور المنتشرة فى العالم الإسلامى اليوم فكرة الثورة أو «الانقلاب» على أنها الطريق الوحيد لتحسين الأمور أو السير فى الطريق الصحيح، أما أنا فارى ضرورة التمييز بين الثورة والإصلاح، أنا اليوم ضد الثورة بمعناها المعاصر فى العالم العربى، ومع

الإصلاح، وهو طريق قد يكون بطيئاً وقد يسير خطوة خطوة، لكنه يؤدى فى النهاية إلى نتيجة حقيقية . أما طريق الثورة الذى سار فيه العالم العربى فقد وصل به إلى باب مقفول، فعندما يفكر الإنسان فى الإصلاح يمكن أن يعرف ويدافع عما هو أصلح، أما الثورة فقد أصبح من الصعب معرفة معناها وغايتها ومسيرتها . . . وهذه هى مشكلة الفكر السياسى فى العالم العربى اليوم، إذ عليه أن يدقق فى الطريق الذى يقود إلى نتائج حقيقية . . . لا شك فى أن طريق الإصلاح هو طريق بطىء ويحتاج إلى المزيد من الديمقراطية وتقبل اختلاف الرأى والنقاش فى ما هو أصلح، والابتعاد عن الأيديولوجيات المتحجرة، لكنه الطريق الوحيد الذى سيؤدى فى نهاية المطاف إلى نتائج حقيقية وملموسة.

علال سيناصر

مستغربون أكثر مما نظن

العلاقة بين الغرب وثقافته علاقة محورية فى حياتنا الثقافية، وعندما نناقش قضايا الثقافة العربية نجد مسألة العلاقة مع الآخر تفرض نفسها على أكثر من صعيد، وليس هناك ما هو أدل على ذلك من قضية تكوين الفكر العربى الحديث والمعاصر، والتساؤلات التى طرحناها حول واقع الفلسفة العربية اليوم، ولماذا لا يوجد فلاسفة عرب معاصرون، وهى تساؤلات طرحناها على مفكرين عرب : على فهمى خشيم، رينيه حبشى، فؤاد زكريا، زكى نجيب محمود، وغيرهم، وهنا استكمال لهذه القضية مع علال سيناصر، وهو مفكر مغربى درس دراسة مزجت بين القديم والحديث، وأعد أطروحة عن فلسفة العلوم بين الفلسفة والمنطق الرياضى، فاهتمامه الرئيسى يتعلق بتاريخ الرياضيات والمنطق الرياضى، كما يقوم بتحقيق النصوص القديمة، ويعمل منذ سنوات رئيسا لدائرة الفلسفة باليونسكو :

◆ **بوصفك مديراً لدائرة الفلسفة باليونسكو، وبوصف اليونسكو ملتقى لفلسفات وثقافات عديدة، نريد أولاً أن نتعرف إلى اهتماماتك الثقافية؟**

● الاهتمام الرئيسى عندى هو بالفلسفة أولاً وبشؤون الفكر فى العالم المعاصر، لقد نشأت فى بيئة عربية إسلامية لكنى لا أتجاهل موقعى من العالم بمشاكله وأحداثه وقضاياه، فالذى يهمنى دائماً هو العطاء الفكرى ومدى استقلاله وحريته، وأهتم بالفكر وليس بالأيديولوجيات .

◆ **كيف تحدد لنا موقعك الثقافى ؟ هل نقول إنك مفكر عربى، أو إسلامى، أو عالمى ؟**

● لا يمكن أن أعطى هذا التساؤل ما يتطلبه من تحديد.

◆ **فلنطرح السؤال بصيغة أخرى: الفكر الذى تهتم به والفلسفة التى تتبناها، إلى أى محيط تنتمى ؟!**

● إذا افترضنا أن للفلسفة وجوداً فى العالم العربى أو الإسلامى أو العالم الثالث، وإذا افترضنا أنها تأتى إلى هذا العالم بعطاء أياً كان هذا العطاء، فإنه لن يكون عطاء

فلسفياً إلا إذا كان يعالج مشاكل فلسفية محددة، وفى تصورى أنه لا يمكن لفيلسوف أن ينطلق من واقع جغرافى رغم أن هذا الواقع قد يؤثر فى توجيه تساؤلات يكون قد ورثها عن التقاليد الفلسفية السابقة عليه .

◆ **ومع ذلك يقال أن هناك فلسفة فرنسية ألمانية وفلسفة عربية وأن هناك فيلسوفاً فرنسياً أو ألمانياً أو عربياً، وبالتالى ألا ينتمى الفيلسوف إلى جغرافيا ولغة وتراث أيضاً ؟!**

● ديكارت بطبيعة الحال هو فيلسوف فرنسى، وربما أعظم فيلسوف فرنسى منذ أن تكونت فرنسا حتى الآن، ولكنه كمفكر قد وضع فكره فى إطار مجموعة من العلوم لها منطقها الخاص، وهو إذا فكر فى مشاكل تتعلق بالفيزياء أو الرياضيات أو الفلسفة، فإنما يرجع فى ذلك إلى تراث سابق عليه يتضمن تقاليد فلسفية وعلمية متنوعة، منها العلوم العربية فى البصريات، والممارسات العربية فى الجبر وغيرها . . . وقام ديكارت بتجديد ما ورثه، وذلك على الرغم مما يمكن أن نسميه القطيعة التى اعترت هذا التطور الإنسانى فى المعارف، ألا ينتمى إلى محيطه الخاص، لكن أقول إن العطاء الفكرى لهذا الفيلسوف أو ذلك يتجاوز الحدود الضيقة إلى الدرجة التى يمكن أن ينسى فيها اسمه، لكن تظل أفكاره خالدة فى المنظومات العلمية، فنادراً ما يذكر أن الخوارزمى قد وضع شيئاً ما فى الجبر إلا لدى الناس الذين يهتمون بالتاريخ، بينما لدى غالبية من يدرسون الرياضيات لا يعرفون أن ما يدرسونه يتعلق بمساهمة عربية، ولا نسمع أحداً يقول أن الجبر عربى رغم أنه نشأ وترعرع لأول مرة فى ميدان إسلامى صرف، وبالتالى لا يمكن أن نقول أن المفكر لا ينتمى إلى بلده وثقافته لكن إبداعه إذا وصل إلى أى نتيجة فإنه ليس محدود الانتماء، والأصالة الوحيدة التى قد تكون للفكر هو أنه يهدف إلى شمولية تتعدى حدود انتماءاته الجغرافية والتاريخية .

◆ **ولماذا لا تعبر عن الفكر بصياغة أخرى فتقول مثلاً إن الفكر له حدود؟**

● هذا شيء لا أتبناه لأننى لا أفهمه.

◆ أليس هناك فكر فلسفى وسياسى واجتماعى ؟ وبالتالى لا يمكن لهذا الفكر أن يخرج عن حدود محيطه وزمنه وتاريخه إلا إذا كنا نتحدث فى ميدان غير ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية ؟!

● بالطبع العلوم الإنسانية والاجتماعية والسياسية، وما إلى ذلك من تطبيقات لكلمة علم على ميادين مختلفة، هى علوم تطبيقية منذ البداية أى أن بدايتها واقع أو مجموعة من الظواهر الاجتماعية . بالنسبة لى لست مؤرخاً، ولا عالم نفس، ولا عالم اجتماع، وان كانت هذه الأشياء كلها تهمنى جداً . وقد أجد بعض المرات فيها فائدة قد تنقص أو تزيد وفقاً لما أقرأه مما ينتمى إلى هذه الميادين، فأنا إذا تحدثت عن فكرى فأعنى بذلك الفكر الفلسفى، والفلسفة ظهرت فى ظروف خاصة وتطورت فى هذه الظروف، وكان لها أثر فى تكوين الحداثة التى نعيشها، وكان للعرب وفلاسفة الإسلام دور فيها، لأنهم كانوا حلقة مهمة فى التطور الفلسفى الذى أدى إلى ما نسميه اليوم بالحداثة عبر تجربة الفكر الأوروبى .

◆ لماذا لا يوجد إذاً فلاسفة عرب اليوم ؟

● مع كل ما عندى من احترام لما فى العالم العربى من مجهود فى سبيل انعاش الفكر العربى، ورغم ما فى العالم العربى من مدرسين للفلسفة، فأعتقد، وربما أكون مخطئاً، أن الفكر الفلسفى العربى الآن عديم الوجود، لأنه نقل عما يجرى فى الفكر الفلسفى خارج العالم العربى، وفى أغلب الأحيان يكون ذلك نقلاً مبسطاً لم يستوعب الأصول المنقول عنها .

◆ هذا يعنى أنك تعود وتقر بمسألة المواقع الجغرافية والثقافية والتى ينتمى إليها الفكر الفلسفى، رغم أنك منذ قليل كنت تقول بغير ذلك بصورة غير مباشرة .

● لا، لأن هناك نوعاً من الغموض فى هذا الإجمال، الموقع لا يؤثر على الفكر كفكر، وإذا أثر فيه فغالباً لحدود فى مجهود الفكر، ولكنى قلت وأعيد أن هذا لا يعنى

أنه لا علاقة للمفكر بالبيئة والمحيط الثقافى الذى يعيش فيه . مثلا لا يمكن إخضاع كل مجهـود هيجل أو فتجنشـتين أو هيدجر أو ابـن رشد - مع تغيير الأمـكنة والأمثلة - لا يمكن اخضاع هذه النماذج الفلسفية كـلها إلى محيطها. ولكن هذا لا يعنى أن ابن رشد ليس هو الفيلســوف الذى عاش فى قرطبة فى فترة من الزمـان، وهذا لا يعنى أن هيدجر لا ينتمى إلى ألمـانيا ما بين الحربين العـالميتين الأخيرتيـن، ولا يعنى هذا أن هيجل لا علاقة له بألمـانيا فى بداية القرن التاسع عشـر، كما لا يغير ذلك أيضاً أن فتـجنشتين لا علاقة له بعـالم اليوم ولكن هذا كله يعنى أن هـؤلاء الفلاسفة، اذا ما أفـادوا فكر العالم بشئ فقد فـجروا الحدود الزمانية والمكـانية التى تربطهم بالبيئـة، وإذا قلت اليوم إن فى هذه الجهة من عـالمنا التى تسمى بمجمـوعة الدول العربية من المـحيط إلى الخليج لا يوجد مجهود فلسفى، فإن هذا ليس نقداً وإنما تسجيل لواقع، فأنا لست أهتم بالجوانب الأدبية للفلسفـة لكنى أرى المجهود الأدبى للمثـقفين العرب أعلى بكثيـر من مجهودهم الفلـسفى .وأعتقـد أن هناك نوعاً من الظلم بالنسبة للمثقفـين العرب إذا قيل إنه لا يوجد لديهم مجهود فكرى بصفة عامة، لكن المجـهود الفكرى فى ميدان الفلسفة لم يبلغ بعد المـستوى العـالمى الذى يمكـن أن يضع الفلســفة فى موضـعهـا الطبيـعى، أى الطرح العالمى، الشمولى، الـجامع، المانع لبعض المشكلات الفلسـفـية، وهى كلها مشكلات جذرية وليست مجرد تأويـل وشرح وإعادة لما فات، فتجنشتين لم يحل مـشكلة فلسفية لكنه أثار الانتباه إلى أساليب الفلسفة وأساليـب التساؤل الفلسفى نفسه، وهيدجر لم يأت بحل جديد، ولكـن عبر عن إشكالات فلسـفية فى أسلوب جعلـها تعبر عن اهتـمامات الإنسان المعاصر .

◆ **هل تقبل بالتمييز بين الفلاسفـة والمفكرين، بمعنى آخر، قد يكون لدينا مفكرون ولكن ليس لدينا فلاسفة ؟!**

● أقبل بهذا التـمييز بين الفيلسوف والمـفكر، لكننى أضع هذا التمييز بعـد الفلسفة وليس دونها، بعد الفـلسفة لأنها تقليد ثقافى يـهتم بالتعريف بأساليب فلسـفية، مدارس فلسفية، وتيارات فلسفية قديمة وحديثة . ولكن المفكر قد لا يكون مدرساً للفلسفة قد

لا يكون مختصاً بتاريخ الفلسفة، أو عارفاً بكل ميادينها، فمثلا فتجنشتين ليس فيلسوفاً من النوع العارف بتاريخ الفلسفة، لكنه مفكر أقرب إلى الفكر منه إلى الفلسفة كمؤسسة تقليدية .هناك بطبيعة الحال مفكرون وكتاب ممتازون فى العالم العربى، ولكن يجب أن لا نغالط ونتصور عندنا ما ليس موجوداً . فإذا تحدثنا عن العالم الثالث يمكن أن نجد مثالا للتجديد وإن كان قديماً فى الفكر الاجتماعى، ولكن فى أمريكا اللاتينية اكثر منه فى العالم العربى، فالعلوم الاجتماعية والإنسانية فى العالم العربى هى تقليد أيضاً، ومتأثرة بأمريكا اللاتينية فى مفاهيمها عن التأخر والتبعية .فى علم النفس، المجتمع العربى ناقل فى جميع الميادين التى تهم علم النفس الحديث، بقيت لنا بعض الميادين التى تهم المجتمع العربى والثقافة العربية، ففى التأريخ ربما كان بعض مؤرخينا بلغوا مستوى فى التاريخ لثقافاتنا فاق مستوى الأجانب الذين درسوا مجتمعنا وتاريخنا . وربما فهم علماء الاجتماع العرب بعض الظواهر العربية بحق أكثر من العلماء الأجانب، لكن هذا لا يعنى أن كل دارس عربى للمجتمع العربى هو أعمق فكراً من غيره، هل أقل نفاذاً إلى الواقع العربى من العالم العربى، ولكن فى بعض العلوم التى تكتسب صيغة شمولية وتتطلب ممارسة وخبرة طويلة ربما فى هذا الميدان ظهرت أشياء جديدة وعميقة .

◆ **فى الحوار عن وجود أو غياب فلاسفة عرب معاصرين مع مفكرين عرب آخرين، هناك اعتراف لدى الغالبية منهم بهذا الغياب، لكن الاختلاف يبدأ فى التطرق إلى الأسباب التى أدت إلى ذلك ؟ هل يعود ذلك إلى الانقطاع عن المناهج والرؤى الذاتية للحضارة العربية الكلاسيكية وعدم تطويرها وتبنى مناهج عالمية معاصرة بديلاً عنها ؟!**

● أنا لا أومن بالذاتية فى المناهج ولكن لا أومن ايضاً بالنقل، فالاجتهاد فى الفكر لا يمكنه أن يضع لنفسه مسبقاً إطاراً محدداً، المنهج اللائق ليس هو المنهج الدخيل أو الأصيل، انما هو المنهج الناجع الذى يعطى نتيجة، وهذا ليس من قبيل البراجماتية وإنما يتعلق بقدرة المنهج على تأدية ما يهدف اليه .

◆ **هل تعتقد أن المناهج التى تطبق لدينا تحقق الغرض منها؟ هل التحليل النفسى**

كمنهج فى دراسة السلوك الإنسانى يؤدى الغرض منه فى فهم الظواهر؟

● ولم لا ؟! أنا أعتقد أن النقص فى الاجتهاد، وليس فى إدخال الدخيل أو فى قلة الاعتماد على الأصيل . لأنه إذا فكر الإنسان واجتهد، فإن كل ما لديه من أصيل أو دخيل، ليس سوى وسائل للفكر، والفكر يحكم عليه بالسيطرة على موضوعه وعلى المشاكل التى يطرحها، ولهذا بالنسبة لى فإن قضية الأصالة والمعاصرة هى كلام فارغ، لأن الذى يفكر هو حديث وأصيل فى الوقت نفسه . وكل إبداع اذا تم فى جامعة عربية وكان اجتهاداً حقيقياً فهو مفيد بالنسبة للخارج، لأن الحكم عليه هو فى قدرته على تنوير وإضاءة مشكلة وليس ارتباطه بهذا أو ذاك.

◆ **فى هذا الاطار العام للحوار، كيف تفسر ازدياد الحديث فى الآونة الأخيرة عن ثقافة شرقية وثقافة غربية، كيف تفسر العودة إلى هذا الحديث ؟**

● هذه الظاهرة تدل على أن هناك إصراراً على إبراز الفروق أكثر من الإصرار على القواسم المشتركة بين الثقافات .

◆ **كيف تفسر هذا الإصرار إذاً؟**

● أفسره بتفاقم المشاكل العالمية !!

◆ **فى إطار هذا الإصرار على الفروق بين الثقافات، هناك تساؤل يدور فى الغرب مؤداه : أن الغرب أنتج استشراقاً، فلماذا لم ينتج الشرق استغراباً، ماذا تقول عن هذا التساؤل ؟ وهل تدعو لمثل هذا الاستغراب اليوم ؟**

● من الأشياء التى لم تكن سبباً وإنما عبرت عن تدهور الثقافة العربية هو أنها فى ظروف معينة انكمشت على نفسها وأصبحت تجهل كل ما يحدث خارج حدودها، إلا لدى بعض الاشخاص، وهم قلة، من الذين استمروا فى تقاليد الحضارة العربية زمن ازدهارها، لكن المجتمع العربى كمجتمع انغلق على نفسه وقلت معرفته بما يجرى خارج حدوده، وأؤكد أننى لا أرى فى هذا سبباً يفسر مآل ذلك، ولكنى أرى فى ذلك

عنصراً من العناصر الدالـة على تقلص الطلب الثقافى فى المجتـمع العربى، ولهذا فكل معرفة دقيـقة بالغرب قد تكون لها فائدة إلا أن الذى أراه هو أن مجهـود الفكر وما يتعلق بهذا من مجهودات مـختلفة فى الميدان التربوى على وجه خاص أهم بكـثير، لأن معرفة الغرب مـا هى ؟ هل تعنى مـعرفة تـاريخه ؟ هل تعنـى معرفـة مجتـمعاتـه ؟ هل تعنى استجلاء مـقومات حضارته والحداثة التى حـملها كرسالة فى العالم ؟ هذه الأشـياء كلها تنتمى إلى التـساؤلات التى تجعل دائماً الإجـابة عنها متفـاوتة الأهمية وغير حـاسمة فى عالـم - أحبـبنا أم كرهنـا - لا يمكن فيـه الانكمـاش ولا يمكن فـيه الانغـلاق، ونحن مسـتغربون من حـيث لا نشعر وربـما أكثر مـما نظن . بمـعنى أن ما يجـرى فى الغرب يخترقنا ويتجاوزنا وبالتـالى ليست القضية قضية استشراق واستغـراب، ولكنها قضية كيان عربى ينبغى أن يُفْهم، هل له دور ورسالة فى العالم ليـساهم فى تطوير الحضارة العالمية إلى مستوى يجعلها لائقة بالنسبة للناس جميعاً، أم لا ؟

عز الدين قلوز

نعم للاستغراب لكن بشروط

عز الديـن قلوز من الباحـثين المرمـوقين فى السـاحة الثقـافية الفـرنسية ، فـهو «مستغـرب» مطلع على شؤون الغرب وثقافته وتـاريخه ، وقد كان لتجربته كـسفير دائم لتونس فى اليونسكو لسنوات عدة أثر كبير فى إثراء وتعميق خبرته بقضايا وأحداث العالم الغربى . كما ساعد فى التعريف بالأدب العربى ونقله إلى اللغة الفرنسية ، مترجما رواية «السد» لـلمسعـدى ، و «عبد الله» لأنطـون غطاس كرم ، كمـا شارك فى تأليـف كتب ودراسات تدور فى أغلبها حول البلاد الإسلامية فى الفترة الراهنة وحول المواجهات بينها وبين البلاد الأوروبيـة وتاريخ هذه المواجهـات ، وبصفة خاصة مـا يتعلق بفتـرة «عصر التنوير والإسلام» . وأخيرا صـدرت الترجمة العربية للكتـاب الذى شارك فيه مع أندريه ميكيل ودومنيك شيفالييه عن «العرب والإسـلام وأوربا» . كما صدرت له مساهمة مهمة فى الكتاب الذى صـدر أخيراً عن دار «فايار الفـرنسية بعنوان» «الظاهرة الدينـية» بإشراف جان دولومو . ومن المتوقع أن تصدر له قـريبا دراسة جديدة عن قراءة القرآن ، عن دار «فلا ماريون» الفـرنسية . أما وجه «اسـتغرابه» الآخر ، فهو تـدريس الأدب الفرنسى فى جامعـة السوربون ،وكان ذلك مـدخلاً للحديث معـه حول تعريفه للاسـتغراب وكيـفية تحقيقه، وهو ما حدثنا عنه عز الدين قلـوز من خلال رؤيته ونقده لعصر التنوير الفرنسى وكشفه لتناقضات المبادئ التنويرية فى ما يتعلق بالإسلام والبلاد الإسلامية.

◆ **هل كل من يقوم بتدريس الأدب الفرنسى ، والغربى عموماً ، يمكن أن نطلق عليه صفه «المستغرب» ؟**

● فى تقـديرى نعم ، لكن بشـرط أن يقوم المـرء بدراسة هذا الأدب فى إطار يـتسع لجملة ظواهر هذه الثقافة ، وأن يستجوب هذه الثقافة ككل وألا يجعل منها مركز انطلاق المعرفـة الأوحد ، وأن تسمح له ظروفه أن ينظر إلـيها من الخارج ، وبشرط ألا يقـتصر فى الحديث على الخـارج والداخل على الحدود الجغرافية فـقط ، وألا تكون بالضرورة مراكز القيـادة الفكرية فى العالم منحصـرة فى البلاد الغربية ، فالغـرب تعوّد على دراسة غيره ، لا أن يُدْرَس هو من طرف الآخرين وهذا هو الجديد فى الأمر .

◆ **كيف تحققت ملامح هذه النظرة فى أعمالك ؟**

● تخصصت ، كما تعلم ، فى فترة ما يسمى بـ " عصر التنوير " وجعلت موضوع رسالتى للدكتوراه عن «المنهج التاريخى للأب رينال» ومن خلالها أردت أن أسلط نظرة جديدة على فلاسفة عصر التنوير وأفكارهم . ومن حسن حظى كعربى أننى وجدت ضالتى المنشودة فى هذا الفيلسوف الذى يأتى فى الدرجة الخامسة أو السادسة بعد الفلاسفة المشهورين (فولتير ، روسو ، ديدرو) . وكان هذا الأب رينال قد نشر دائرة معارف تضاهى دائرة المعارف التى أسسها ديدرو والموسوعيون وأطلق على دائرة معارفه اسم «التاريخ الفلسفى والسياسى للاوروبيين فى قارتى الهند» . وهو فى الحقيقة يسجل تاريخ استيطان الأوروبيين لمختلف بلاد ما وراء البحار . وقد وصف كتابه بأنه دائرة معارف ثانية ، وأنه يحلل من خلال رصده للظاهرة الاستعمارية الأوروبية جميع المشاكل الفلسفية المطروحة فى ذلك العهد . وكان ينظر إلى كتابه كمرجع من مراجع الفكر الفلسفى والثورى الذى كان سائداً آنذاك ، كما يستشهد به لاحقاً كمرجع من مراجع الثورة. فى الحقيقة كان عمله ، فى الظاهر فقط ، يسلط الأضواء على تاريخ أوروبا فى عوالم ما وراء البحار ، وبنظرة فلسفية من جملة مكوناتها أنها نقد للاستعمار والسيطرة على المجموعات الإنسانية خارج أوروبا ككل ، ونقد للثروة والتجارة المؤسسة على اقتصاد ينطوى على سلب حضارات كاملة وثرواتها وطاقاتها الإنسانية (استجلاب العبيد) . فكان الكتاب يبدأ باستعمار أوروبا لقارة كذا ثم استعمار أوروبا لقارة كذا ، وتحت بند هذا الاستعمار يتحدث عن استعمار الهنولديين ، البرتغاليين ، الفرنسيين ، مع البلدان المستعمرة وعيوبه عندما اكتسحها المستعمر . وفى النهاية ظهر الكتاب فى صورة فلسفية تقدمية ثورية تنتقد الحكم فى الغرب ، لكن حقيقة الأمر غير ذلك ، فالكتاب يبدأ فعلا فى كل أبوابه بهذا النقد الموجه إلى أنظمة الحكم الاستعمارية غير أنه ينتهى إلى خاتمة "واقعية" وأنه لم يكن ليحدث غير ذلك أو أفضل من ذلك .

◆ **ما السر فى ذلك ؟**

● من خلال بحثى التاريخى ، ومن خلال الوثائق المكتشفة حول حياة الرجل ومسيرته ، اتضح أن المقصود من الكتاب ليس النقد الفلسفى والثورى بل الدفاع عن سياسة من استأجره لكتابة ذلك . وتفسير ذلك إن الوزير الذى كلفه بهذه المهمة فى البداية لم يكن سوى الوزير المشهور (شوارول) وزير الخارجية ووزير الحرب والبحرية فى مرحلة حاسمة من التاريخ الفرنسى ، لاسيما التاريخ الاستعمارى . كان هذا الوزير مسئولاً عن سياسة فرنسا خلال حرب دامت سبع سنوات (١٧٥٦ : ١٧٦٣) وانتهت بمعاهدة باريس المشهورة التى أفضت إلى إنسحاب فرنسا من القارة الهندية ومن كندا ، فصار لدى الوزير شوازول رغبة متأججة نحو تعويض ما خسرته فرنسا فى هذين المركزين بالعثور على مراكز استيطان جديدة لم تكن فى حقيقة الأمر سوى تلك البلدان التى كانت تشملها الإمبراطورية العثمانية ، والتى تدعى حركة التنوير العطف عليها والحرص على تحريرها من نير الحكم العثمانى . لكن صادف أن هذا الوزير شوازول أطيح به (يقال ذلك) سنة ١٧٧٠ قبل أشهر عدة من نشر الكتاب الذى استأجر الأب رينال لكتابته ، ومن الغريب ، أن الفكرة ذاتها أى فكرة الدفاع عن سياسة الدولة الفرنسية - تحت قناع الدفاع عن المباءئ الفلسفية وحقوق الإنسان - قد تبناها إرضاء لحركة التنوير التى كان نيكر أحد رجالها ، وقام نيكر بتمويل رينال مرة ثانية لاعادة نشر كتابه الموسوعة . وهو ما قام به رينال فعلا ، لكن بعد شهرين من الإطاحة بنيكر بدوره ، فظهور الكتاب فى نشرتيه جاء بعد الإطاحة بالوزيرين المسؤولين عن نشره ، مما جعل الكتاب يؤخذ على ظاهره أى ككتاب معارضة ، ملتزماً بالمبادىء التحررية لأنه تعرض فى المرتين للقمع الإدارى ولم يفطن أحد إلى أن المقصود من القمع هو حكم شوازول ونيكر وليس النزعة التحررية أو المبادىء الفلسفية المزعومة التى اشتمل عليها الكتاب .

◆ **ألا يوجد أعمال أخرى للأب رينال غير موسوعته المذكورة ؟**

● توصلت أثناء بحثى إلى مخطوطات أخرى لهذا الفيلسوف وهى مجموعة من الفصول لم تكتمل ، فى كل فصل منها كان يقوم بوصف بلد : تونس ، مصر ،

الجزائر ، سورية ، فلسطين ، لبنان ، المغرب . إنه يصف هذه البلدان ويطالب بغزوها وباستعمار من نوع جديد يخالف الاستعمار الاستيطانى ، وأن يتم هذا الاستعمار الجديد على حساب الامبراطورية العثمانية التى كان يحلم بسقوطها فى القريب العاجل . ومما يلفت النظر أن الأب الفيلسوف رينال كان موضع إعجاب شاب فى مقتبل العمر آنذاك هو نابليون الذى كان يتباهى فى مذكراته بأنه حظى باللقاء به كما ادعى كذباً ، كما تباهى بأنه فاز بالجائزة الأولى عن مناظرة موّلها الفيلسوف رينال حول موضوع سؤال : ما أثر دور الحركة الاستعمارية فى تطور أوروبا ؟ وادعى نابليون أنه هو الذى فاز بالجائزة الأولى وليس هذا صحيحا وإنما الذى فاز بها هو "دونو" . وكانت أعمال الأب رينال تكشف عن انتقاد للإسلام من منظور فلسفى ، ثم نجد من وراء هذا الانتقاد مباشرة مشروعا لغزو استعمارى ، فالصلة عندى واضحة بين فلسفة التنوير التى يعتمدها الغرب اليوم كمرجع لحقوق الإنسان ، والحركة الاستعمارية الثانية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر . فإذا شئنا الدقة ، فإن الظاهرة الاستعمارية السائدة إلى يومنا هذا قد نشأت أساساً فى القرن الثامن عشر . فغزو نابليون لمصر كان غزوا استعماريا، غير أن نابليون لم يقدم نفسه كمستعمر كلاسيكى وإنما كفيلسوف يؤدى رسالة مهمة باستعماره مصر وأنه يقوم بمشروع حضارى وإنسانى إزاء شعوب تحتاج إلى هذا الاستعمار لأنها شعوب تجهل قواعد حقوق الإنسان ولأنها مؤسسة على أسس دينية وإجتماعية لا تتماشى أبداً مع هذه الحقوق .

◆ **ما الذى كانت تعكسه مثل تلك النظرية آنذاك ؟**

● فى الحقيقة كان الاستعمار إذا حلّ ببلد من البلدان العربية كتونس أو مصر أو الشام كان ينظر إليه على أنه مكون من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية عسكرية ، وطبقة سفلى (العوام) ، وطبقة وسطى قادرة على التجارة ، وكانوا ينظرون إلى أفراد هذه الطبقة الوسطى بوصفهم ينتظرون بفرح وابتهاج الغزو الفرنسى المقبل على أنه محرر لهم وإمكانياتهم المغمورة . أما وجه الشبة بين النظرية التى ارتكز عليها هذا الاكتساح والنظرة الفلسفية التى كان يرتكز عليها نضال الفلاسفة من أجل تغيير الأوضاع السياسية

والاجتماعية فى بلدانهم ، فهو اعتقادهم بأن البنى الاجتماعية القائمة فى البلدان الخاضعة للحكم العثمانى كانت تشكو من المساوئ عينها التى كان يشكو منها المجتمع الأوروبى وأهمها : أن المجتمع كان قائما على التمييز الطبقى بين أرستقراطية تتمتع بامتيازات ، ورعية محرومة منها . والحال أن ضمن الرعايا شريحة تتصف بالنشاط والحيوية الاقتصادية ، كما أن المجتمع الأوروبى كان يميز النبلاء عن الرعايا مهما كانت قيمتهم أو ثروتهم ، كذلك كان الفلاسفة يرون أن الحكم فى مختلف ساحات الإمبراطورية العثمانية كان يميز أرستقراطية عسكرية من أصل تركى عن جملة الرعايا ، والحال أن من بين هذه الرعية شرائح يؤهلها نشاطها الاقتصادى إلى ممارسة دور سياسى غير الذى تمارسه فى ظل الحكم السائد ، فهى كالبرجوازية التى تطمح إلى التحرر من نير المسيطر ، تتطلع بدورها إلى التحرر من الحاكم التركى .

◆ **فى النهاية هل يمكننا القول إن التنوير لم يكن تنويراً ؟**

● ما يمكننى قوله هو أن تحليل العقلية الغربية فى فترة ينظر اليها اليوم على أنها مرجع لحقوق الإنسان ، يكشف أن وراء موضوعيتها المزعومة تكمن مصالح سياسية . ففلاسفة التنوير لم يتوجهوا إلى الإنسان فى مجمله .وإننى عندما أجد فولتير يتحدث عن الإسلام والمسلمين لا أنظر إليه على أنه يتكلم من منطق فلسفى عام بل من منطق مصالح الناس الذين يقوم بخدمتهم . صحيح أنه كان معارضا للحكم السائد فى فرنسا ، لكنه كان متعاطفا مع مواقف كاترين الثانية الروسية وكان يبتهج عندما تتقدم على حساب السلطان التركى . وكما أشرت من قبل ، فالصلة عندى واضحة بين فلسفة التنوير الأوروبية والحركة الاستعمارية الثانية .

◆ **إذا كانت هذه هى صورة عصر التنوير فى ما يتعلق بحضارتنا ومجتمعاتنا ، فكيف غابت هذه الصورة عن المثقفين العرب المنبهرين بمبادئ التنوير الأوروبى ؟**

● لن أتحدث عن المثقفين العرب بشكل عام ، سأتحدث إليك عن تجربتى وتجربة من سبقنى من التونسيين . ولن أتحدث هنا عن "التنوير" فقط وإنما عن تجربتنا بالثقافة

الغربية ومناهجها بشكل عام . وما سأقـوله يمكن أن يفسر أسباب هذا الانبهار ، ويمكن أن يفسـر غياب الصـورة الأخرى لهذه المبادئ والأفكار والمنـاهج . خذ مثـلا نموذج المسـعدى الذى جـاء قبلى إلى باريس بـنحو عشـرين عاما. مـاذا حدث له ولغـيره من الباحثـين والطلاب العرب ؟ فى الحقـيقة عندما جـاء واختلط بالأساتذة الغربـيين صارت لدية قناعة بأن ما هو موجود لدى الغربيين لا يوجد لدينا مثله ، وأن التاريخ الذى يدرس بالزيتونة مثلا ليس بتاريخ . كان الأساتذة الـفرنسيون يعلّمون هؤلاء العرب ، إلى جانب الحصص الرئيسية فى العلوم الطبيعية والاجتماعية ، بعض الدروس عن الأدب العربى ، فكانوا يقولون لهم عن المتنبى مثلا : من المشكوك أنه ولد سنة كذا وأن الواقعة كذا غير مؤكدة ، أو عن دانتون أنه من المحقق أنه فعل ذلك وأن نـظريته السياسية كذا . . . بينما الأستاذ العربى المحلى كان يدرس تاريخ شخصية عمر بن الخطاب أنه سيد زمانه وأعدل عصـره ، بدون التفـات إلى نقد المراجـع وتمحيص الـواقع . . . كان هناك إذاً عـالمان مختـلفان ، ويبدو لى أن الجـماعات الأولى من المـثقفين الـتونسيين والـعرب ، الذين سافـروا إلى الغرب ، قد تقـمصوا هذه المناهـج والأفكار الغربية ، ولا أظن أنـهم كانوا يدركون أن هذه المنـاهج والأفكار قد تلونت بلون الحضـارة التى نشأت بها بل اعـتقدوا أنها المنـاهج بالمطلق . ولعل طه حسـين من أبرز هؤلاء الذين تأثروا بهـذه المناهج فى كتـابه «الشعر الجـاهلى» حيث شكك فى بـعض جوانبه . ومـثل هذه المناهج تفـسر لنا بصورة عمليـة ، أسباب هذا الانبهار بكـل ما هو آت من الغرب ، والتغافل عـما يكمن خلف المبادئ العامة .

محمد النيرب

مع استغراب بدون استشراق



محمد النيرب فلسطيني مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية ، أمضى دراساته الجامعية فى مصر حيث حصل على ليسانس الآداب عام ١٩٥٥، اشتغل بعد ذلك مع منظمة اليونسكو فى منطقة غزة ، كما عمل بالتدريس فى أعوام ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ فى ليبيا .

وبدءاً من هذا العام استقر فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أعد رسالة ماجستير فى العلوم السياسية ثم أطروحة دكتوراه عن "أثر البترول فى العلاقات السعودية الأمريكية" كما سيصدر له قريبا إن لم يكن قد صدر بالفعل كتاب : " تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية "باللغتين العربية والانجليزية . . وبوصفه أحد الباحثين العرب المقيمين فى الغرب والمهتمين بدراسة الغرب ، بل ومن الذين يدعون لإنشاء مراكز لدراسة الغرب ، كان لنا معه هذا الحوار عن قضايا وآفاق الدراسات العربية عن الغرب بصفة عامة ، ومن واقع خبرته فى الولايات المتحدة بشكل خاص .

◆ **من واقع خبرتك ، كباحث مقيم فى الولايات المتحدة منذ سنوات عديدة ، كيف تفسر ظاهرة أن كثيرا من الباحثين العرب فى الغرب يتوجهون لدراسة قضايا عربية ويجهلون أو يتجاهلون دراسة المحيط الغربى الذى يعيشون فى أرجائه ؟**

● بالطبع الأسباب متعددة ، وتختلف من باحث إلى آخر ، وتختلف الأسباب أيضاً وفقاً للمنطقة القادم منها الباحث . هناك باحث غير متأقلم أو يجد صعوبة فى التوجه نحو دراسة الموضوعات الغربية . وهناك باحث تتغلب عليه مشاعر الخوف ولا يريد أن يقول صراحة ما بداخله حتى لا يؤخذ عليه . وقد تكون أسباب ذلك لدى باحث آخر هو الجهل بالوسط الذى يعيش فيه . وقد يكون هناك سبب رئيسى وراء ذلك وهو أن معظم الباحثين العرب فى الغرب يتوجهون أساساً إلى دراسة العلوم الدقيقة (هندسة ، رياضة ، طب ، كيمياء . . .) بينما الذين يهتمون بدراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية فإنهم قلة قليلة . وكما هو معروف فإن النوع الأول من العلوم لا يعرف هذا التمييز بين موضوعات غربية وأخرى عربية ، بل هو علم وفقط ، ثم تأتى بعد ذلك مسألة

إستخدامات هذا العلم . أما فى مجال العلوم الإنسانية والإجتماعية فإن التوجهات الفكرية والحضارية لا تغيب فى هذه الميادين ، ونظراً لهذا الاختلال فى نسبة الإهتمام بدراسة العلوم الدقيقة (٩٥٪ تقريباً) والعلوم الإنسانية (٥٪ من مجموع الباحثين العرب فى الغرب) يمكن أن نفهم لماذا لا يتوجه الباحثون العرب فى الغرب نحو دراسة ظواهر وقضايا غربية .

◆ **هل تدعو الباحثين العرب إلى مزيد من الاهتمام بدراسة الغرب ؟**

● نعم ، وقد كتبت كتاباً عن التاريخ الأمريكى . فالمكتبة العربية لا يوجد بها كتاب واحد باللغة العربية يتناول هذا التاريخ إستثناء كتيبات مكاتب الإعلام بالسفارات الأمريكية . . .

◆ **عندما تؤلف كتاباً عن التاريخ الأمريكى ماذا تريد أن تقول لمواطنيك العرب فى البلاد العربية ؟!**

● فى الواقع ، شئنا أم أبينا ، فإن لنا علاقات متوترة مع الغرب وبصفة خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية فى العشرين سنة الماضية . وهذه العلاقات تفرض علينا أن نفهم بدقة الحضارة الأمريكية والتاريخ الأمريكى والنظام السياسى الأمريكى وطريقة تكوين الحكومة ، حتى نستطيع أن نأخذ موقفاً صحيحا إذ لا يمكن أن نبنى موقفا من حضارة لم نفهمها . وبالتالى الفهم الدقيق يساعد على حل مشاكلنا كما يشجع الطرف الآخر على أن يفهمنا بدقة ، ما أهدف إليه بكتابى، هو سد حالة فراغ وإعطاء فكرة واضحة عن التاريخ الأمريكى بمفهوم عربى .

◆ **مفهوم عربى عن التاريخ الأمريكى . هذا هو بيت القصيد ، كما يقولون ، لكن كيف ؟!**

● لا أعنى بذلك أننى غيرت فى وقائع التاريخ الأمريكى ، بل كتبت الكتاب بالطريقة التى يفهمها القارئ العربى . فعندما أقول للقارئ العربى إن الشخصية الأمريكية تتميز

بكذا وكذا ، فإنه سيفهمني ، لأنني أتكلم له وأنا أعرف كيف تفهم النفسية العربية الأشياء . وسيعرف القارئ العربى أننى أريد بإخلاص أن يفهم الشخصية الأمريكية حتى يستطيع أن يحدد موقفه منها بعد الفهم الدقيق . وقد ينشأ من خلال المعرفة الدقيقة تفاعل جديد بين الطرفين .

◆ **عندما تدعو إلى فهم دقيق للغرب . وعندما تؤلف كتاباً عن التاريخ الأمريكى قد يفهم البعض هذا على أنه نوع من التبعية والتغريب . ماذا تقول لهؤلاء ؟!**

● فى إعتقادى أن تفسير ذلك يعود أولاً إلى الكاتب ثم إلى القارئ ثانياً فإذا ألفت كتاباً عن التاريخ الأمريكى فإن هذا لا يعنى إننى أشجع التبعية أو أننى تابع بدورى للغرب . إن موقفى مختلف تماماً عن هذا الفهم الساذج ويمكن للقارئ أن يكتشف ذلك من أسلوب الكاتب ومن النتائج التى يصل إليها . وأعتقد أن القارئ الجيد سيفهم جيداً ما يقال والقارئ السيئ سيفهم ما يريد . وفى النهاية لا يستطيع أحد - مهما كان إخلاصه فى التعبير عما يراه أنه الصحيح - أن يتحكم فى طريقة تفكير الناس .

◆ **دراسة الغرب من خارجه ، وبمفاهيم حضارات أخرى مازالت دعوة تنتظر التنفيذ .. فدراسة التاريخ الإمريكى ، على سبيل المثال ، بمفاهيم عربية مازالت تحتاج إلى إيضاح أكثر . . .**

● فى إعتقادى أن هذا الأمر له شقين ، أو هو سلاح ذو حدين ، كما يقولون. فأنا نشأت فى بيئة عربية وتشبعت بثقافتها ولغتها وحضاراتها ، ومن ناحية ثانية درست التاريخ الأمريكى من أهلة . وبالتالى لا شك فى أن طريقة التفكير التى نشأت عليها كشرقى يمكن أن تظهر وتؤثر فى طريقتى لكتابة التاريخ الأمريكى كما أخذته عن لسان أهله .

◆ **المنهج العلمى فى مجال العلوم الإنسانية ، سواء على المستوى التقنى و على مستوى أنماط التفسير ، هل يختلف فى تصورك باختلاف الثقافات والحضارات. . . ؟**

● أغلب الذين يكتبون فى مجال النظرية والمنهج العلمى فى مجال العلوم الإنسانية لا يختلفون حول حدود الموضوعية . وأنه مهما حاول الباحث أن يكون موضوعياً ومتبعاً للمنهج العلمى فإن هناك أموراً لا يمكن أن يتبع فيها المنهج العلمى ، مثلما هو الحال فى العلوم الطبيعية . فنحن – شئنا أو أبينا –لا نستطيع أن نطبق المنهج العلمى الصارم فى مجال العلوم المختصة بالطبيعة البشرية ، فهى طبيعة متحركة ، وطريقة فهمنا لها ليست موحدة بالضرورة . لكن هذا لا يمنع الباحث من الاجتهاد فى تحقيق أكبر قدر من الموضوعية الممكنة . فالباحث يمكن أن يلاحظ تأثير البيئة القادم منها . وأحياناً قد لا يلاحظ هذا التأثير . وبالتالى عليه أن يكون حذراً ودقيقاً بحيث لا يجعل البيئة الأولى ، التى عاش بها ، تؤثر على كتابته وأحكامه . وأيضاً الباحث الذى عاش فى بيئة أوروبية أكثر من عشر سنوات لا شك أنه صار فى موقع يجعله قادراً على أن يكون موضوعياً وهذا ما حاولت أن أقوم به فى كتابى عن التاريخ الأمريكى ، أى أن أكون مخلصاً وموضوعياً فى نقل التاريخ الأمريكى ونقله إلى العربية فى صيغة يمكن للقارئ العربى أن يستوعبها .

◆ فى محاولتك لكتابة التاريخ الأمريكى من خلال مفاهيم عربية فإنك تمارس ما يطلق عليه الآن "الاستغراب" أى رؤية الغرب ودراسته من منظور عربى . هل تعتقد أننا بإمكاننا تأسيس هذا الإستغراب فى الفترة الراهنة ؟

● فى إعتقادى أنه من الواجب علينا أن نشرع فى تأسيس ذلك ، فالظروف الحالية التى يمر بها العالم العربى تحتم عليه أن يفهم بدقة هذه الحضارة الغربية التى خضع ويخضع لها فى نواحٍ عديدة من حياته ، فربما يدفعه هذا الفهم الجيد نحو سلوك أفضل .

◆ هناك من يرى أنه لا يمكن تأسيس هذا الاستغراب بمعزل عن شروط القوة مثلما كان الحال مع الاستشراق عندما كان مصاحباً للهيمنة الأوروبية . وبالتالى يرى هذا النفر أن ميزان القوى الراهن بين الشرق والغرب لا يسمح بظهور هذا الاستغراب الجديد .

● للنهوض بمهام هذا الاستغراب ينبغى أن تميز منذ البداية بين الاستشراق والاستغراب . وينبغى كمجتمع عربى له طموحه نحو التقدم والرقى أن يستفيد من التجربة التى مر بها المستشرقون . كما أن الباحث العربى المقيم فى الغرب والذى يطمع إلى تأسيس مثل هذا الاستغراب يعيش فى علاقة مع وطنه الأصلى ووطنه الثانى ، تختلف كثيراً عن الأجواء التى برز فى كنفها الاستشراق التقليدى .فالاستشراق بدأ تاريخياً فى أواخر القرن التاسع عشر لان هناك دولاً أوروبية لها مستعمرات خارج حدودها . فكانت هذه الدول فى حاجة إلى جهود الاستشراق حتى تتمكن من استغلال أفضل لمستعمراتها . فكان الاستشراق وسيلة الاستعمار الغربى للهيمنة على العالم العربى . بالطبع لم تكن أعمال الاستشراق كلها أدوات استعمارية . وأنا لا أريد أن يكون الاستغراب مثلما كان الاستشراق بل أريد أن يكون أرقى فى التفكير وأنبل فى الأهداف . وينبغى أن يكون هدف هذا الاستغراب هو إعطاء القارئ العربى معرفة أفضل وأدق بالبلدان الغربية ودرجة تطورها ورقيها . فالاستغراب لابد أن يكون متميزاً ومختلفا بصورة واضحة عن الاستشراق . وأعتقد أنهم فى الغرب سيرحبون كثيراً بمثل هذا المشروع ، لأنهم سيستفيدون من هذا المشروع أكثر مما استفادوا من الاستشراق .

رينيه حبشـى

لا شــرق ولا غــرب



رينيه حبشى من المفكرين المتميزين بعطائهم الفلسفى، ومع ذلك لا يعرف الكثير عنه وعن كتاباته داخل عواصم الثقافة العربية . ورينيه حبشى المقيم فى العاصمة الفرنسية منذ سنوات عديدة ، كان قد ولد فى مصر وعاش بها فترة طفولته وشبابه بها ، وقام بالتدريس فى مدارسها الثانوية . ثم سافر إلى لبنان حيث قام بإعطاء دروس فى الفلسفة بالجامعة الأمريكية ، واللبنانية ، ومدرسة المقاصد الإسلامية كما قام بإلقاء العديد من المحاضرات فى دول عربية: مصر، سورية، لبنان. وفى لبنان التى شهدت تبلور إسهامه الفكرى والفلسفى أسس معهد العلوم الاجتماعية داخل الجامعة اللبنانية، كما عين مديراً مساعداً لمركز التعليم والتخطيط فى البلاد العربية التابع لمنظمة اليونسكو . ثم ترأس دائرة الفلسفة بالمنظمة ذاتها فى باريس . كما قام بتدريس الفلسفة فى عدد من الجامعات الفرنسية، ومن أشهر مؤلفاته بالفرنسية : فلسفة لعصرنا ، نحو فكر متوسطى ، نحو فكر ملتزم ، فلسفة وشعر ، ياشرق أين غربك؟ ، معنى التراجيديا ، خبرة الموت ، مين دوبران والبحث عن الشخص الإنسانى .

ورينيه حبشى ، رغم أعماله العديدة المذكورة ، ورغم إسهامه الواضح فى مسألة العلاقة بين الشرق والغرب ، والتى خصص لها أكثر من كتاب ، فإن إسهامه غير معروف بقدر كاف لدى المتابعين للشأن الثقافى داخل العواصم العربية، وربما بدرجة ما ، داخل العواصم الأوروبية أيضا ، ولا سيما باريس التى يقيم فيها منذ عدة عقود وحتى الآن .

وعلى الغلاف الخلفى لكتابه الصادر بالفرنسية ١٩٦٩، والمعنون : ياشرق أين غربك؟ نقرأ تلخيصا موجزاً لخريطة أفكار رينيه حبشى الرئيسية فى هذا الشأن: «هذا الكتاب يطرح واحدة من القضايا الكبرى لعصرنا، فالشرق والغرب يتصارعان، ويدور الصراع على الصعيد السياسى فهل يدور بنفس القدر على الصعيد الثقافى والروحى ؟ السؤال يفرض نفسه عبر تاريخ سياسى أفضى إلى تعارضات زائفة . والإجابة ستكون بدورها تاريخية» .

ويرى رينيه حبشى ، فى تقديم كتابه ، أن قطيعتنا الأخيرة - الكتاب صدر فى عام ١٩٦٩ - مع الغرب كشفت عن طابعها السلبى . وجعلتنا نحصل على عداوة الغرب بدلاً من صداقته . لكنه يرى أيضا أن الانفراجة أو التفاهم السابق فى عصر مسألة الشرق ان أيضاً قد تم على حسابنا وأنه لابد من بحث المسؤولية عن ذلك على ضفتى النهر ...

ويفتش رينيه حبشى عن هذه المسؤولية من خلال حديثه عن الأعراض المرضية للثقافة الغربية ، كما يبحث عن الأعراض المرضية للثقافة الشرقية ليصل إلى فرضيته الشهيرة : لا غرب ولا شرق وإنما طريق متوسطى يجمع ثقافات البحر المتوسط شمالاً وجنوباً .

فى هذا الحوار محاولة للاقتراب من بعض أفكاره ومواقفه حول الفلسفة التى نادى بها حول واقع الفلسفة العربية اليوم وحول التساؤلات التى أثرناها عن حضور أو غياب الفلاسفة العرب المعاصرين، وموقفنا من الغرب بصفة عامة.

◆ **ارتبطت باسمك منذ فترة بعيدة ، فى أواخر الخمسينيات واوائل الستينيات دعوة إلى إسترجاع ثقافة «المتوسط» ودعوة إلى «الشخصانية» كيف تحدد لنا فلسفتك وموقعك الثقافى بشكل عام ؟**

● الفلسفة التى تمحور حولها فكرى وكتاباتى يمكن وصفها بطريقة بسيطة للغاية . أولا لدى احترام كبير لتراث الماضى أى لكل ما كان . ولا يزال حياً من الفكر النابع حول ضفتى المتوسط ولكننى أيضا مهتم بالحاضر، ولا أحتمل الماضى عندما يكون ساكناً جامداً ، وأعتقد ان احترام الماضى يعنى أيضاً تبنى التقدم والتطور وأن ترك الماضى فى حالة جمود هو عدم وفاء وعدم احترام له ... ومحور تفكيرى الأكثر اتصالا بالماضى والحاضر هو مفهوم الإنسان . فالإنسان من وجهة نظر ميتافيزيقية هو تعال ، وهو من جهة أخرى متجذر فى أرض وفضاء وزمان معين ولا يبدو لى أن هناك

تعارضاً بين الأرض والسماء . لم يظهر لـى أبداً أن البعد الدينى يمكن أن يفرمل أو يشل البـعد الزمنى أو الـتاريخى، بل أعـتقـد العكس . وأن ما هـو ابدى فى الإنسان يـتطلب تجـديد الكائن الـبشـرى ومحـيطه . مـا أدعو إليـه من فلسـفة يـمكن أن يطلـق عليهـا «الشخصانيـة» وهى فلسفة متجذرة فى ثقـافة عالمية لأنها تعنى بالشـخص الإنسانى أينما وجد وفى أية لحظة من التاريخ لكن الشخصانية التى أدعو إليها هى شخصانية منتمية إلى حوض المتوسط لأن كل شخص يولد فى تاريخ معين وخريطة معينة. . .

◆ **تحدثت عن الإنتماء إلى ثقافة المتوسط. . لكن كيف تحدد ملامح هذه الثقافة وما هى خصائصها ؟**

● يمكن أن أجيب عن هذا السـؤال بطريقتين أو من خلال زاويتين مخـتلفتين، هناك زاوية أولى لا تهم إلا المثقفين والفلاسفة وهى الزاوية التـاريخية أى التذكير بما كان عليه حوض المتوسط بدءاً من القرن الرابع وحـتى الثالث عشر ، وهناك زاوية يمكن الانطلاق منها نحو تحـديد العقلية المنتمـية إلى حوض المتوسط ، لأنه من الصـعب الحديث عن ثقافة متـوسطية لكن يمكن الحديث عن عقليـة متوسطية . فالبلاد التـى تقع على ضفتى المتوسط قد شهدت منذ القرن الثالث عشر تطورات فى اتجاهات متباينة من حيث الثقافة والأيديولوجيـة والنظم السيـاسية، إلى الدرجة الـتى جعلت من كل بلد يدخـل تعديلات على ثقافة المتوسط ويعطيها مؤشرات مخـتلفة، وأصبحت هذه البلاد المنتمية إلى حوض المتوسط لا تتعرف على نفسها، وبالتالى لم يعد يوجد اليوم «متوسطية» بل «متوسطيات» وصار هناك متـوسطية باللغة العربـية وباللغة اللاتينية الأسـبانية ، الإيطالية ، الفـرنسية، اليوغسلافية ، اليونانية . . . وهذا ما يعـنى تنوعاً فى نطاق هذه المتوسطية لكن قد يكون الأمر مختلـفاً بالنسبة لعالم الاجـتماع الذى أدرك ما هو مشتـرك بين هذه التنوعات وهذه الخصائص أو القسـمات الـمشتركة بين ضفتى المتوسط، ويمكن أن أشيـر لها عفوياً كما تخطر لى الآن : أولاً، هناك معنى وإدراك معين للزمن والمسـاحة ، المتوسطيون يحبون المساحات القريبة . إنهم يحترمونها لـكن لا يصعدون إليها . وكذلك الزمن البعيد سواء

فى الماضى أو المستقبل يحترمونه لكن خيالهم لا يصعد إليه ولا يحاولون إعادة بنائه وإعادة إحيائه ، فالزمن الحاضر والمساحة القريبة هما ما يثير الإنسان المنتمى إلى حوض المتوسط، ونظراً لهذه السمة فإن المتوسطى لا يعرف كيف ينتج نوعاً من البرمجة أو التخطيط لأمد بعيد، لأن الحاضر والمساحة القريبة هى ما يشغله أولاً. وهذه السمة تجعل المتوسطى يعيش حاضره بكثافة وحساسية فى التعامل مع الآخرين . هناك فى عقلية المتوسط ما نسميه بـ «حس العائلة والجماعة» وما يترتب على ذلك من خصائص أخرى كثيرة، وبالتالى لا توجد الفردانية المميزة للعقلية الغربية التى تجعل من طفل فى السابعة عشرة من عمره يدير ظهره لأسرته أو فتاة فى العشرين من عمرها لا تريد ان تسمع شيئاً عن أسرتها بينما خصائص العقلية المتوسطية تختلف تماماً عن مثل هذه العقلية . لكن علينا أن ننسى أن هناك ما هو مقنع وهناك ما هو غير مقنع فى خصائص العقلية المتوسطية. لأن التضامن - وهو إحدى خصائص هذه العقلية - قد يتحول فجأة إلى نوع من التعصب الذى يرفض الآخر ويهدد الوحدة الداخلية. كذلك هناك ما هو غير مقنع فى إدراك هذه العقلية المتوسطية للزمن . إذ يتحول إدراكها للزمن إلى نوع من القدرية التى تنزع المبادرة من الإنسان والتى تشل طاقاته فأحياناً يعتقد المتوسطى بأن المستحيل يمكن أن يتحقق فى أية لحظة، وينتظر المصادفة والحظ وينسى وضع البرامج والتخطيط وتنفيذ ما تم التخطيط له، وأحياناً ينقص هذه العقلية المتوسطية التركيز على دور العقل والمنطق . وهذه هى نقطة ضعفنا، أى أننا لا ندرك الواقع كما تجسد لنا .

◆ **عندما يكون التركيز مفرطاً على العقل والمنطق أحياناً، ألا يكون العقل الأقل والمنطق الأقل انتشارا من المميزات وليس من الآفات التى يمكن أن تؤخذ على العقلية الشرقية ؟**

● بالطبع، فإن الحيوية ، والعفوية التى تميز تقريباً كل بلاد حوض المتوسط سواء الضفة الشرقية أو الضفة الغربية ، هى من مميزات هذه العقلية لكن عندما تكون الطاقات غير واضحة التوجه ، وطالما لم نعرف ما هو الإنسان الذى نريده وما هو

نموذج الديمقراطية التى نريد أن ننخرط فى ظلها ، وطالما لا توجد هذه القيم النهائية التى توجه هذه الطاقات فإن هناك ما يدع وإلى التركيز على ضرورة إعطاء مساحة أكبر للعقل والمنطق فى حياتنا ، وهكذا لا نترك هذه الطاقات تتعرض إلى إغراء بعض القيم التى تسير فى اتجاه غير مفيد . . . وإن كنت لا أريد أن أتحدث عنها هنا .

◆ **هناك عودة هذه الأيام للحديث عن شرق فى مواجهة غرب هل تدعم هذه العودة وجهة نظرك فى الحديث عن عقلية المتوسط أم تنفيها ؟**

● عندما أقول «لدينا» فإننى أعنى باستمرار الضفة الغربية والشرقية من حوض المتوسط ، ولا أعنى فقط الضفة الشرقية . ولم أتطرق فى حديثى إلى وصف العقلية الغربية بصفة عامة التى تسير فى طريق استخدام غير إنسانى للعقل فى طريقه لتهديد المعمورة بكاملها . لكننى لا أسعى لإقامة مقارنات ، أريد فقط تشخيص متوسطيتنا الخاصة ، وما أقوله هنا صالح بالنسبة إلى الناس العاديين فى الضفة الشرقية أو الغربية للمتوسط .فالناس الذين يعيشون فى هذه البلاد ، عندما ينتقلون من بلد إلى آخر يمكنهم التفاهم فى ما بينهم على الرغم من إختلاف لغاتهم ، فاليونانى يستطيع أن يعيش فى مصر وأن يجد من يفهمه جيداً . . . أنا لا أريد أن أدخل فى مقارنة بين العقلية الغربية والعقلية العربية . بالنسبة لى الشرق والغرب هما تشكيلان كاريكاتوريان للكائن البشرى . ولهذا أعتقد أن «المتوسطية» يمكن أن تذكّر هذا أو ذاك بالبعد الحقيقى للإنسان والكائن الإنسانى وبأهمية التضامن الإنسانى الموجود بين الجماعات البشرية ، فالمتوسط قد ورث تراثاً مشتركاً غنياً . وفيه تتقاطع وتتلاقى كل ثقافات العالم وأديانه .

منطقة المتوسط هى التى تملك إمكانيات وجود إنسان المستقبل الأكثر توازناً من الصورة السائدة اليوم سواء فى الشرق أو الغرب . وأنا أتفق صراحة مع مؤرخ متوسطى يعرفه كل الناس هو فرنان بروديل الذى قال إن مركز الحضارة انتقل بدءاً فى القرن ١٥ ، ١٦ من المتوسط إلى الأطلسى . وأن المتوسط انطلاقاً من هذا التاريخ قد صار

صفحة مطوية من التاريخ ، لكننى فى هذه النقطة بالذات ، أفترق عن بروديل رغم احترامى لهذا الإنتاج الضخم الذى خلّفه ، فأنا لا أقبل القول بأن المتوسط صفحة طواها التاريخ ، بل أنظر اليه ككتاب موجود أمامنا وعلينا أن نفتحه وأعتقد أن هذا المتوسط مسجل فى مستقبلنا أكثر مما هو مسجل فى ماضينا . لكن مع الأسف.. كثير من أبناء المتوسط لا يدركون ذلك اليوم ونسوا كل تاريخهم وكل ما هو مشترك بينهم . ودورنا اليوم استثارة وعيهم النائم .

◆ **لماذا لا يوجد فلاسفة عرب اليوم فى اعتقادك ؟**

● إذا لم يوجد فلاسفة عرب اليوم فإنه لنفس السبب الذى ذكرته توا، وهو أن الأجيال العربية منذ القرن التاسع عشر وهى مشغولة بالقضايا السياسية ، وتقود معارك فى هذا الميدان ضد الغرب الإمبريالى وأيضاً ضد السلطات الوصولية التى قادت هذه الشعوب . ففى إطار الصراعات السياسية داخل البلد الواحد أو نزاعاته مع الخارج انطفأت إبداعات المفكرين العرب ولم يعطوا سوى أيديولوجيات بالمعنى السلبى للكلمة، أى تفكير سياسى قصير النظر، ولم نجد من استطاع أن يرفع الرأس ليفكر بقضايا واضحة وقضايا العالم أيضاً .

◆ **بالنسبة لك ما الذى تفهمه من كلمة فيلسوف عربى اليوم ؟**

● الفيلسوف العربى اليوم هو الذى يستثير القيم الأكثر إيجابية فى ماضيه والأكثر معاصرة فى حاضره ووضعها فى حالة تواصل وتناغم مع ما يأتيه من تيارات العلم السائدة اليوم ، الفيلسوف العربى اليوم هو من يحاول النجاح فى رسم ملامح اتحاد بين الماضى والحاضر . لا أرى اليوم فلاسفة عرب يطرحون قضايا الفلسفة أو يفكرون فلسفياً فى قضاياهم !

محمود القيعى

التـرجمة تشجع على التفاهم



محمود الـقيعى من المثقفـين العرب البارزين الذين أمضـوا سنوات عديدة فى عواصم غربية، بين لندن ودبلن وباريس، حـيث درس أولاً الأدب الإنجليزى بجامعة دبلن، ثم انتـقل إلى جامعة الســوربون بباريس التى درس فيـها فنون الترجمـة ثـ قام بالتدريس فى الجـامعة ذاتها لعـدة سنوات. وبعد ذلك التحق فى عـام ١٩٧٥ بمنظمة اليونسكو بـباريس، فى عدد من الوظائف قبل أن يتـولى رئاسة قسم الترجمـة العربية بتلك المنظمة . ثم أختير فيما بعد مديراً لأقسام الترجمة كلها باليونسكو . ونشرت له عدة ترجمـات من الإنجليزية والفـرنسية إلى العربيـة وكتب العديد من المـقالات فى موضوعات لغوية وثقافية .

ومن واقع الخبـرة التى اكتسبهـا، من خلال إقامته الطـويلة فى بلاد الغـرب، وإحاطـتـه عن كثب، بالعديد من جـوانب الثقافة الغـربية ومشكلاتها، وإتقـانه لعدة لغات أجنبية، كان لابد لنا من إجراء حوار معه بحثاً عن موقف جديد من الغرب اليوم . وبطبـيعة الحـال دار الحوار حـول بعض القضـايا المطروحة فى طـيات كتـابنا مع مفكرين وأدباء كانوا على صلة أيضا بإشكالية العلاقة مع الثقافة الغربية .

◆ **مع ازدياد الحديث عن «العولـمة» وامتدادتها الثقافيـة، البعض يرى أنه لم يعد هناك مبرر للحـديث اليوم عن شرق وغرب، أو عن تجديد وتحديد مـوقفنا اليوم من الغرب، فى أعقاب هذه التطورات الأخيرة . كيف تنظر إلى هذا الأمر ؟**

● إن ما يسمى الآن بظـاهرة "العولمة" لايعنى ذوبان الكيانات الـوطنية، أو مسخ الذاتيات القومية، وإذا كان ينبغى لنا أن نعـيش عصرنا وأن نتفاعل مع الآخرين، فلابد أن نحرص أيضا على الدفاع عن مقومات شخصيتنا وحضارتنا . وإذا كانت فرنسا مثلاً قد طالبـت فى محادثات الجـات بما أسمـته «الاستثنـاء الثقافى» حـفاظا على الثقـافة الفرنسية فى وجـه الغزو الثقافى الأمريكى، فلابد لنا بالأحـرى أن اتمسك بهويتنا وأن نصون سيادتنا، فى الوقت الذى يجدد فيه أيضا الانـتفاع بالمزايا الإيجابية للعولمة من حيث الإنفتاح الاقتصادى والتكنولوجى والتـجارى . فالعولمة لاينبغى أن تكون ذريعة

للهيمنـة الغربية على مقدرات الآخريـن. إنها ظاهرة كغيرها من الظواهـر التى شهدها العالم، ولابد أن نتعامل معها بحذر، بل ولابد أيـضاً من أن نسهم فى تحديد معالمها وصياغة قواعدها وضوابطها بدلا من أن نقف موقـف المتفرج ثم نتباكى بعد ذلك عما لحق بنـا من أضرار بسـببـها، وبالتـالى فإن الحـديث عن موقـفنا من الغـرب الآن له مايبرره، بل أراه ضروريا ونافعاً .

◆ **هذا الموقف الجديد من الغرب الذى ندعـو له، ونحرض مفكرينا وأدباءنا على الإضطلاع بواجبهم فى صياغة عناصره وملامحه، هل يبدأ فى تصورك من نقد إدراكنا القديم للغـرب، أم تمنح الأولوية لضرورة إجراء دراسـات شرقية وعربيـة جديدة عن الغرب المعاصر، أم الطريقين معاً فى آن واحد ؟**

● ينبغى بطبيعـة الحال إجراء عملية نقد ذاتى لمسار علاقتـنا بالغرب . لقد عانينا طويلاً ومازلنا من الهيمنة الغربية . ولكننا ارتـكبنا أيضاً أخطاء كثيرة . فلابد من وقفة نحاسب فيها أنفسنا قبل أن نحاسب الآخرين . وأرى من ثم أن موقفنا من الغرب الآن لابد أن يقوم على أسس موضوعية بناء على تجـاربنا السابقة معه، دون أن نغفل حركة التاريخ وضروراتها . وبـالإضافة إلى الدروس المستفادة من المـاضى، يحسن أيضاً أن نستـشرف آفاق المسـتقبل، ومن ثم لابد أن نسـتخدم الوسائـل العصرية لصيـاغة هذا الموقف الجديد، ومن بين هذه الوسائل إجراء دراسات متخصصة ومتعمقة عن الغرب المعاصر حتى يتنسى لنا الإلمام بالمعطيات الجديدة فى عصر يتسم بالانفتاح والتواصل المسـتمر . وأعتـقد أنه حققـنا المزيد من التـقدم، أصبحنا أكـثر ثقة فى أنفـسنا وفى تعاملنا مع الآخرين.

◆ **من خلال خبرتك ومسـيرتك فى ميدان الترجمة، كيف تنظر إلى طبـيعة عملية الترجمة ودورها فى الوقت الحاضر ؟**

● الترجـمة مجال خـصب جداً . وأود أن ننظر إليـها نظرة جادة ونؤمن بـأننا امام قضية ذات أهميـة فائقة، لأنها تفتح أبواب الحوار مع الآخرين، هى نـافذة مهمة على

العلم، وكانت عبر القرون وسيلة اساسية لنقل الـمعارف والثقافات المختلفة من شعب إلى آخر، لأننى أعتقد أن التعرف على اللغة ليس مجرد معرفة لغوية، لكن- كما تعلم - عندما نتعـرف على لغة جديدة، نتعرف عـلى عالم جديد وثقافة جـديدة فالاحتكاك عن طريق الترجمة يساعد فى التوصل إلى مفاهيم جديدة، كما أن الترجمة أيضاً وتعلم اللغات وسيلـة من وسائل التفاهم والتعـارف بين الثقافات والشـعوب. ونحن نعلم أن الدين الإسلامى يدعو إلى التعارف «ياأيهـا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتتعارفوا» فالتعـارف مهم جداً واللغة هى وسيلة هذا التعارف والترجمة، هى أداة ووسيلة مهمة لتحقيق ذلك . وربمـا يحسن أن أضيف هنا أن تعلم لغة أجنبية هو الخطوة الأولى على طريق التسامح وقبول الآخـر . ويوجد باليونسكو برنامج يهتم بتعليم الـلغات الأجنبية كـوسيلة من وسائل نشـر ثقافة السلام والتـسامح . ولعل هذا العامل يضيف بعداً آخر لعملية الترجـمة التى يمكن أن تسهم بقسط كبير فى إزالة سوء الفهم والتشجيع على قبول الآخر والتحاور معه .

◆ **ألا تعتقد أننا فى حاجة أولاً إلى قبـول «الأنا» قبل الحديث عن قبول «الآخر»، وأعنى أن فى ثقافتنا من يـرفضون مقومات الأنا التاريخية، ثـم يحدثوننا بعد ذلك عن التسامح وقبول الآخر ؟ هل هذا معقول ؟!**

● إننى أتفق معك تماما أنه لابد من قـبول الأنا قبل الدخول فى حوار مع الآخر، لكى يكون هذا الحوار مثـمرا وجدياً، إن القصور فى معرفـة الأنا (معرفة الذات) لابد أن يفضى إلى نتائج سلبية، قد يـؤدى إلى الانغلاق والجمود، فى حين أن التطلع إلى التعرف على الآخرين يفترض سلفا قدرا من الثقة بالنفس والانفتاح. وهذا هو ما أدعو إليه وأؤمن به حيث أننى أشـعر أن لدينا من الرصيد الحضارى والثـقافى ما يمكننا من أن نتحـاور على قدم المـساواة مع الآخرين، شـريطة أن نعترف أيضـاً بعيوبـنا ونؤكد رغبتنا فى الاستفادة من تجاربهم .

◆ **هذا من الناحـية النظـرية المجردة . لـكن إذا انتقلنا إلـى عالم الواقع العـملى**

سنجد أن الترجمة لا تكون أحياناً أداة للتعارف، وبالتالى يجوز التساؤل : هل هى أداة للتواصل أم للتبعية ؟

● وجهة نظرى أنهـا أداة للتواصل وليس للتبعـية، عندما أترجم كتاباً أو قـصة فأنا طبعا أتعرف على شىء جديد بالنسبة الىّ، لكن المحك هو : ماذا سأفعل بهذا الكتاب أو القصة أو البحث ؟ هل أترجمة من أجل الترجمه أم أن هناك هدفاً آخر، وبالتالى لا أعتـقد أن هناك تبـعية إذا عـرفنا الهدف الذى من أجـله نترجم، فأنـا أترجم من أجل التعارف والاستفـادة والإبداع أيضاً، فالترجمة وسيلة من وسائل الـتفاهم والحوار وقد تعطينى دفعة للإبـداع والتأليف، ونحن فى عالم متشابك ومـعقد، ولابد من أن نعرف ماذا يحدث فى العالم. والترجمة وسيلة لكى نعرف الآخرين .

◆ **انت تتحـدث عن الدور الإيجابى للترجـمة، لكن هل هذا ما يحـدث فعلاً فى الواقع العلمى ؟**

● هذا موجـود . نعم خذ مـثالاً تجـربة دخول اللغـة العربيـة فى الأمم المتـحدة واستخدامها كلغة عـمل، فقد كان ذلك مكسباً كبيراً للعرب وللذاتية الـثقافية العربية، فاللغة تـكتسب مفاهيم جديـدة، وهذه عملية أكثر أهـمية من الترجمـة فى حد ذاتها، لأننا نتلقى كثـيراً من المفاهيم الجديدة وبالـتالى تصعب عملية التـرجمة لأنه لابد من ترجمة هذه المـفاهيم إلى لغة سلسة مقـبولة من الجميع، وهذه مشكـلة أخرى تقنية، لكن الترجـمة فى حد ذاتها وسـيلة مهمة مـن وسائل التعارف والحـوار مع الآخرين، فضلاً عن الإحاطة بالمستجدات فى مختلف مجالات المعرفة ومسايرة التقدم .

◆ **أثناء حديثك أثـرت مسألة الهدف من التـرجمة، فهل ترى أن هـذا الهدف كان واضحاً لنا ونحن نترجم ؟ هل كانت لدينا استراتيجـية عامة تحدد معنى الترجمة، وما يترجم، وما لا يترجم أم أنها ترجمة بلا هدف فى أغلب الأحيان ؟**

● فى هذه المسألة لا أختلف كـثيراً معك . فعلاً نحن لا نملك استراتـيجية عامة فى مجال الترجمة، هناك محاولات فردية تبذل هنا وهناك فى بلد عربى أو آخر، لكننا

نفتقد إلى استراتيجية كاملة وتخطيـط بعيد الأجل فى هذا المجال .ولذلك تعثر الكثير من تجارب التعريب فى العالم العربى لـعدم وجود رؤية واضحة وبعيدة الأجل فى هذا المجال، قد تبدأ جيدة، ثم تتعطل وهنـاك نوع من الحنين إلى الماضى يعترض عملية الترجمة والتعريب، الترجمة وسيلة وليست غاية بمعنى أنه ينبغى أن نطور هذه الوسيلة فى صالح عـملية التقـدم ولتعزيز الثـقافة العربيـة، لكن أنا معك تمـاماً، فى أن هناك نقصاً فى الاستراتيجية العربية ونقصاً فى التصور العام لهذه العملية .

◆ **فى تقديرك هل هناك أسباب أخرى تفسر عـدم النجاح الكامل لعمليات التعريب والترجمة ؟**

● لابد من أن يكون هناك منـهج متكامل أيضاً فى إعـداد المترجمين، لأن عـملية الترجمة فـى العصر الحديث ليست عـملية سهلة،هناك تخصصـات عديدة . لا تكفى إجادة اللغـة، بل ينبغى أيضـاً معرفة التـخصص، فهى عـملية متكاملـة، هناك ثغرات عديدة، فى بعض الأحيان قد نجد الاختصـاصى المتمكن ولا نجد اللغوى المتمكن، فلا بد من أن تجتمع فى الشخص اللغة والتخـصص أيضاً لكى ينتج شيئاً جيداً، وهذا غير متوفر دائما، بعض الترجمات لا تقرأ، فاللغة ركيكة وفى بعض الأحيان قد تكون اللغة لا بأس بها، لكن المضمون غير مقنع وغير كافٍ وغير أمين، إذاً هناك مشكلات تقنية وعلمية تعترض أيضاً تقدم عمليـة الترجمة إلى جانب نقص التصور العام أو عدم توفر الاستراتيجية البعيدة المدى .

◆ **هل للمراكز الثقافية الغربية، فى تقديرك، تأثير فى عملية الترجمة، فى نوعية ما يترجم إلى العربية ؟ هل يحققون فائدة ما من الترجمة إلى العربية؟**

● أتصور عندمـا نقرر ترجمة كتاب مـا فلابد من أن يكون هذا الكتاب مـفيداً لنا. أعتـقد أننا لابـد من أن نطوع عمـلية التـرجمة لخـدمة أهدافـنا وليس لخدمـة أهداف الآخرين . ومن المـمكن أن نستفـيد من رغبة هذه الـمراكز الثقـافية فى حالة تـرجمة أعمالنا من العربيـة إلى اللغات الاوروبية لتعريف الآخرين بتـراثنا، فما الذى يمنع من

أن نستمع إلى نظرتهم ورغبتهم فى معرفة شىء ما عن التراث العربى فى مرحلة معينة أو القصة العربية الحديثة أو الشعر العربى الحديث .

◆ **حديثك فى هذه النقطة يفتح الطريق لسؤال : هل نقوم صراحة بدورنا فى مجال الترجمة من العربية إلى اللغات الاجنبية أم أننا نترك ذلك لبعض المستشرقين ثم نعيب عليهم جهلهم أو سوء نيتهم بعد ذلك ؟**

● هناك ثغرة فى هذا المجال لأنهم يجهلون الكثير عنا، كما نجهل الكثير عنهم وعن أنفسنا، وهذه مسألة تحتاج أيضاً إلى تخطيط ينبغى أن نخطط، ماذا ينبغى أن ننقل إلى الآخر، فالتعرف على نجيب محفوظ الذى حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨، قد تم من خلال بعض الترجمات المتناثرة، لم تكن هناك خطة كاملة لترجمة أعمال كبار المبدعين العرب.

◆ **ما الذى يحول بيننا وبين إعداد ترجمات جيدة من العربية إلى اللغات الاجنبية للتعريف بكبار مبدعينا ؟**

● أن ذلك يعزى إلى عدم وجود هيئة متخصصة فى هذا المجال، هناك جهود لكنها جهود متناثرة ومشتتة فى العالم العربى، ويا حبذا لو كنا نملك أجهزة قومية أو تابعة للجامعة العربية تقوم بترجمة الأعمال العربية إلى اللغات الأجنبية بطريقة منتظمة وتتوافر لها الموارد الكافية لكى ننقل الكثير عن أنفسنا، لآخرين ونقدم الجوانب الإيجابية والمشرقة للحضارة العربية، وعندما أدعو إلى وجود أجهزة قومية فأنا أعنى أجهزة فعالة ومنتجة وتتوافر لديها الرؤية الكاملة والحماس وإرادة العمل، نحن نتحدث كثيراً بطبيعة الحال، والإنتاج محدود جداً .

◆ **فى تقديرك لماذا هذا الحماس غير موجود ولماذا الرؤية والإرادة غائبتان ؟**

● هذه مشكلة عامة، هناك نوع من الانحسار فى العالم العربى ونحتاج إلى قدرات تنظيمية هائلة وإلى دوافع كثيرة لكى نتغلب على الكثير من العقبات وكثير من

المشكلات، فالشباب العربى مبدع وينتج فى الخارج وفى المنظمات الدولية، فلماذا لا يحدث ذلك داخل البلاد العربية ؟ أعتقد أنها مسائل تنظيمية فى نهاية الأمر وتتعلق بالإرادة السياسية، فالترجمة كنشاط ثقافى تندرج ضمن نظام متكامل، فإذا صلحت أشياء أخرى قد تصلح الترجمة أيضاً، إذاً هى قضية عامة ولها جوانب متعددة ومتشابكة .

◆ **فى إحدى محاضراتك فى المركز الثقافى المصرى (بباريس) تحدثت كثيراً عن مشكلة التعريب، نريد أن نعرف كيف تنظر إلى أسباب تعثر عملية التعريب فى بعض الأقطار العربية ؟**

● عندما أتحدث عن مصر ألاحظ أننا نرسل بعثات دراسية إلى الخارج منذ بداية القرن التاسع عشر، فإلى متى سيستمر هذا الوضع ؟ ولماذا لا ننشىء مراكز للبحوث فى مجالات معينة كى يفد إلينا الآخرون ليستفيدوا مما لدينا من علوم تتعلق بنا، فى رأيى أنه قد آن الأوان لكى تتوقف هذه الحلقة المفرغة المستمرة ونبدأ فى الإبداع والاجتهاد، ولنبدأ بقضية التعريب لأنها ضرورة وضرورية قومية ملحّة. التجربة تتعثر من حين لآخر . لكن أعتقد أننا لابد من أن نحقق فيها تقدماً، وفى هذا فليتنافس المتنافسون .

◆ **عندما تقول «تعريب» . . تعنى تعريب ماذا ؟**

● أعنى استخدام اللغة العربية فى التعليم والبحوث والتأليف، عندما نبعث طالباً ليحصل، على الدكتوراه باللغة الإنجليزية يعود ولديه رغبة للتدريس باللغة الانجليزية لأنه درس بها، وهكذا تستمر الحلقة، فى تصورى أن اللغة العربية تتوافر لها جميع المقومات لأداء هذه العملية، لكن هناك نكوصاً وتقاعساً عن الإقدام على هذه التجربة والخوف من الانقطاع عن العالم، وننسى أن اليابانيين يدرسّون كل شىء بلغتهم القومية، إسرائيل تدرس كل المواد باللغة العبرية فى وقت كادت فيه هذه اللغة تندثر، وقل الشىء نفسه عن بولندا وفنلندا ودول أخرى كثيرة .

◆ **ما الذى لا ندرسه باللغة العربية فى جامعات بلادنا ؟**

● إذا أخذت حالة مصر، هناك الطب والهندسة والصيدلة والعلوم وطب الأسنان (أى كل ما هو تطبيقى يتم تعليمه باللغات الأجنبية) وتدرس العلوم الأخرى باللغة العربية فلماذا هذه التفرقة ؟ ألا تتوافر لدى اللغة العربية المقومات الكافية ؟ هذا غير صحيح، اللغة العربية ليست عاجزة . إنما ليست فقط وسيلة للتعبير، وإنما هى أيضاً منهج فكر، وطريقة حياة، وهنا تنشأ التبعية بمعنى أننا نظل نتلقى ولا نبدع، نتلقى باللغات الأخرى ونستخدمها فى التربية والتنشئة والتعليم فيخرج المواطن وهو يعيش ازدواجية، وفى وعيه أن كل جاد لابد من أن يكون بلغة اجنبية،أما الفنون والثقافة والآداب فيمكن أن تكون باللغة العربية، وأنا أعتقد أن هذا منزلق خطير جداً وأننا لا بد من أن نقتحم مجال التكنولوجيا والعلوم باللغة العربية، وليس فقط الشعر العربى بل التكنولوجيا العربية والهندسة العربية وغزو الفضاء. . .

◆ **كيف تنظر إلى تجربة التعريب فى كل من الجزائر وسورية ؟**

● فى سورية التجربة تسير على ما يرام وفى الجزائر تتعثر إلى حد بعيد لاسباب تاريخية، لأن اللغة العربية كانت شبه غائبة، وبالتدريج بدأت تنتشر لكن اعتقد أنه بدأ تطور جديد فى الجزائر، وهو عدم الإصرار على أن تكون اللغة الفرنسية هى اللغة الأجنبية الوحيدة، لكن التجربة ما زالت تواجه الكثير من الصعوبات .

◆ **كيف تنظر إلى المستقبل فى ميدان الترجمة والتعريب؟**

● أعتقد أن المستقبل مشرق على الرغم من السلبيات، اذ كلما تماسك العالم العربى وتجاوز خلافاته، كان أقدر على تحقيق إنجازات فى مجالات عديدة ومنها مجال الثقافة والترجمة والتعريب، وأنا أعتقد أن العروبة هى ثقافة فى المقام الأول، وأن الثقافة هى التى تجمع بين العرب . بغض النظر عن التقلبات السياسية . يمكن أن يكون هناك تنوع سياسى لكن هناك وحدة ثقافية هى الأساس، وهى ما تفتقر اليه

أوروبا حالياً فى كل ما تسعى إليه من وحدة . هى تفـتقر إلى وحدة ثقافية، قد تكون فى أوروبا تصورات ثـقافية مشـتركة، لكن هناك لغـات عديدة وتاريخ ينوء بكثـير من الاضطرابات والانقسامـات السياسية والثقـافية وما شابه ذلك، بينما نـحن لدينا رصيد ثقافى هائل جداً، كما يوجد لدينا كثير من الإمكانات، ولكن للأسف لم نستغلها ولا بد من أن يستثمـر هذا الرصيد وهذا التراث لاستشراف القـرن الحادى والعشرين بروح وثابه والتعامل مع العالم بطريقة عصرية حديثة .



أمين معلوف

مع تعدد الإنتماءات والحضارات



حقق أمين معلوف : من خـلال كتبه الشهيرة، نجاحاً كـبيراً لدى وسائط الإعلام الفرنسية، ولدى جمـهور القراء باللغة الفرنسية، وكان كتابـه «ليون الأفريقى» قد حصل على المرتبة الحادية عـشرة من بين أفضل عشرين كتابا صدرت بـالفرنسية عام ١٩٨٦ . كما حصلـت روايته "سمرقند" على جائزة دار الصـحافة، وقبل ذلك كان كتابـه الشهير «الحروب الصليبية» موضع حفاوة وترحيب داخل الأوساط الثـقافية بتياراتها المختلفة فى فرنسا . . واستمر هذا الاهتمام بأعمال أمين معلوف الأخرى التى توالت فى صدورها " صخرة طانيوس، حدائق النور، سلالم الشرق . . .

وربما يكـون أحد الأسباب الرئـيسية التى أدت إلـى انتشار ونجـاح روايات أمين معلوف التـاريخية أنهـا تمس مناطق الحدود بين الثـقافات والحضـارات . وهى مناطق يتطلع إليها الكثيرون بشغف وفضول وحب وكراهية فى أحيان كثيرة يقول معلوف فى هذا الشأن: إننى أفكر دائما فى مسألة العلاقـة بين الشرق والغرب، وهذه العلاقة هى محور أعمالى، لكن صـياغتها تختلف من عـمل إلى آخر . ففى كتابى عن الحروب الـصليبية كانت العلاقـة علاقة تصادم . وفى كتابى «لـيون الأفريقى» كانت سيرة ليـون تجمع بين الشرق والغرب، وفى كتابى «سمرقند» برغم أن الاهتمام الأكبر كان يتعلق بصدمة الشرق إلا أن هذا الاهتـمام كان يعـكس فى الوقت نفســه صورة الشـرق كما يراهـا الغرب . فالراوى فى «ليون الأفريقى» كان شرقيا بينما الراوى فى سمرقند كان عربيا .

ويرى أمين معلوف أن اختيار شخصياتـه التاريخية قد جاء بمحض الصدفة وأنه لم يحاول عمداً أن يقحم أحداث الحـاضر فى أحداث الماضى، وإن كان لم يغب عن ذهنه وجود تشابهات . لكنه آثـر فهم أحداث الماضى وشخصياته من داخلهـا، ويعتمد على تقنية محددة فى إعداد رواياته التاريخية تسـتند فى المقام الأول على الوقائع التاريخية . ففى «ليون الأفريقى» حافظ على الأحداث التاريخـية فى أدق تفاصيلها، كرحلات ليون، سقوط غرناطـة، معركة القاهرة بين العثـمانيين والمماليك، أو سـقوط روما . كل هذا يرويه معلوف من دون تدخـل من جانبه . لكن عندما كان الأمـر متعلقا بشخصـية ليون

الأفريقى وحياته الشخصية، تدخل خيال المؤلف، لأن المعلومات، كما يقول، لم تكن متوفرة . فالمؤلف هنا لا يكتب سيرته الذاتية - رغم وجود ملامح كبيرة من حاضر المؤلف - وإنما حاول تقديم هذه الشخصيات. وفهم ما كانت عليه عقلية ونفسية ليون الأفريقى أو عمر الخيام، قبل أى شئ آخر.

◆ **كيف تفسر النجاح الذى حققه كتابك «ليون الأفريقى» وأى العوامل فى تصورك هى التى ساعدت أكثر على انتشار الكتاب بين القراء الفرنسيين، فضلاً عن الترحيب الذى حظى به فى أجهزة الإعلام الفرنسية؟**

● أعتقد أن شخصية ليون الأفريقى أثارت شيئاً من الفضول والاهتمام فى أوساط النقاد والقراء، حتى أن الاهتمام بهذا الكتاب كان أكثر مما توقعت شخصياً، فشخصية «ليون الأفريقى» كانت منسية إلى حد ما. لكن يحدث أحياناً أن ينجح كتاب فى إثارة الاهتمام بشخصية قديمة، خصوصاً إذا كانت هذه الشخصية لها رنينها الخاص. . «ليون الأفريقى» يوحى بشئ أفريقى، بعيد وساحر إلى حد ما وأعتقد أن هذا ساعد فى الاستقبال الذى حظى به هذا الكتاب .

◆ **ألا تعتقد أن هناك أسباباً أخرى ساعدت على انتشار الكتاب أكثر مما يوحى به اسم «ليون الأفريقى»، وألا تعتقد أن شخصية ليون الأفريقى، بغض النظر عن رنين اسمها تمثل شيئا ما ساعد فى نجاح الكتاب؟**

● الحقيقة أن شخصية «ليون الأفريقى» كانت تمثل نظرة إلى الحياة . . نظرة إلى الانفتاح الثقافى والحضارى، ورفضاً للتزمت والانغلاق .

◆ **لهذا السبب طرحت السؤال ؟**

● بالطبع هذا عنصر ساهم - إلى حد بعيد - فى إثارة الاهتمام بهذه الشخصية، وأعتقد أيضاً أن هناك تشوقا إلى رؤية وجه آخر لحضارة عربية وإسلامية، وأعتقد أن هذه الشخصية التى عاشت فى القرنين الخامس والسادس عشر تمثل إلى حد ما، هذا الوجه الآخر، الذى نسميه الأندلسى .

◆ **كيف تعرفت إلى شخصية «ليون الأفريقى» وهل كانت هناك أسباب محددة دفعت بك لكتابة سيرته ؟**

● الحقيقة أننى اكتشفت هذه الشخصية بالصدفة . كنت أجرى بحثاً عن ابن بطوطة، فاكتشفت هذا الرحالة الآخر الذى لم أكن أعرف اسمه وقتذاك . وما أن اكتشفت أنه عاش مراحل مختلفة من حياته فى غرناطة ثم فى فاس ثم فى القاهرة ثم فى روما حتى أثار اهتمامى إلى حد بعيد، وشعرت أنه يمثل رمزاً ما لشخصية مشرقية ومغربية، متوسطية بشكل عام، تنقلت ضمن حضارات مختلفة وانفتحت على حضارات مختلفة، وربما أنى وجدت عناصر تشابه مع أوضاع قريبة منا . لا شك أن ماحدث بأهل الأندلس حدث بآخرين فى القرن الذى نعيشه الآن ؛ وهذا طبعاً أثار مشاعر معينة عندى ودفع بى إلى الاهتمام بهذه الشخصية .

◆ **هل هناك معانٍ أو قيم معاصرة تنشدها، هى التى دفعت بك لتسجيل سيرة "ليون الإفريقى" ؟ بمعنى غياب قيم كالتسامح وغيرها من واقع اليوم، هل تكون وراء هذا العمل أو مضمرة بصورة رئيسية فى ثناياها ؟**

● لا شك أن غياب التسامح وتراجعه اليوم هنا من العناصر التى دفعت بى للكتابة عن هذه الشخصية، طبعا لم أحاول فى الحديث عن القرن الخامس عشر والسادس عشر، أن أزج فى حديثى عناصر من حياتنا اليومية، لكن لا شك أن اهتمامى بهذه الفترة، وبهذه الشخصية بالذات، له علاقة بمشاهداتى الحالية. كان دائماً هناك وجود للتسامح وعدم وجود التسامح . هناك تناقض وتعايش بين الاتجاهات، سواء فى الحضارة العربية أو الحضارة الغربية . هذا لم يتبدل، وإن كانت الشخصيات والظروف قد تبدلت لكن هناك تيارات تاريخية نجد ملامحها فى الماضى والحاضر على السواء .

◆ **هل تعتقد أن التسامح المضمر فى شخصية «ليون الأفريقى» لم يعد له ما يناظره فى عالم اليوم ؟ أو هل التسامح فى الماضى كان أكثر مما هو اليوم ؟**

● بالإجمال، أقول: لا، مع أننا نواجه اليوم مراحل صعبة ونواجه تصرفات فيها

الكثير من الانغلاق والتزمت، إنما ممـا لا شك فيه أن الوضع الإجمالى هو اليوم أفضل مما كان قبل خمسة قرون، لكن الأكيد كـذلك أن التطور ليس كافياً وهناك عناصر كبيرة كانت بارزة فى الماضى ولا تزال موجودة، عناصر من التشنج ورفض رؤية الغير كما هو سواء أكان فى الغرب أم فـى الشرق . هذا من جهة، ومن جهة أخرى أعـتقد أن الفارق بين العـالم العربـى والعالم الغـربى كان مـحدودا، وكلمـا رجعنا إلى الـوراء لاحظنا أن الفارق كان أكبر لمـصلحة الحضارة العربية . فى القرنين الخامـس عشر والسادس عشر كانت الحـضارة الغربية قد بدأت فـى تحقيق تقدم مادى يـتفوق على الحضارة الـعربية، لكن الفارق لم يكن حاسماً آنذاك . وإذا عدنا إلى الوراء نجد أن الفارق سينقلب وتصبح الحضارة الـمهيمنة فكرياً وعـلمياً وحضارياً هـى الحضارة العربيـة .وقد يكون ذلك من أسباب مـحاولاتى العودة إلى الوراء إلى تلك الفـترات لأنى أجد فيهـا ما يعيد الثـقة بما يمكن أن تصنعه الحضارة التى أنتمى إليها .

◆ **وأنت ترسم سيرة «ليون الأفريقى» ما هى حـدود تدخلك فى رسم هذه الشخصية بجانب الوقائع التاريخية ؟**

● كل ما يتعلق بالحـياة الشخصية لـ «ليون الأفريقى» تدخلت فـيه من واقع خيالى، لأن المعلومـات المتوفرة عن عـائلته وأصدقائه، وكل هـذه الجوانب الشخصـية، كانت محدودة للغـاية . ومن هنا برز عملى الروائى. أمـا كل ما يتعلق بالأحداث التـاريخية، كرحـلات ليون الأفريقى أو تفـاصيل سقـوط غرناطة أو معـركة القاهرة بـين العثمـانيين والمماليك، كل هذا رويته من دون أى تدخل من جانبى، وقد فصلت إلى حد ما بين ما يتعلق بالحياة الشخصية واليومية لليون الأفريقى والأحداث التاريخية .

◆ **إلى ماذا كنت تهدف صراحة من تدخلك الروائـى أو الخيالى فى رسم سيرة ليون الأفريقى ؟**

● الهدف هو أولاً محاولة فهم ما كانت عقليـة ونفسية ليون الأفريقى بالفعل آنذاك،

هذا هو الجانب الأول، وهو الجانب الذى أعطيتــه الأولوية دائماً، لأن مهمتى فى هذا النوع من العمل هى التطابق مع الواقعية التاريخية، لكن لا شك فى أن بناء أى شخصية خيالية يفترض تدخل المؤلف، وربما إدخال عناصر من وحى الخيال، أو من اهتمامات المؤلف إلى شــخصيته الـروائية . وقد جرى ذلك فى كـتابى . لست أعتقـد أننى قادر على الفصل بالتحديد بين العناصر التى هى من صلب شخصية ليون الأفريقى والعناصر التى أدخلتها أنا .

◆ **هل تقول أنك «ليون» معاصر ؟**

● طبعا هناك فروقات بين المراحل والقرون، لـكننى أشــعر بعلاقة فكرية وجدانية مع هذه الشخصية، إننى أشعر أن نظرة «ليون الأفريقى» إلى تعدد الحضارات واستعداده للتكيف مع مختلف حضارات المتوسط، هو قريب من نظرتى أنا ومـن واقعـى بالفعـل . فأنا ولدت فى لبنان وأعـيش فى فرنسا منذ أكثر من عشـــر سـنوات، وشئت أم أبيت فأنا ابن حضارتين وإن لم يكن ذلك بالدرجة نفــسها . وليون الأفريقى ابن حضارتين . وأنا متوسطى وهو متوسطى، هنــاك قرابة معينة .

◆ **موقعك ككاتب يشابه اذاً موقع ليون الأفريقى ؟**

● إن تشابه محدود . لم أحاول بأى شكل مـن الأشكال أن أكتب قصتى الذاتية . لابد ان تدخل بالطبع عناصر ذاتية من شخصيــة المؤلف فى شخصية الرواية . لكن لم أكتب سيــرة ذاتية على الإطلاق، وإنما حاولت أن أقـيم المرحلة التى عاش فيـها ليون الأفريقى وأن أقدمها للقارئ بأمانة ؛ وهذا هو هدفى الأساسى.

◆ **أنت تكتب سيرة «ليــون الأفريقى» المتعدد الانتماءات، مــا هو موقعك ككاتب؟ صحيح قلت إنك ابن لحضارتين، لكن ألا ترى أن هذه صيغة عامة؟ أليس الكاتب فى الأساس هو ابن لحضارته الذاتية أولاً، ثم تأتى بعـد ذلك مرحلة التواصل والتفاعل مع الحضارات الأخرى ؟**

● من المؤكد أننى ابن حضــارة . لكن أنا مقتنع اقتناعا شديداً بأن الحـياة العصرية

تفرض علينا أن لا نـحصر انتماءنا . أنا أؤمن بـتعدد الانتماءات . أنا أنتـمى إلى قريتى وإلى بلدى وإلى العالم العربى، وأنتمى إلى المتـوسط وأنتمى إلى حضارات كثيرة وإلى أفكار كثيرة وإلى تيارات كثيرة، وأنا لا أؤمن على الإطلاق بفضيلة الإنتماء الواحد .

◆ **أنت هكذا لست «ليون الأفريقى» بل ليون العالمى .**

● أنا أؤمن بتـعدد الإنتمـاءات . إيمانى العـميق هو أن الإنسـان ينبغى أن يتـخطى الانتماءات الضيقة إلى الانتماءات الأوسع . هذا اعتقادى طبعا قد يكون ذلك ساذجاً . لا أحاول ان أطبق ذلك علـى الصعيد العملـى، أو على صعيد سيـاسى، لكن هذه هى نظرتى الشخصية . أنا أعتقد أن كل الحضارات يمكن أن تلتقى فى أى إنسان . وأن كل إنسان يجب أن يقبل انتماءه إلى حضارات مختلفة وأحياناً متضاربة .

◆ **إذا كـانت الأمور تسـيـر على هذا النحـو فلم كل هـذه الصراعـات والأحقـاد والحروب، وكيف يكون الانتماء إلى حضارات مختلفة فى مثل هذه الأجواء؟**

● ما قلتـه هو أمنيات وليـس تصويراً للواقع . أنا أقـول إن الحضارات قـادرة على الالتقاء، ولا أقـول إنها ملتقيـة . وأن أى إنسان يجب أن يطمح إلى تحويل نـفسه إلى جسر بين الحضارات المختلفة . وهذا على أى حال طموحى، ولا أقول على الإطلاق إن على كل إنسان أن يقـوم بالفعل بهذا الدور . أنا أفرق دائمـاً بين وصف الواقع وبين التمنى . طـبعا ما قلتـه هو من باب التمنى . أمـا الواقع فهناك صراعـات ربما ستـمتد أجيالاً وأجيالاً، وهذه هى سنة العالم . لكنه طموحى.. أكرر . . .

◆ **أن تكون جسرا بين الحضارات . . .**

● أن يكون أى إنسان . طبعا أنا دورى محدود للغـاية كفرد فى مرحلة معينة أحاول أن أفهم العالم الذى أعيش فيه والمرحلـة التى أعيشها، وأن أحاول أن أفهم جذور هذه المرحلة تاريخيا . هذه هى حدودى، لكن ما أقوله هو أشمل من ذلك.

◆ **متفق معـك فى ضرورة أن يكون هناك تسامح وتفاعل مع الـحضارات الأخرى، لكن ألاحظ أنك جعلت طمـوحك، أن تكون جسـرا بين الحضارات، فى صـيغة يغيب**

منها الموقع الذاتى الحضارى كما لا يبدو ظاهرا موقع الشخص الذى سيصير جسرا .

● أنا موافق على هذه النقطة . أعتقد بالفعل أن على الإنسان ان ينفتح من موقع ما . وقد تكون الأزمة العميقة للمجتمع العربى حاليا أنه فقد ثقته بموقعه وحضارته، وما أقوم به هو مساهمة متواضعة لمحاولة إعطاء نفسى والإنسان العربى ثقة متجددة بما أنتجت حضارته، وبما يمكن تنتج فى المستقبل . شعورى أن الإنسان لا يمكن أن يفهم حضارة الآخرين، ويتفاعل وإياها إن لم يكن يثق بحضارته هو . ومشكلة العالم العربى حاليا هو أنه فقد الثقة بحضارته، وهذا يدفع به إلى نتيجتين مختلفتين : إما التخلى عن تلك الحضارة والتنكر لها والركض وراء حضارة الآخرين، وإما الانغلاق ضمن تلك الحضارة خوفا من أن تؤثر فيها حضارة الآخرين . وهذه القوقعة تؤدى إلى الإفقار، فى رأيى أن من يثق فعلا فى حضارته قادر فعلا على التفاعل وحضارات الآخرين من دون أن يفقد حضارته . . . الأمير شكيب أرسلان يقول إن مشكلتنا أننا منقسمون بين تيارين «الجاحدون والجامدون» الجاحدون هم الذين يركضون وراء حضارة الآخرين ويتخلون عن حضارتهم، والجامدون هم الذين ينغلقون على حضارتهم ويرفضون أى حضارة أخرى ويصبحون أسرى ضمن حضارتهم . وفى رأيى أنه علينا أن نتخطى ذلك، أن نحافظ على علاقتنا بحضارتنا، وفى الوقت نفسه نتفاعل وحضارات الآخرين . وهذا ممكن فى رأيى .

◆ **وما الذى يحول بين ذلك فى تصورك ؟**

● الذى يحول دون هذا هو، أولاً : عدم ثقتنا بحضارتنا . عندنا شعور بأن حضاراتنا تخطاها الزمن، وبالتالى كثيرون يركضون وراء حضارات الآخرين معتبرين أن حضارتهم فقدت أية إمكانية للقيام بدور فى عالم اليوم، وهناك الخوف على حضاراتنا واعتبارها دائماً حضارة مهددة وعاجزة عن مواجهة العصر، وبالتالى محكوم عليها ان تنغلق وتحاول أن تجد أى شئ ضمن ماضيها من دون أى انفتاح على الآخرين . وفى رأيى أن هذا يؤدى النتيجة نفسها .

◆ **هل تعتقد أن طبقة المثقفين العرب على وعى بهذا المأزق، ويريدون الانطلاق فعلاً من الواقع الحضارى الذاتى لأمتهم إلى الانفتاح على الآخرين.. أم أن هذه القضية ليست واضحة بدرجة كافية- بعد- لديهم ؟**

● فى رأيى أن الأمراض المتفشية فى الجسم العربى هى متفشية فى المثقفين قبل سواهم . لكن المثقفين العرب فئة واسعة جدا من التيارات والمواقف . ولا يمكن ان نحدد موقفا معينا للمثقفين العرب . ليس هناك فئة واحدة لها مواقف محددة . بالطبع هناك من بين المثقفين العرب من ينطبق عليهم تعبير شكيب أرسلان عن «الجامدون والجاحدون» .

◆ **هل هم الغالبية ؟**

● لا، الغالبية تفترض أن يكون هناك استفتاء لتحديد ذلك، لكن المناخ المهيمن هو شعور بالعجز لسوء الحظ، يعبر عنه إما بالهروب نحو حضارات الآخرين وإما بالانغلاق . بينما الذين يؤمنون بأن لحضارتهم مستقبلا كما كان لهم ماض، وأنها قادرة على اعطاء شىء للحضارة العالمية اليوم وفى المستقبل، وأنها قادرة على الظهور بوجه مشرق وقادرة على منافسة حضارات أخرى والتفاعل وإياها والدخول معها أما فى نقاشات حضارية أو أعمال مشتركة فى رأيى أن هذا الاتجاه لا يزال اتجاها محدوداً .

آفاق الاستغراب اليوم ؟

إلى أى مدى وصلت دعوة الاستغراب ؟ ماهى العقبات والمشاكل التى واجهتنا ؟ وما هو مصير هذه الدعوة الجديدة ؟

شارك بها :

حسن حنفى
حسان عرفاوى
أحمد المطيلى
أحمد الشيخ
هاشم صالح
جيرجوار ميرشو
مجدى عبد الحافظ
محمد سيف
علاء طاهر
محمد العلانى

عقدت هذه الندوة فى باريس عام ١٩٩٠ . واخترناها للنشر من ضمن عدة ندوات كان المركز قد عقدها مع عدد المفكرين الفرنسيين والعرب لأنها أقرب إلى موضوع الكتاب ولأنها توضح الجهد المبكر الذى بذله المركز فى التأسيس والدعوى إلى دراسة الغرب من منظور جديد .

تمهيد للحوار :

ربما يكون من السابق لأوانه الحديث عن حصيلة دعوة الاستغراب اليوم . فالاستغراب لم يتحول بعد إلى مبحث علمي لـه تراثه وأدبياته، بحيث يمكن التنقيب فى هذا التراث. ومع ذلك ثمة المشروعية فى الحديث عن حصيلة ما تم حتى الآن فى طريق الدعوة إلى الاستغراب، بل ربما يكون هذا الحديث أكثر مشروعية. . لماذا ؟

أولاً: لأن الفكر التجديدى والتحولى الذى يحمله الاستغراب يفترض دوماً المساءلة فى كل لحظة وحتى لا يكون هناك انحراف عن الأسس والمقومات الحقيقية لمثل هذا المشروع .

ثانياً : لأن هذه المساءلة التى تفترضها عملية إجراء حصيلة ما تم فى هذا الطريق قد تساعد فى تبديد المخاوف التى يثيرها الحديث عن الاستغراب فى الغرب كما فى الشرق .

فى هذا الأفق يطرح للنقاش المحاور التالية :

- استعراض عام لدعوة الاستغراب : كيف بدأت . . إلى أين وصلت .
- المخاوف التى أثارها هذا المشروع وما الذى يخيف فى هذا الاستغراب ؛ وكيف يمكن تبديد هذه المخاوف، وتوضيح الوجه الحضارى لهذه الفكرة .
- كيف يتحول الاستغراب من دعوة يطلقها البعض هنا أو هناك ليصير إتجاها حضاريا جديداً، وله إسهاماته فى إطلاق وتعميق أسس الحوار الحضارى الحقيقى الذى لم تبدأ بشائره بعد !!

جيرجوار ميرشو : لابد لنا فى البداية من الاتفاق حول المصطلحات التى نستخدمها فى حوارنا أنا أرى أن مفهوم الاستغراب غير محدد المعالم ، وقد يحمل معه التباساً لأنه قد يؤدى إلى استشراق معكوس . وأقترح أن نبحث عن لفظة أخرى ، حتى لا يفهم أننا ننطلق من مركزية إسلامية مثلما انطلق الاستشراق من مركزية غربية .

أحمد الشيخ : أعتقد أننا نتفق مع جيرجوار فى ضرورة توضيح المصطلحات والمفاهيم التى نستخدمها منعاً لسوء الفهم بيننا وبين الآخرين . وقد لمست من خلال حواراتى حول هذه القضية ، ومن خلال مشاركتى فى ندوة الجامعة العربية فى باريس عن المفكرين والكتاب العرب فى المهجر (١٩٨٦)، أن مصطلح الاستغراب لا يلقى بالفعل الترحيب أو الاهتمام الملائم . بل يرى البعض أننا عندما نتحدث عن الاستغراب فإننا ذاهبون لنفعل ما فعله الاستشراق من مساوئ ومثالب ، إلى الحد الذى وصل بمنظمى هذا الملتقى الأول للمفكرين والكتاب العرب فى المهجر، أنهم حذفوا هذا المصطلح من البيان الختامى للمؤتمر، وأنا أريد أن أوضح هنا أننا ، فى المركز العربى للدراسات الغربية ، لا نفهم هذا الاستغراب من منظور عدائى، ولا يمكن أن نقوم بما قام به الاستشراق والمستشرقون، لسببين: الأول موضوعى، والثانى ذاتى. السبب الموضوعى أننا لا نملك، فى المرحلة الراهنة فى بلادنا ، القوة الكافية التى تسمح لنا بتحقيق الاستغراب بنفس الطريقة التى تحقق بها الاستشراق ، فإذا كان لدينا ، أو لدى البعض منا ، نوايا تهدف إلى تشويه الغرب واستعماره ! فإننا لا نملك القوة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية لتحقيق نوايانا، وأنا هنا أنتقل إلى السبب الذاتى، وهو أننا نحمل تراثا من القيم الأخلاقية، يبعدنا مسافة كبيرة عن تشوية الآخر والاعتداء عليه أو استعماره، كما حدث من الجهة الأخرى فى الماضى القريب . لذلك علينا أن نضع فى اعتبارنا الخوف الذى يستثيره إستخدامنا لهذا المصطلح لدى الآخرين هنا أو هناك . وأن نسعى إلى تبديد هذه المخاوف ، وابراز لوجه الحضارى لفكره الاستغراب .

جيرجوار ميرشو : إذا افترضنا جدلاً أن مصطلح الاستغراب قد أفرغ من بعده

الأيديولوجى، فما هى الموضوعات التى يمكن أن يطرحها على الصعيد المعرفى والإجرائى حتى نوضح منطلقنا ؟

أحمد الشيخ : فى نطاق توضيح مصطلح الاستغراب علينا أن نميز أولاً بينه وبين مصطلح التغريب ، فالأول يتضمن دراسة واعية للغرب من خارجه ومن ثقافة أخرى لها ملامحها ومقوماتها ، بينما يتضمن التغريب نظرة تابعة للغرب، نعرف جميعاً ملامحها وآثارها فى بلادنا ، إلى الدرجة التى تسمح لى بالحديث عن وجود استشراق محلى عربى ، ونحن كثيراً ما ننتقد الاستشراق الغربى الخارجى وننسى الاستشراق الغربى المحلى . وأعتقد أن إحدى مهام الاستغراب ممارسة الحوار النقدى مع هذا الاستشراق العربى ، لأنه لا يمكن أن ينشأ الاستغراب بدون إنهاء الوضع القلق لظاهرة الاستشراق العربى ، فالاستغراب ، كما أفهمه ، يعنى النفى والقضاء على حالة الاستشراق العربى السائدة فى بلادنا ، هذا ما أتصوره .

مجدى عبد الحافظ: أتفق مع جيرجوار فى ضرورة تحديد مصطلح الاستغراب، لذلك أتساءل : هل الاستغراب هو دراسة الغرب من منطلقات شرقية فقط ؟ ما هو السبب الذى يجعلنا ندرس الغرب ؟ ما هو الهدف من هذه الدراسة؟ الإجابة عن هذه التساؤلات ستوضح لنا الإطار الذى نخضع له . أما عن الاستشراق العربى فأنا لا أستطيع أن أمارس الحجر على المستشرقين العرب .

أحمد الشيخ : أنا تحدثت عن الحوار النقدى الذى ينهى حالة الاستشراق العربى .

مجدى عبد الحافظ: لو افترضنا أن هناك علماً له أصوله وأصبح يقف على أرضية صلبة، فمن الطبيعى أن يكون له مردوده النظرى والفكرى على كل المستويات، وبالتالى ستكون المعركة ضد المستشرقين العرب والغرب نتائجها لمن يقف على أرض صلبة ويكون له مردود سياسى فى الساحة . هذا ما أريد قوله .

محمد العلائى : نحن نتحدث بصورة عامة عن الغرب . وننسى أن العلاقة مع الغرب اختلفت تماماً فى فترة قبل الاستعمار عن فترة الاستعمار عن فترة ما بعد الاستعمار، ونعلم جميعاً الدور الذى لعبه الاستشراق فى التمهيد للاستعمار ، ولكنى أتساءل

وأفترض جدلاً لو لم يحدث للاستعمار هل يكون لاستشراق نفس الدور .

مجدى عبد الحافظ: طبعاً لم يكن ليوجد استشراق . لكنى أطور السؤال وأقول : هل للاستشراق وجـه سلبى فقط، أم أنه أتاح أن ننظر لتراثنا عبـر وجهة نظر أخرى، لا أريد أن نحمل الاستشراق كل مشاكلنا وكل مـا هو سلبى ، لابد أن نعترف بالجانب الإيجابى للاستشراق وأن نحجمه ونضعه فى حجمه الطبيعى .

أحمد الشيخ : تساؤل محمـد العلانى الافتراضى : إذا لم يكن هناك استـعمار هل كان للاستشراق الدور ذاته ؟ فى تقديرى هو تساؤل غير واضح ، وإن كنت أرغب فى تطويره وربطه بقضية الاستغراب ليصير كالتـالى : إذا لم تكن القوة لاستعمار الغرب فهل معنى ذلك أننا لا نستطيع تأسيس الاستغراب الحضارى الذى ندعو له؟

مجدى عبد الحافظ: هذا يعود بنا إلى التساؤل : لماذا ندرس الغرب ؟ ما هو السبب أو الهدف من الاستغـراب ؟ وبالتالى نعرف إذا كانت هناك أشياء فـى اللاوعى تضغط علينا وتجعلنا نفكر فى الاستغراب ، وبالتالى لو اكتشفنا هذه التراكمات الموجودة فى وعينا أو لاوعينـا لأدركنا لماذا ندرس الـغرب. أتصور أن المـشكلة هى أن الغـرب حقق تقـدما مذهلاً ونحن لا نزال فـى حجمنا نخطو محلـك سر ، هذا سبب رئيسى يدفـعنا لدراسة الغرب ، بالإضافة إلـى أن حضارات الغرب لها مردودات فكرية جـعلت البعض يرددها فى الداخل دون أن يستـوعب التراكمات الثقـافية الحضارية المـوجودة لديه . شئ ثالث يدفعنا إلى دراسة الغرب هـو إخفاق الحركات القومية التحـررية . أتصور أننا نعيش فى مرحلة فراغ تاريخى وسياسى وبالتالى دراسة الغـرب من وجهة نظر عربية شرقية علينا ، فى تصورى - أن لا ندرس الغرب بشكل أيديولوجى، وأن لا نسقط عُقَدنا على الغرب، بل ننطلق من منطلق تفـهم يسعى لإدراك كيف قامت هذه الحضارة بالتعـامل مع واقعها التاريخى لنستفيد من هذه التجربة فى بلادنا، وبالتالى نقدم إضافة فى دراستنا للغرب .

أحمد المطيلى : نتساءل لـماذا ندرس الغرب ؛ وأنا أقول : لمـاذا لا نطرح تساؤلات أخرى ؟ يمكـن أن نتساءل لمـاذا ندرس التاريخ أو الأدب أو الجـغرافيا ؟ السـؤال حول الهـدف يمكـن أن يطرح على أى شـئ يقـوم الإنسان بـدراستـه. بالـنسبـة لنـا -نحن

المسلمين- ليست هذه هى المرة الأولى التى ندرس فيها الآخر ونتعرف عليه بطريقة معينة، نحن نعرف مثلاً أن أفضل وثيقة عن الهند كتبها البيرونى ، كذلك ابن بطوطة والرحالة المسلمون الذين تركوا وثائق مهمة جداً عن مجتمعات مغايرة لنا . لكنى أعود إلى مسألة تحديد المصطلح، وأبدأ من اللغة، لأن كلمة استغراب لغويا قد تشير معنى الغرابة لدى البعض فهل دراسة الآخر تثير الغرابة ؟ اصطلاحياً . . الاستغراب لا يعنى الغرابة بل يشير إلى الغرب والرغبة فى التعرف عليه وعلى الأشياء التى لا يعرفها الإنسان ويريد معرفتها بصورة أقرب إلى الموضوعية ، وربما فى هذا إجابة على السؤال : لماذا ندرس الغرب .

مجدى عبد الحافظ: هناك مشروعية فى التساؤل لماذا ندرس الغرب الآن؟ البيرونى درس الغرب لأن الواقع التاريخى فى عصره قد وصل إلى فكرة مؤداها أنه قد نضبت الحكمة اليونانية، وبالتالى لابد من البحث عن الحكمة فى أماكن أخرى ، فى الشرق ، الهند . فالواقع التاريخى هو الذى فرض ذلك من خلال ضرورة تاريخية . ونحن ندرس الغرب اليوم علينا أن نكتشف هذه الضرورة وأن نحللها فى وعينا وفى لاوعينا .

أحمد المطيلى : هذا يفترض أن الاستغراب موجود فعلاً. هذا قد يأتى فيما بعد .

أحمد الشيخ : تساؤل مجدى : لماذا ندرس الغرب اليوم ؟ أعتقد أنه يفتح آفاقاً رحبة للحوار . لكنى أختلف مع حسن حنفى فى مقالة نشرها مؤخراً يحكى فيها عن الاستغراب بصورة غير محددة زمنياً ، بمعنى أنه يتكلم عن فترة مؤتمر باندونج فى عام ١٩٥٥وبروز روح جديدة فى العالم الثالث بينما نحن لا نعيش هذه الفترة الآن، هذه الفترة من تاريخ العالم الثالث تتراجع، بل لم تعد موجودة ، حركات التحرر فى حالة أفول . لذلك لا أفهم الربط بين الاستغراب وما لم يعد موجوداً الآن . فى اعتقادى أن فترة باندونج كانت أكثر الفترات ملاءمة لبروز ما نسميه اليوم بالاستغراب، لكن أحدا لم يتحدث عن ذلك فى هذه الفترة التى اتسمت بالتحرر السياسى وبالتبعية الفكرية فى آن ، وكان من الممكن أن يظهر هذا الاستغراب لو أن قيادات هذه الفترة ونخبها قد أدركت أن التحرر السياسى لا ينفصل عن التحرر الثقافى . وهذا الواقع الذى نعيشه اليوم يطرح

علينا التفكير فى المعادلة الصعبة، أى الدعوة إلى الاستغراب، ونحن نعيش حالة من التراجع والخواء والفراغ . هل تكون هناك ضرورة تاريخية؟ بمعنى أننا نعيش فى فراغ وأنه لا مفر من دراسة الآخر الذى هو فى مرحلة أعلى وأرقى، أم أن الاستغراب لا يمكن أن ينشأ إلا فى حالة ازدهار وقوة ومد وطنى وقومى وحضارى ؟

جيرجوار ميرشو :نعم ، بعد الخمسينيات ، كنا نتصور الغرب فى بعده السياسى فقط، ثم ظهر لنا أن الاستقلال السياسى كان وهميا . وأن عمليات الإستتباع قد زادت أكثر مما مضى. الاستغراب الآن قد يأتى بعمق آخر ، وفى مرحلة أكثر نضجاً بعد ما اتضح أن الغرب لم يكن استعماراً عسكريا وسياسيا، إنما كان استعماراً ثقافياً، والاستعمار الثقافى كان حتما متداخلاً وممهداً للاستعمارات الأخرى. فى البداية كانت هناك شعارات تقول : إفصلوا بين السياسى والعسكرى من جهة، والثقافى من جهة أخرى . وكانت هناك شعارات أخرى تقول : كفانا حديث عن الاستشراق لأنه مرحلة استعمارية وانتهت ، وأن الفلسفة الغربية ، غير الاستشراق ، ولابد من الاقبال عليها . وأنا أرى أن الاستشراق لم يخلق من عبث ، وأن الفكر الأوروبى ذاته قد مهد لنشوء الاستشراق فى القرن التاسع عشر ، مثلاً مفهوم الدولة عند هيجل ، ظهر منه أن الدولة لا يمكن أن تعيش إذا لم تكسر البنيان الاجتماعية لدى الشعوب الأخرى حتى تقوم هذه الدولة ويتم التوازن فى الداخل . كان التوجه فى الأساس نحو تدمير الآخر من أجل إحلال توازن فى الداخل ، أنا أدفع بالقضايا لأبعد من الاستشراق ، وأذهب نحو المفاهيم الفلسفية الغربية ذاتها التى مهدت لهذا الاستشراق .

محمد العلانى : هل الاستشراق جزء مكون لروح الحضارة الغربية ؟! هناك من يرى أن الروح العامة للفكر الغربى هى روح صراعية ، صراع مع الطبيعة ، صراع مع الآخر ، صراع مع الآلهة . المنطق الصراعى يسيطر على هذا الفكر ، وبالتالى قد يكون الاستشراق من المكونات الرئيسية والكبرى للفكر الغربى ، وليس كما كانوا يقولون لنا إنه مرحلة عابرة وانتهت مع المرحلة الاستعمارية .

حسن حنفى: إستمعت إليكم لكى أعرف أين أنا، أيضاً وأين أنتم ، لكن نحن ندور

فى نفس الأشياء. فيما يتعلق ببحث اللفظ فـى حقيقة الأمر ، لا يهم اللفظ بقدر ما يهم المضمون ذاته ، ألم يأت الأوان للذات العربيـة أن تصبح أيضاً ذاتا عارفة . أحد مظاهر التحرر بالفعل يظل هو : أنا أفكر، إذن فأنا موجـود . يعنى نضع الذات نفسها باعتبارها الذات العارفة مـهما قيل علينا من أنـنا موضوع دراسة . التحـول الجديد أن تضع الذات نفســها كذات عارفـة، هذا أمر يختلف عـن أن تظل موضوعاً لـلدراسة. حركة التـحرر العربى تمت حتى الآن على أساس تحرير الأوطـان من الاحتلال العسكرى ، ثم التحرر الاقتصـادى حتى يكون الاقتصـاد غير تابع ، وربما أيضـاً تحرير مناهج التعليم والـتربية والثقافة. وكان كل ذلك فى مستويات متعددة ، تنجح هنا أو تتعثر هناك ، حتى الآن لم تحدث علميـة التحرر على المستـوى الذى يعنى العلاقة بين الذات والموضـوع ، مهمة علم الاستـغراب، أن أتحول إلى ذات وأن لا أضع نـفسى باستـمرار كموضـوع للدراسة الاتنولوجـية والإنتربولوجـية ، كل هذه العلـوم الغربية مـاذا تفعل ؟ تذهب إلى الـعالم الإسلامى والعربى ثم تتـحدث عن الخيال العربى ، المـخيال ... الخ ، أنا زهقت من أن أكون باستمـرار موضوع دراسة ... لمن ؟ لباحث آخر، لكن حـتى الآن لم تتحول هذه المادة العلمية كـجزء من حركة التحرر ، كذات عارفـة ... أقول مازلنا نحن نقوم برد فـعل عن طريق بيـان ما يقـوله الآخرون فـينا ، وأنه مـعادٍ فى كـذا وكذا ... وأن الأحكام والصور الـتى بناها الاستشـراق فينا تحولهـا بواعث كذا وكذا ، ونتـحدث عن العنصرية والهيـمنة الغربية وسوء الفهم والعقلـية المسيحية .. وكلها طـرق دفاعية ، أما الاستغراب فوظيـفته أن ننتقل من مرحلة الدفاع ، ليس إلى مـرحلة الهجوم ، لكن على الأقل نقل المعـركة إلى أرض الخصوم . أنـا سأحاول أن أتحرر قدر الإمـكان من كونى موضوعاً للدراسة ، وأقول للغربيـين أنتم لستم ذاتا عارفة إلى الأبد ، ويمكن أن تكونوا موضوع دراسة ، وبالتالى أصل إلى ما يســمى فى الغرب ، فى العلوم الإنسانية ، الوعى التـاريخى الأوروبى ، الوعى الفكـرى الأوروبى، ولا أريد أن أقول العـقلية الأوروبـية، حتى لا أقع فيما وقـعوا فيه هم من حديث عن العقلية العـربية ، ولكن أحاول دراسة ما يسمى بالوعى التاريخى الأوروبى، وأدرس تطور هذا الوعى ، خاصة أنه أصبح موضوعاً للدراسـة عندهم- شبنـجلر ، هسرل ، تويـنبى- وبدأ الناس يتكـلمون عن أزمـة العلوم

الأوروبية، أزمة الوعى الأوروبى (بول آزار) أزمة الضمير الأوروبى ، أزمة الأخلاق .

أحمد الشيخ : تقول بدأ الناس يتكلمون . بينما هذا أمر قديم .

حسن حنفى: أريد القول إن هذا أصبح جزءاً من التراث الغربى ذاته . . وظيفة علم الاستغراب تحرير الذات العربية ، وجعلها تنظر بدون عدسات ، والانتقال بالفكر العربى المعاصر من مرحلة الترجمة والنقل والشرح والتلخيص إلى مرحلة الإبداع والخلق والاستقلال الثقافى وإكمال حركة التحرر العربى بالتحرر الثقافى والتحرر فى مجال البحث العلمى وعلم الاستغراب وظيفته إعادة الغرب إلى تاريخيته ، وهذه نظرة ماركسية ، فلا يوجد وعى إلا وهو وعى تاريخى ، وبالتالى وضع الغرب فى إطاره الطبيعى ، وفى حدوده الجغرافية والتاريخية الزمانية. وأستطيع أن أصف تماماً كيف نشأ الوعى الأوروبى وكيف تطور وما هى مراحله وبواعثه ، وبدايته ونهايته ، كما أستطيع أن أصف بنيته ، لا أريد أن أقول عقليته ، ومصير هذا الوعى وكيف يتقابل أو يتوازى مع وعى آخر فى الهند والصين أو المنطقة العربية . وفى رأيى سيؤدى علم الاستغراب رسالة هامة فيما يتعلق بالبحث فى العالم العربى والإسلامى ، فيما يتعلق كذلك باحترام الآخر لنا . إنه تحول تاريخى . لن نقع فى أخطاء الاستشراق ، بل سنؤدى خدمة لهم عندما نقلل من عنصريتهم ومركزيتهم . وسنجعل أطر النظر والحكم متعددة ، ومراكز الثقافة متعددة حتى ينشأ حوار حقيقى بين الحضارات . لكن إذا ظلت كفّتى الميزان غير متوازنتين فلن يحدث أى شىء من ذلك . لكن لو تعدلت الصورة . هنا يبدأ الحوار الحقيقى والتحرر الحقيقى .

مجدى عبد الحافظ: ما تقوله صحيح تماماً على الجانب الثقافى، لكن هناك الجانب الآخر، فى العلوم الطبيعية . وهذا هو العامل الأساسى الذى يجعل العامل الثقافى الفكرى يتأخر .

حسن حنفى: خذ مثلاً علوم الذرة ، وهى من العلوم السرية التى لا تعطيها حضارة إلى أخرى، ومع ذلك الصين أبدعت علوماً ذرية ، الباكستان كذلك ، حتى العلوم الطبيعية، نظراً لمخاطر الذرة وتطبيقاتها النووية يمكن أن تبدع علومها.

مجدى عبد الحافظ: تعادل الميزان لن يتم ما لم تحدث طفرة أيضا على المستوى العلمى، لكن إذا افترضتنا أننا وصلنا على المستوى الثقافى النظرى، إلى علم الاستغراب، الذى يدرس الغرب ويضعه فى حجمه الجغرافى والتاريخى ، لكن إذا لم نصل أيضاً إلى التقدم الغربى فى العلوم العلمية فسوف تظل الكفة الغربية راجحة .

حسن حنفى: نحن نعلم أن هناك علماء عرباً أبدعوا وذهبوا يخدمون عواصم المركز ، وعندما يعودون إلى بلادهم يحاصرون .

مجدى عبد الحافظ: بسبب الأنظمة ، بما فيها الأنظمة الدراسية التى تخنق الإبداع.

حسن حنفى: أنظمة قاهرة تضغط بالطبع ، فليس فى مصلحة الأنظمة الإبداع، الذى يعنى التفكير بحرية قد تقضى على هذه النظم . ويمكنك أن تجد ٧٠ ٪ من الأطباء فى إنجلترا من العرب والهنود والباكستانيين . ويمكنك أن تجد ٣٠٪ من الجسم الطبى العلمى فى أمريكا من العرب . . . لكن الوعى الحضارى أهم بكثير.

محمد العلانى : المنتجات الحضارية تأتى بعد الإدارة الحضارية .

أحمد الشيخ : يبدو لى أن الحديث عن الاستغراب بوصفه علما ليس أمراً دقيقاً فيما أتصور ، الاستغراب حركة حضارية ، عملية حضارية ، وألاحظ أن حسن حنفى يسرف كثيراً فى استخدام كلمة علم ، فهو أحيانا يتحدث عن علم الذاتية، وعلم . . .

حسن حنفى: القدماء كانوا يتحدثون عن علم الحديث، علم النزول . . .

أحمد الشيخ : هذا فيما مضى ، لكن الآن، هل يجوز أن نطلق تسميته علم، وفى الواقع الحديث يدور حول حركة حضارية تقوم بشد الانتباه إلى أشياء، وتجاهل أشياء أخرى .

حسن حنفى: تقول الآن لكن عند من ؟

أحمد الشيخ : عند إجماع الباحثين فى الشرق أو الغرب .

حسن حنفى: أنت ضحية معنى ضيق للعلم ، وهو العلم الطبيعى .

أحمد الشيخ : بل أتحدث عن العلم فى العلوم الإنسانية .

حسن حنفى: وماذا عن الإنتربولوجيا الثقافية التى وظيفتها دراسة الثقافات والحضارات والانتقال من حضارة إلى حضارة . نحن نوسع نطاق مفهوم العلم، وأنت تضيق مفهوم العلم . ما العمل ؟

أحمد الشيخ : ما أبحث عنه هو تعبير ملائم ومعبر بدقة عن مشروع الاستغراب كعملية حضارية .

حسن حنفى: العلم هو نوع من النظام المعرفى ولا يعنى بالضرورة أن يكون بمعنى العلم الطبيعى أو الرياضى، بل هو أى جهد بشرى به نوع من تنسيق المعرفة، من هذا المنظور علم الناسخ والمنسوخ هو علم له قواعد يتبعها العقل .

أحمد الشيخ : أنت تستخدم معنى قديماً لكلمة العلم ، وهو غير المتعارف عليه الآن، عندما تقال كلمة علم فى العلوم الإنسانية، وليس فقط فى العلوم الطبيعية .

أحمد المطيلى : يبدو لى أن حسن حنفى لا يميز بوضوح تام بين ما هو علمى وما هو أيديولوجى ، ليست هناك حدود ، وبالتالى يمكن أن نقول الشىء وضده، ولا يحدث أى شىء بالنسبة للحكم الذى تقول به، طالما لا يوجد تناقض بين الأشياء فى حديثك عن الاستغراب الآن . لا أعراف حدوده كعلم، وحدوده كعملية أيديولوجية لا أفهم الحدود الفاصلة بين العلم والأيديولوجيا فى خطابك الآن . ويبدو لى أن المفكر، فى حسن حنفى يتكلم قليلاً ثم يصمت بعد ذلك، ليظهر حسن حنفى المذهبى .

حسن حنفى: التمييز بين العلم والأيدولوجيا ، ما هو برهانه ؟

أحمد المطيلى : العلم يمكن أن يصل إليه أكبر عدد ممكن من الناس سواء داخل حضارة بعينها أو خارجها ، بينما الأيديولوجيا ليست بالضرورة موضع اتفاق حتى داخل مجموعة معينة من الناس .

حسن حنفى: وماذا تقول عن علم التصوف ؟

أحمد المطيلى : التصوف يقوم على تجربة ذاتية ، داخلية ، روحية .

حسن حنفى: لكن مع ذلك استخدمت كلمة علوم التصوف .

أحمد المطيلى : من الذى استخدمها ؟

حسن حنفى: أخشى أن تكون هذه التفرقة بين العلم والأيديولوجيا ناتجة من الأدبيات الماركسية، التى شاعت فى ثقافتنا المعاصرة . . هذه التفرقة ناتجة من الأدبيات الغربية التى شاعت بيننا، والمقصود منها الآتى : إذا أراد أحد أن يتكلم، وأن يجعل المسافة غير كبيرة بين العلم والوطن، وأن يجعل من همومه كمواطن هو كهمومه كعالم ، يقال له على الفور أنت تخلط بين العلم والأيديولوجيا.

أحمد الشيخ : وجهة النظر التى يطرحها حسن حنفى أقل ما يقال بشأنها هو أنها خلافية وليست موضع اتفاق ، كما لا نعرف منها متى يكون العالم عالما، ومتى يكون المواطن مواطنا؟ وأغلب الظن أنها طريقة أو ذريعة تسمح لصاحبها بأن يقول الشىء ونقيضه فى آن واحد ، ثم لماذا أنت متشبث بكلمة علم لوصف عملية حضارية هى الاستغراب ، وأنت تعلم أن الاستخدام القديم لكلمة علم لم يعد مستساغاً اليوم . وتضرب أمثلة بعلوم التصوف، وأنت تعلم جيداً أن التصوف لا يمكن أن يكون علما لأن كل متصوف يصل إلى الحقيقة عن طريقه الذاتى الخاص. فلماذا تصر على استخدام تسمية قديمة لموضوع حديث ؟

مجدى عبد الحافظ: اليوم العلم أصبح محدداً وله شروط ، وإذا كان العلم، بمعناه القديم الواسع كما هو موجود فى التراث العربى الإسلامى، كان يطلق على التصوف. هل معنى ذلك بالضرورة أن أستخدم المعنى القديم للعلم وأرفض تعبيراً آخر قد يتيح أن أدرس بشكل أكثر دقة . . ما هو المعيار؟

حسن حنفى: عندما نقول علم النفس ، علم الاجتماع، هل تظنون أن هذه العلوم خالية من الأيديولوجيا ؟بل كذلك العلوم الطبيعية والرياضية، أتعتقدون أنها خالية من . . .

أحمد المطيلى : لكن فى هذه العلوم الطبيعية قد تأتى الأيديولوجيا من الخارج أكثر مما تأتى من الداخل ، على الأقل فى الفيزياء هناك علماء ومؤمنون وعلماء محلدون .

حسن حنفى: تصور إينشتاين للعالم هو تصور أيديولوجى ، تصورات نيوتن وكبلر

للعالم هى تصورات أيديولوجية ، وخلافنا فى الدرجة وليس فى النوع .

أحمد المطيلى :بالطبع .

أحمد الشيخ :نحن نعرف أن علوم الإنسان ، كما نشأت فى الغرب الحديث ، لا يمكن فصلها عن جذورها الثقافية والحضارية والأيديولوجية . لكن الخلاف مع حسن حنفى يعود إلى إصراره على استخدام كلمة علم بمعناها القديم .

حسن حنفى:فيكو سمى فلسفة التاريخ بالعلم الجديد ، اذهب واعترض عليه ، وكذلك جاليلو .

أحمد الشيخ :لا أمانع فى ذلك ، لماذا أنت متأثر بهم ؛ هم ليسوا مراجع أبدية. ألا تقول بذلك فى أماكن أخرى ؟!

حسن حنفى:فى الوقت الذى تبنى فيه الحضارة نفسها ، وتنتقل من مرحلة إلى أخرى، نجد العالم أو المفكر أو فيلسوف التاريخ، يستخدم لفظة علم ، لأنه لكى ينقل مجتمعه من مرحلة إلى مرحلة ، عليه أن يقدم نسقا فكريا مذهبيا فيستخدم كلمة علم ، أنا أرى أنكم خائفون من استخدام كلمة علم وكأنها كبيرة عليكم ، وأنكم أقل من روح العلم ، وأنا لا أحب هذا لديكم .

أحمد الشيخ : أرى أن السياسى أو الايديولوجى هو الذى ينطق الآن فى حسن حنفى . وفى الحقيقة رفضنا لاستخدام كلمة علم لوصف عملية الاستغراب، لاننا نعلم أنه لا يمكن له ولن يكون أبداً علما، وإنما حركة حضارية تتضمن صراعات وتوترات ولقاءات وليست علما ، ونحن لا نخاف من أحد، ولدينا مشروع طموح، وهذا يفرض علينا أن نكون أمناء مع أنفسنا ومع الآخرين . فمن اليسير أن نطلق على نشاطنا مسميات كبيرة، دون أن يكون لها ما يبررها فى الواقع العملى .

حسن حنفى:لماذا تسمى الأنتولوجيا علما ولا تسمى الاستغراب علماً ؟

أحمد الشيخ :أنا لم أطلق أى تسمية . . . .

محمد العلانى :قلنا منذ قليل إن العلم يتفق حوله أكثر الناس بينما الأيديولوجيا لا

تحصـل على هذا الإجمـاع . وهذا الكلام لا ينطبق عـلى علوم الإنسان، لأنـه لا يوجد اتفاق بشأنها والـجانب الأيديولوجى واضح تماماً . ولا يوجد علم إنسـانى حوله إجماع تام . أحمد الشيخ يقول إن الاستغراب ليس علما . . وماذا عن الاستشراق ؟!

أحمد الشيخ : لم أقل إن الاستشراق علم، وإنما هو مجالات صراعية فى حقول مختلفة . لا يوجد علم واحد للاستشراق، وإنما طرق من البحث والرؤية فى مجالات مختلفة ، فمسح الأراضى استشراق، دراسة لغات حـضارات أخرى استشراق ، الاستشراق أفق من النظر والرؤية .

محمد العلانى : الشىء الواضح أنه لا يمكن الحكم على شـىء بأنه سيكون علماً أم لا ، وحسن حنفى قال إن الاستغراب عملية فى إطار تكوين .

أحمد الشيخ : لكنه أطلق عليها صفة علم . وإذا كنا على اتفاق فى أن الاستغراب حركة أو عملية حضاريـة ، فمن الصعب الحديث عن علم بالمعنى المعـاصر للكلمة. هذا كل ما أردت قوله فى هذا الشأن .

حسن حنفى: ليس فقط عملية حضارية، وإنما هناك أيضا قواعد حضارية يمكن أن تصل إلى درجـة العـلم المـحكم، الـذى له قـواعـد ومنهج ونـتائـج وغايـات . والقـول بأن الاستشراق ليس علما، فإن هذا غير صحيح ، الاستشراق ميدان للبحث .

أحمد الشيخ : الاستغراب كذلك ميدان للبحث .

مجدى عبد الحافظ: علم أو غير علم ، ربما يعتبر هذا الحديث سابقاً لأوانه .

حسن حنفى: ما هو معيار العلم ؟ هو ميدان للـبحث، له موضوعه، وله منهجه . وهذا ينطبق على الاستغراب .

أحمد المطيلى : حسن حنفى قـبل قليل كان يشكك فى عـملية العلوم الإنسانـية ويبرز جوانبها الأيديولوجية والآن يصف الاستغراب بأنه علم ، لا أفهم هذا التناقض .

حسن حنفى: لا داعى للجدل .

أحمد المطيلى : أنا لا أمارس الجدل ، أنت الذى تقول الشىء ونقيضه فى الوقت نفسه

هذا هو الجدل .

حسن حنفى: الجدل هو محاولة للانتصار علـى الخصوم . عندما أقول أن علم النفس وعلم الاجتمـاع ليسا علمين، إنما لإثبـات الجانب الأيديولوجى فيهمـا ، أما لو سلمتم بأنهما علمان فذلك لأن لها موضوع ومنهجاً والاستغراب له موضوع هو الوعى الاوروبى وله منهج وله نـتائج تستطيع أن تـتحقق منهـا فى كتابات الأوربيـين أنفسهم ، وبـالتالى مادمتم قـد سلمتم بأن العلوم الإنسانيـة هى علوم، فالاستغراب كـذلك هو علم أيضا . وهو ، من جـهة أخـرى ، رد فعل عـلى التغـريب ، هو أن نتـخلص من هذا الـثعـبان الداخلى وإخراجه حتى تراه وتصفه وتقضى عليـه . نحن الآن بعد التحرر من الاستعمار فى موقف أفضل، كى نكمل حركة التحرر، وأن نحول أنفسنا من موضوع إلى ذات .

محمد سيف : التحرر من الاسـتعمار والتبعيـة يضع المفكرين باستمرار فـى موقع غير مستقل طوال الوقـت، فدراسة الآخر لدينا من موقع القوة والازدهار كـما كان الأمر أيام العباسيين وفى فترة الطهطاوى ، غيـر ما هو عليه الواقع اليوم . الوضخ مختلف الآن . لابد أن نضـع شرطة عـلى الاستـغـراب، لأننا نتـعـامل مع مـوضوع لا نمـلكه . لأن الاستغراب أولاً هو دراسـة علوم الغرب ومواطن القوة عندهم، وهذه لـيست فى متناول أيدينا .

حسن حنفى: وماذا نفعل ؟

أحمد الشيخ : لابد من أمانـة ووصف دقيق لميـزان القوة ، كمـا هو قائم وليس كـما نتخيله ، حتى نعرف ماذا نفعل .

محمد سيف : العلوم الآن فى يد الغرب فى المرحلة الراهنة . لا جدال أننا ساهمنا فى الماضى، لكن الآن ماذا نحتـاج من الغرب؟ الضمير ؟ استخدام العـقل ؟ الرومانتيكية ؟ العلوم والتكنولوجيـا ؟ السؤال الآن: كيف نمتلك القوة؟ ماذا لدينا لـكى نمتلكها ؛ هذا التسـاؤل لابد أن يستـنفر كل طاقـات الفكر لدينا؟ فـى ظل هذه «المعـمعة» . . أى بُـعْد سيأخذه الاستغراب الذى نتحدث عنه .

حسن حنفى: بالضبط سيأخذ البعد الذى نتـحدث عنه الآن. ماذا نحتاج اليوم ؟ نحن لا

نحتـاج إلى شىء ، حتى العلم الطـبيعى ، الموضـوع فى القمة ، هو قـائم على رؤى ونماذج، وهذه أزمة ضخـمة بصرف النظر عن تطبيق أن العلم الطـبيعى ، ثم إن العلم الطبيـعى يبنى فى كل مرحلة وكـل حضارة . اليابان نـقلت من الغرب وأنشأت علـمها الطبيعى، وكذلك الصين والهند .

محمد سيف : لا يوجد إبداع يابانى . اليابان استخـدمت قوانـين غربية . كان هناك إبداع عربى فيما مضى عندما قدمنا علم الجـبر وأشياء أخرى فى العلوم الطبيعية . لكن لا يوجد إبداع يابانى . اليابان صنيعة الغرب . اليابان لم تبدع شيئا على صعيد العلم ، الإبداع هو تجانس الفكر العلمى والعملى . اليابـان حتى السنة الماضية كانت لا تملك سوى ثلاث صحف يومية !

أحمد المطيلى : خرجنا مرتين عن موضوع الاستغراب .

حسن حنفى: وجلسنا نتحاور فى نقطة واحدة، هل الاستغراب علم أم لا ؟

أحمد المطيلى : الاستغراب علم، أم غير علم، وقضية الإبداع ، يطرحان قضايا على قدر كبير من الأهمـية ، وربما ليس عرضا إرتباط الاثنين . . . الإبداع قـضية مثارة فى كل الأوساط ، وهناك اتفـاق على أنه لا يوجد لدينا إبداع فى الفتـرة الراهنة ، وسؤالى الآن لحسن حنفى، كـيف يمكن أن نصل فعلاً إلى مرحلة الإبداع، ليس عـلى مستوى الفرد، بل على المستوى العام ؟

حسن حنفى: بعد أن يصدر كتابـى "مقدمة فى علم الاستغراب" قريبـا سأتفرغ لكتابة "من النقل إلى الإبداع" وهو محاولة لإعـــادة عـلوم الحكمة . فى هذا الكتاب أخذت النموذج القديم، وكيف تعرف القدمـاء على الآخر (اليونان ، الهند، الفرس)، وما هى الترجمات التى تمت بكل أنواعها ؟ ومـا هو التلخيص ؟ وما هو الشرح ؟ ثم كيف بدأ التأليف بعد مراحل الشرح والتلخيص وأنواع التأليف ، وأنا أدرس النموذج القديم، فى ذهنى علاقتنا بالغرب . وهذه العلاقة كانت هى الفكرة الموجهة لى .

أحمـد المطيلى : ما هى الـنظرية التى يمكن أن تنـبثق بعد هذا الاسـتقراء التـاريخى

الطويل . باعتباره يشمل مرحلة تاريخية كبيرة من تاريخنا القديم ؟

حسن حنفى: رد على نظرية أننا لم نبدع قديماً ، وبمـا أننا كذلك فلن نستطيع الإبـداع حديثـاً، وأننا شرحنا وعلقنا ولخصنا فقط . . .

أحمد المطيلى : أنا أريد أن نخرج من مرحلة الدفاع التى كنت تتحدث عنها، أننا فعلنا كذا، وأننـا أبدعنا كذا . وذلك حـتى نبدع فعـلاً . كيف ننتـقل من مرحلة الـدفاع إلى مرحلة البناء (الهجوم) .

حسن حنفى: أقول إذاً، هل سنسـتمر فى النقل والتـرجمة والتلخـيص والعرض ؟ ومن الذى يبدأ بدور مشابه كدور الكندى ويبدأ التأليف ؟ هل نعيش الآن نفس الظروف ؟ هل الطريق ممهـد أمام جيل جديد من البـاحثين يمارس التأليف والإبــداع، بدلاً من قراءة الواقع من عـدسات غيـر ملائمة . لقـد آن الأوان أمام البـحث العربى لكى يـقوم بدور التنظير المباشر للواقع .

أحمد المطيلى : هل دراستك فى طريق الإنجاز ؟

حسن حنفى: «من النقل إلى الإبداع» أنجزته في طوكيو على مدار ثلاث سنوات ويحتاج إلى صياغة أخرى .

أحمد المطيلى : هناك شىء يصعب فهمه فى حديثك عن قراءتك لهذه المرحلة . أنت تطلب إلقاء العـدسات نهائيا ، وتتـحدث عن الاستغراب ، وننـسى أن الإبداع ينبغى أن يستـوعب ما قبله . أشـعر فى الحقيـقة بوجود عـدم انسجام فى أطروحـاتك. وهو أمر يسبب لى قلقا .

أحمد الشيخ : إنه قلق مشروع .

الجلسة الثانية

أحمد الشيخ :كيف بدأ التفكير فى مسألة الاستغراب ؟ أعتقد أن طرح هذا السؤال لا يتضمن فقط أبعاداً تاريخية وأكاديمية، وإنما هو فى صلب دعوة الاستغراب ذاتها ، فمعرفة البدايات الأولى وبواعثها قد توضح، بصورة جلية، المسار اللاحق للفكرة ، وما قد يشهده هذا المسار من تقدم أو تأخر ، وكذلك إذا كانت الفكرة دعوة شخصية أم تعبر عن ضرورة موضوعية ؟

علاء طاهر :مصطلح الاستغراب بمعنى دراسة الغرب من قبل الشرقيين، مثلما كان الاستشراق هو دراسة الشرق من قبل غربيين، لم يكن هذا المصطلح ، موجوداً حتى الآن، والذين يتحدثون عن هذه القضية إلى ملاحظة حسن حنفى السبعينيات عن هذه المسألة ، لكنها لم تطرح أبعد من هذه الإشارة فى حدود ما أعلم . وأسأل حسن حنفى : هل كانت هناك محاولات معروفة فى هذا الشأن ؟

حسن حنفى:هناك فرق بين المصطلح والمادة . من حيث المصطلح ربما ما تقوله صحيح ، لكن من حيث المادة، أى كيف يرى اللاغربيون الغرب، هذا موجود عبر التاريخ منذ الطهطاوى فى تخليص الإبريز فى تلخيص باريس . وعبد الله فكرى فى كشف المخبى عن فنون أوروبا ، وكذلك ما كتبه فارس الشدياق وعيسى بن هشام وابن أبى ضياء . . . منذ عصر النهضة، والغرب أصبح مرآة لنا، إما نكشف فيها أنفسنا ، أو نحن مرآة للغرب يرى فيها نفسه . الموضوع، إذاً، الكل يكتب فيه، فى الأدب ، فى القصة ، فى الشعر لكن دون أن يوضع تحت مفهوم أو مصطلح . . أقول، إذاً، التفكير فى هذا الموضوع قديم ومحاولة إحكامه ووضع مناهج وافتراضات ونماذج للتطبيق تتجاوز إعلان النوايا، مثلاً أنور عبد الملك وسمير أمين ، النية موجودة والفكرة الرئيسية موجود والهدف موجود كإحدى علامات التحرر، وأن الذات لا تستطيع التحرر إلا إذا تحولت من موضوع للدراسة إلى ذات عارفة ، لكن إلى الآن لم نخرج من مستوى الممارسات إلى مستوى العلم المؤصل .

أحمد المطيلى :فى نفس هذا السياق، هل هناك تأريخ لظهور هذه الكلمة طوال قرنين ؟

حسن حنفى: الكلمة فيما أعلم لا .

أحمد المطيلى :متى استخدمت لأول مرة ؟ ومن الذى استخدمها ؟

حسن حنفى: أحمد الشيخ أعد دراسة عن هذا الموضوع ، حسب علمى، أنا لم أقرأها فى مكان ما واستعملتها استعملاً تلقائياً بعد ١٩٦٧ فى كتبى «قضايا معاصرة» جزء أول وثان ، والتراث والتجديد وقبل ذلك فى مقدمة الرسالة الأولى والثانية بالفرنسية عام ١٩٦٥ و ١٩٦٦، على أساس أن دراساتى للظاهرية ومحاولة دراسة الوعى الأوروبى ورصد بدايته ونهايته كانت وأنا أعيد كتابة أزمة العلوم الأوروبية لهسرل ، وتحدثت عن شعور العالم الثالث فى مقابل الشعور الأوربى .

أحمد الشيخ :لدىّ أولاً بعض الإيضاحات قبل أن أطرح وجهة نظرى حول كيف نشأت فكرة الاستغراب . أولاً ألاحظ أن حسن حنفى يريد أن يبحث للفكرة عن ممثلين كبار، فيشير إلى أنور عبد الملك وسمير أمين، فى حين أن كليهما يرفضان فكرة الاستغراب رفضا قاطعاً ، فى حدود ما أعلم ، ولم أجد فى مواقفهما أو كتاباتهما ما يشير إلى ذلك . ثانيا يشير حسن حنفى إلى أن الفكرة بدأت لديه أثناء إعداد رسالته للدكتوراه فى عام ١٩٦٥، وأنها مسجلة فى رسالته الفرنسية ، لا سيما فى مقدمتها، بينما حسن حنفى فى هذا الموضع يشرح منهج هسرل عن «الشعور المحايد» وهو أمر مختلف تماماً عن الشعور الإيجابى والفاعل الذى تطرحه دعوة الاستغراب اليوم . وثالثاً حسن حنفى يربط الفكرة بمؤتمر باندونج وفترة عدم الأنحياز ، بينما هذه الفترة لم تكن قد اكتشفت بعد فكرة الاستقلال الثقافى، وكانت تقف فقط عند أعتاب الاستقلال السياسى أو ما كان يسمى بسياسة عدم الانحياز . وبالتالى لم ألاحظ ، ولم يلاحظ غيرى، أن فكرة الاستغراب قد واكبت دعوة باندونج وعدم الانحياز ، وإن كنت أرى أنها كانت فترة ملائمة لذلك، لو تنبه قادة وأقطاب هذا التيار إلى مسألة الاستقلال الثقافى أيضا ، وأعتقد أن الفكرة طرحت أساساً فى بعض المؤتمرات الإسلامية فى مواجهة العداء الذى يتبدى فى كتابات بعض المستشرقين ، وأتذكر من هؤلاء الذين دعوا إلى هذه الفكرة محمد رحباء فى لاهور عام ١٩٥٧ . إذا كانت ذاكرتى قوية ، ثم كانت تطلق كدعوة عامة من وقت لآخر هنا أو هناك . وقد طرحها حسن حنفى فى عام ١٩٧٠ فى مقالة شهيرة له عن «موقفنا من الغرب» فى مجلة الفكر المعاصر ، ثم ذكرها، حسب ما أعتقد، فى هامش بإحدى صفحات كتابه التراث والتجديد الصادر عام ١٩٨٠ . وهنا لم يتعد الأمر مجرد إشارات عابرة لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة عن ضرورة وجود استغراب كما كان هناك استشراق، وفى الحقيقة معرفتى بهذا المصطلح تعود إلى كتاب برنارد لويس «كيف اكتشف المسلمون أوروبا» . ولأول مرة أطلع على مصطلح الاستغراب

بالفرنسية، وإن كان استخدام برنارد لويس للمصطلح فى سياق الإشارة إلى عدم توافر الفضول لدى المسلمين لكى يتجهوا نحو دراسة الآخر ، وهو ما استفزنى وجعل الرد على هذه الفكرة شغلى الشاغل لفترة طويلة ، وقد تبدى ذلك فى كتابات كثيرة بالصحف والمجلات التى كنت أعمل بها ، وكان من نتيجة هذا الجهد، وإثارة هذه القضية على نطاق واسع، وجذب عدد كبير من المفكرين العرب والفرنسيين للحديث عنها، أن أصبحت قضية مطروحة على نطاق واسع . وهنا تدخل حسن حنفى وكتب دراسة، فى أعقاب نشرى حوار الاستشراق والاستغراب ، والذى رفض أن يشارك به ، تحت عنوان «نحو علم اجتماعى جديد» ثم غير عنوانها من جديد «من الاستشراق إلى الاستغراب» ثم ها هو يعد كتابا جديداً أعطاه اسم مقدمة فى علم الاستغراب ، وقرأنا منه بالأمس أحد فصوله التى حملها معه من القاهرة والذى من المتوقع صدوره ، كما أشار ، خلال الأشهر القادمة . . . نسيت أن أشير إلى أن هناك بعض المفكرين الغربيين يطرحون المسألة ذاتها، أى أنه يطرحون فكرة الاستغراب ببواعث مختلفة ، فهناك من يطرحها فى أفق استفزازى ضد العرب والمسلمين ، وهناك من يطرحها لأنه يرى أنه من الأفيد للحضارة الغربية أن ينظر إليها من خارجها، مثل جوزيف نيدهام، وهناك عالم الإناسة الفرنسى لوبثيون، الذى طرحها وعمل على تنفيذها بأن استقدم مجموعة من الرواة الأفارقة ليدرسوا بعض ظواهر المجتمع الفرنسى والإيطالى ، وقد لخص هذه التجربة فى كتابه «النظر غير المتكافئ» وكنا قد استقبلنا منذ شهور هنا ، فى المركز العربى للدراسات الغربية، وناقشنا كتابه وتجربته الفريدة . هناك أيضا الفيلسوف الفرنسى ميشيل سير الذى تحدث عن أهمية الفكرة قبل أن تغرق بنا سفينة نوح وفقا لتعبيره . هذا باختصار تصورى للسؤال الذى بدأنا به .

حسن حنفى: كأنك تبحث عن الاستغراب لدى الغربيين أو الاستشراق لدى الشرقيين ؟! الغرب لا يمكن أن يدرس نفسه أو يجعلها موضوعاً للدراسة ، هو يدرس الآخرين، أما أن يحول الغرب نفسه إلى مواضيع دراسة فهذا لا أفهمه .

هاشم صالح : ولم لا ! هو بالفعل يحول نفسه إلى موضوع للدراسة ، لكن أن يجعله غير الغربيين كذلك فهو أمر لم يبدأ بعد .

حسن حنفى: نعم فلاسفة التاريخ ، خاصة شبنجلر عندما كتب أفول الغرب ، هذه دراسة عن تطور الغرب وأخذ الغرب كموضوع للدراسة . . . توينبى قال الشىء نفسه ، يقول أنا الغرب عن طريق المسيحية يمكن أن يعيد إليها الحياة من جديد ، وبرجسون

فى الفصل الأخير مـن كتابه منبع الأخلاق يتكلم عن انهيار الـغرب والمادية الآلية ، وإن الغرب يحاول أن يصنع آلـهة جديدة من المادية ، وكذلك هسرل فى كـتابه "أزمة العلوم الأوروبية" يحاول أن يبين بداية ونهاية الغرب ، ويوجه نداءً فى النهاية : خطر ، خطر يا أوروبا، لابد أن تنهضى من جديد .

علاء طاهر : قضية البحث عن روح .

حسن حنفى: فلاسفة التـاريخ أدركوا أن هناك مأساة ، وحاولوا بالتـحليل الذاتى للوعى الأوروبى، فهل هذا استغراب ؟ لا إنما رؤية الغرب لنفسـه .

أحمد الشيخ : هناك أيضاً دعوة بعض المفكرين الغربـيين لأن نرى الحضارة الغربية من خـارجهـا مثل جـوزيف نيـدهام، وهناك من يدعـو لذلك سـخريـة وانتقـاضا من قـدر المـسلمين، وأنهـم لا يتطلعـون إلى معرفـة الآخر، بالـطبع الغرب يمـكن له أن يدرس نفسه،لكن أفق الدراسة يختلف بالطبع عن تلك الرؤية القادمة من حضارة أخرى.

حسن حنفى : فى أول لقاء لنا بالغرب ، وأول اكتشاف بـأن هناك عالم آخر مختلفاً عن الأنا ، كان الطهطاوى يقول فى تلخيص بـاريز : عندهم حدائق ومسارح، أما نحن . . . هل هذا حـديث عن الآخر أم الأنـا ؟ الأنا فى مرآة الآخـر، والآخر فى مـرآة الأنا ، . . انعكاس جدل الأنا والآخر . كان هذا بداية ظهور جدل الأنا والآخر .

أحمد الشيخ : لكن مع أهمية محاولة الطهـطاوى ، فى هذا الشأن ، وأنها أول محاولة فى الكتـابة عن الآخر ، كـما تقول ، إلا أنه لم يـكن لديه ، ولم يكن من المـمكن أن يكون له فى هذا الوقت المبكر ، هذا الأفق من الـرؤية والتحليل الذى تكشف عنه فكرة الاستغـراب اليوم . فالجـديد فى الاستغـراب اليوم ، كما أراه ، هو الـتركيز أكـثر على المواقع الذاتية والحضارية للأنا التى تنظر وتكتب عن الآخر ، وهذا لم يكن موجوداً بهذا القدر والوضوح أيام الطهطاوى .

حسن حنفى: هذه قضـية ثانية، نقل الثـقافة الغربيـة والترويج لها لدى الـبعض، لكن الهدف مـن الاستغراب ودراسـة الغرب بوصـفه المغـاير والمخالف لـلأنا، هو من أجل تطوير هذه الأنا. الطهطاوى كـان يتحدث عن الغرب من أجل ماذا؟ كى يبـرز للمصريين والعرب أن هناك أشياء لابد أن تتغير عندنا كما تغيرت فى الخارج ، وأن هناك نمط حياة وفلسفات أكثر تـقدماً مما نحن عليه، وأنا عملت الشئ ذاتـه وأنا أدرس الفلـسفة الأوربية بعد هزيمة ١٩٦٧ فى كتـابى قضايا معاصرة وفى ترجماتى عن إسـبنوزا وكانط وماركيوز

لم تكن الغاية هى هؤلاء، أو أعـمالهم ، بل كانت الغاية تطوير عقـلانية الذات ودعوتها للنظـرة النقدية. فـى مراكش ، منذ أسـبوعـين، وأنا فى ندوة عن عـلال الفاسـى، قام الطلاب المغاربة وقـالوا هذا بأنفسهم : هل يمكن عمل دراسة مـوضوعى فى جيلنا لأى حضارة أخرى ؛ لأننا كعرب تحاصرنا الهمـوم وقضايا التحديث والنهضة ، وهذه الهموم والاهتمامـات تفرض نفسها . . زكى نجـيب محمود فى كتابه عـن «المنطق الوضعى» ، ولا أعرف إلى أى حد هذا الكـلام صحيح ، قال إنه عندما سمـع فى لندن عن المذهب الوضعى ورجع إلى بـلده ووجد الفكر الصوفى والرجـعى وغير العقـلانى ، لهذا أراد أن يعلّم الناس أحد أنماط التفكير العلمى التجـريبى ، فتأليف كتاب عن "المنطق الوضعى" يمكن أن يكتب فى ألمانيا لـكن اختيار المذهب والترويج له فى بيئة مـخالفة يهدف إلى تغيير هذه البيئة ونقلها من مستوى إلى مستوى .

أحمد الشيخ :لا خلاف فى مسـألة الهدف من دراسة الغـرب من أجل تطوير الذات ، لكن عندما نقدم هذا المذهب أو ذاك فى ثقافـتنا هل أضاف إليه مفكرنا ؛ وهل أبدع فى تطويره أم كان مجرد ناقل كما يحدث فى أغلب الأحيان .

حسن حنفى:بالطبـع هناك تيار يجـعل من نفـسه بوتقـة يصب فيـها الفكر الغـربى ، والموقف الثانى المعـادى الذى تعلنه الجماعات الإسلامية ، محـمد الغزالى كتب «ظلام من الغرب» بينما زكـى نجيب محمود كتب «شروق من الغـرب» ، ثم هناك موقف ثالث هو موقف الذى يـنتقى، ويمثله الإصـلاحى محمد عبـده والأفغانى . وعلم الاسـتغراب يمثل مـوقفا مغـايراً ، فليس الغرب مكانا للظـلام وليس مكانا للشروق كـذلك وإنما هو موضوع للدراسة .

علم الاسـتغراب لا يرى أن هنـاك نمطاً واحداً من التـحديث والعلـم والثقافـة وهو نمط المركز الغـربى ولا يخلط بين الحضارة التاريخـية أو التأريخية المرتـبطة بالزمان والمكان والحضـارة العالميـة : فؤاد زكريا يقـوم بهذا . هناك فرق بيـن ثقافة والحـضارة ، إنهم يخلطون بين الاثنين ويعتبرونهما الشـىء ذاته وهى فى النهاية الحضارة الغربية، ومن يريد أن يتحضر عليه أن يأخذ بها ! . . . أقول : إذاً علم الاستغراب هو من أجل إيجاد منطق لعلاقة الأنا بالآخر وأنواع الحركة بينهما ، ولمـاذا لم ينشأ لدى أسلافنا القدماء ما نعانى نحن منه من تبعية وتغـريب ، فى فترة الحروب الصليبية ، عندما جـاء الصليبيون غازين رجعوا متعلمـين ، هذه علاقة بن الأنا والآخر . وقبل ذلك كانت علاقـتنا باليونان أيضاً فى عصـر المأمون مـرحلة من مراحل علم الاسـتغراب، إذاً علاقـة الأنا بالآخر متـعددة

المراحل والجوانب . لكن ما يهمنى حاليا فى الموقف من الغرب تساؤلات : هل هناك حضارة بألف ولام التعريف وباقى الحضارات الأخرى لا شئ * وما هى شروط الإبداع لدينا بدون أن نكون باستمرار فى حالة تعلم .

محمد العلانى : التساؤل إذا كان مفهوم الاستغراب قد ظهر من قبل أم لا؟ فى تصورى هو تساؤل غير ممكن لسببين : الأول أنه كان لابد للعالم العربى أن يستفيد من تجاربه الفاشلة الناجمة عن علاقته بالغرب التى طغى عليها عنصر التماهى أو التعريب . . . فشل هذه التجارب وما كان عليه الاستشراق من نظرة مركزية أوروبية ، هى التى جعلت الحديث عن الاستغراب ممكناً اليوم وليس فيما مضى .

حسن حنفى: لماذا بدأ الاستغراب يظهر الآن وليس قبل ذلك ؛ يعود إلى أشياء كثيرة من بينها بالفعل فشل إيديولوجيات التحديث ، وبداية إكتشاف أن الاستشراق ليس بحثاً علميا محضا، وإنما له مقاصد أخرى .

أحمد المطيلى : لكن هل وجدت مصطلحات تعبر عن التعرف على الغير فى تراثنا يمكن أن تفيدنا فى دراسة الآخر .

حسن حنفى: المصطلح لم يكن موجوداً فى الماضى ، البيرونى لم يضع كتابه تحت مصطلح معين ، ابن سكويه كذلك ، والفلاسفة المسلمون عندما شرحوا أرسطو لم يضعوا ذلك تحت مصطلحات معينة كما نستخدم نحن الآن مصطلح الاستغراب، وبما لأنهم كانوا يتعاملون مع الآخر من منطق قوة بمعنى أنهم لم تكن لديهم عقدة النقص التى لدينا ، كانوا هم وارثى الحضارة ، وكانوا فاتحين ، وكانت هذه ثقافات الشعوب المغلوبة فى النهاية .

جيرجوار ميرشو : أرجو أن لا نتعسف فى فرض أشياء لم تكن موجودة فى الحضارات القديمة . مفاهيم شرق وغرب هى فى الواقع مفاهيم حديثة ، وبما أنها حديثة أقول إنه لأول مرة فى التاريخ حدث نمط جديد فى السيطرة والغلبة والهيمنة. فالحضارة الراهنة لا تفرض نفسها عسكريا وسياسيا بل ثقافيا أيضا ، أما فى السابق فلم ينطرح هذا الإطلاق، ولأول مرة فى التاريخ تنطرح فكرة الهيمنة الثقافية ، من هنا تأتى فكرة الاستغراب وتطرح بشكل جديد .

حسن حنفى: إضافة جيدة تبرز أن علم الإستغراب هو مقاومة لثقافة المحتل .

حسان عرفاوى: أنا فى الحقيقة لم أقتنع بعد بمصطلح الاستغراب وبأهميته المعرفية.

وأتساءل هل يمكن بناء مصطلح على مستوى الفكر فقط دونما أن تكون هناك حاجة اجتماعية لذلك، وليس فقط النخبة التى تفكر بدلا عنه فيكون تفكيرنا متجها دائما الى الآخر أو الغرب ؟ وسؤالى الثانى : إذ كان مصطلح الاستغراب مبرراً فما هى المشروعية الفكرية خاصة على مستوى التاريخ العربى ، وأى المراجع والمدارس التى يستند إليها ؟ أعتقد أن طرح مسألة الاستغراب اليوم هو نوع من مواصلة التماهى بالآخر . وإذا كان الاستغراب هو رد فعل على الاستشراق ، هل نحن فى حاجة فعلاً إلى الاستغراب ؟ أنا أقول إننا فى حاجة الى استشراق قبل أى شئ ، استشراق مبنىّ من خلال استرجاع شرعيتنا التاريخية ، شرعية الفكر أن يتواصل من خلال ذاته ، استشراق مبنى على فهم أسس الذات ، وليس الاستشراق بمعناه الشائع ، وليس من خلال رؤية الآخر، أى أدعو إلى العودة إلى الثقافات حتى ما قبل الإسلامية لمعرفة لماذا وقعت قطيعة فى فترة من الفترات فى التفكير العربى الإسلامى ولماذا فى القرنين السابقين.

حسن حنفى: إذكر لى حالتك الآن . ألا تشعر أن هناك آخر قابع بداخلك ؟

حسان عرفاوى: أكيد لا يمكن للمرء أن يتجاهل تكوينه ومباشرته للواقع الغربى

حسن حنفى: هل يسبب لك أزمة .

حسان عرفاوى: المطروح بصراحة ليس على مستوى نفسى، وإنما أطرح القضية على مستوى فكرى . ليس لدىّ رفض للغرب على مستوى نفسى ، لكن المسألة تتعلق بكيف نستعيد التفكير فى ذاتنا وتاريخنا وثقافاتنا .

حسن حنفى: حلل نفسك من الداخل.. ألا تشعر أنك مزدوج الثقافة وعندما تفكر لا تعرف ماذا تفعل !! ألا تشعر أنك كى تفهم الظاهرة السياسية تحيل نفسك أحيانا إلى العقد الاجتماعى والفصل بين السلطات وأحيانا أخرى تحيل نفسك الى الشورى، وبالتالى تعيش نوعاً من الاضطراب والازدواجية فى الإطار المعرفى العام. لذلك علم الاستغراب وظيفته فك هذا الاشتباك .

حسان عرفاوى: أنا طرحت مسألة الشرعية الفكرية لأننا نتحدث فى مجال الفكر، أنا أفكر فى أشياء أكثر عملية وأتساءل كيف يقع الإعتراف بباحث داخل الوطن العربى إذا لم يكن قد تكوّن فى المدارس الغربية وإذا لم يستشهد بمدارس غربية تعطيه شرعية فكرية ، وإذا لم يكتب فى مجلات علمية غربية؟ .. هذه أشياء لابد أن تطرح على مستوى تنظيم الجامعة والبحث العلمى .

حسن حنفى: أنا أحاول أن أضع لكلامك إطاراً ، ما قلته صحيح عند فريق واحد هو فريق المستغربين، الذين يرون أنه لا تعطى للإنسان مشروعية إلا إذا كان له رصيد فى الثقافة الغربية فى المجلات الغربية .

حسان عرفاوى: فى آخر كتاباتك تساءلت، لماذا كنت تحتاج إلى الفلسفة الظاهرتية كى تبين أن هناك إمكانية لقراءة مختلفة للقرآن حسب القصد . أنا لم أفهم لماذا كنت محتاجاً الى اللجوء إلى هذه المدرسة الغربية مع أنه كان بإمكانك أن تستمد المشروعية الفكرية لهذا التوجه من خلال المنظومة الفكرية باعتبار أن المدارس الفقهية تقول إن القصد . . .

حسن حنفى: قلت ذلك فى أصول الفقه قبل الظاهريات .

حسان عرفاوى: لكنك احتجت للخروج من هذا الحقل الفكرى لتذهب إلى المدرسة الغربية ثم تعود فيما بعد .

حسن حنفى: لا ، العكس هو ما حدث ، لقد بدأت بأصول الفقه عام ١٩٦٥ ثم الظاهريات جاءت متأخرة ، عندما حاولت أن أرى محيط الأنا الآخر ، والآخر هو الظاهريات بالنسبة لى، لأنها ترصد أزمة العلوم الأوروبية، ترصد مسار الآخر، فأخذت الظاهريات باعتبارها آخر ما أنتج الغرب وتحاول أن تصف ما أحاول أنا وصفه ، وأن للآخر بداية ونهاية ، وكلنا ونحن نناضل ضد الإنجليز كنا متأثرين بفكرة أن الغرب قارب على الانتهاء ، وأن النضال ضد الغرب سيوقفه عند حده، وأن المستقبل، لنا وأن شعوب العالم الثالث المتحررة هى التى سترث الغرب، ووجدت أن الظاهريات تقول ذلك بأسلوب علمى . وأنه لا يمكن أن تقوم تجربة جديدة فى الغرب، لأن المشروع الغربى اكتمل . . فى الفلسفة أخذت الظاهريات لأنها تعطينى مساحة لتناول الغرب أو الوعى الغربى باعتباره وحدة واحدة ، أنا لست مهتماً بفيلسوف أو مذهب، بل بالآخر كله ، كيف نشأ ؟ كيف تطور؟ هل اكتمل؟ ؛هل انتهى ؟ وما مصيره ؟ ومن ثم الظاهريات هى التى حاولت وضع هذا الإشكال ، ومن ثم بدأت أدرس الظاهريات لأكتشف أن الآخر له بداية ونهاية والأنا . . .

أحمد الشيخ : جميل هذا الإيضاح لأسباب ارتباطك بمنهج الظاهريات فى البداية . . لكن المشكلة أنك استخدمت هذا المنهج كمنهج دائم للتحليل حتى الآن.

حسن حنفى: أنا لم أدرس الآخر أولاً ثم طبقته فى الأنا بل بدأت بالأنا وبينت إمكانية

صعودها ثم بينت ثانية الآخر وبينت احتمال أنه قال كل ما لديه وأن هناك علامة استفهام كبيرة حول الوعى الأوروبى إلى أين ؟ . . . لكن القضية حاليا أن الأنا فى نهضتها حدثت لها عثرات . . صحيح نجحت فى طرد المستعمر خارجيا لكن فى التحديث والتنمية تزداد اعتماداً على الآخر لذلك فكرت فى علم الاستغراب .

هاشم صالح :بالنسبة لى أرى الأمور من خلال مصطلح صغير مكون من كلمتين هو «الحس التاريخى» والشىء الذى يمكن أن نأخذه على الجيل السابق علينا ، ومنهم أستاذنا حسن حنفى ، هو ضمور الحس التاريخى فى تحليلاته . بشكل عام الغرب مطروح كأنه شئ لا يحاط . . المشكلة مزدوجة ، الذات العربية نفسها مطروحة خارج الزمان والمكان ، بدون ميلاد أو تطور . وحتى نكشف تطورها هذا يفترض شجاعة فى معارضته الذات ، معرفة الذات العربية والإسلامية تحتاج إلى حس تاريخى متناه وليس دفعة واحدة، لأن الحقيقة قد تقتل أحيانا ! من الذى يمكنه أن يعرف المنشأ الأصلى للحركات الإسلامية الكبرى معرفة تاريخية غير المعرفة الإيمانية التقليدية التى تربينا عليها والتى لا يمكن أن نتنفس خارجها . . . نحن فى حاجة الى التسليح بهذا الحس التاريخى لمعرفة الذات ولمعرفة الآخر أيضاً. أنا عندما جئت إلى فرنسا كنت مبهوراً مثل الطهطاوى، لكن بعد الانبهار جاءت لحظة النظرة النقدية . . فى مرحلة الانبهار سيختفى دائما الحس التاريخى .

حسان عرفاوى: إذا انتقلنا بفكرة الاستغراب من حيز الدعوة إلى خير التطبيق، فعلى أى أسس معرفية يتم ذلك ؟ ما الذى ينير لى الطريق ؟

أحمد الشيخ :ما يقوله حسان عرفاوى يطرح بالضرورة المواقع الذاتية والحضارية لمن يؤسسون فكرة الاستغراب عمليا . فعندما نأخذ الآخر موضوعا للدراسة فإنه لا ينبغى أن نتوقف عند هذا الحد بل لابد أن نضيف شيئاً آخر .

حسن حنفى: ما هو؟

أحمد الشيخ :أن نصر أننا نجعل الآخر موضوعاً للدراسة من أفق معين وملامح ثقافية وحضارية معينة، لأن أغلب المحاولات التى تأخذ الآخر موضوعا للدراسة تغيب عنها هذه الأبعاد الثقافية والحضارية وما تفترضه من مناهج ذاتية فى الرؤية والتحليل . وحسن حنفى ذاته الذى يدعو للاستغراب ويريد تحجيم الغرب يفعل ذلك، وهو يستند إلى

مناهج غربية .

حسن حنفى: يقولون عنى أننى أطبق من هنا وهنا، مثلما قالوا عن ابن سينا وابن رشد ويظل منهج الأثر والتأثر الهدف منه تفريغ الذات من قدرتها على الإبداع .

أحمد الشيخ : من يدعو إلى الاستغراب لابد أن تتوفر له طريقة من النظر والرؤية تعبر على جماع المقومات الرئيسية للثقافة التى يعبر عنها، وأن تكون هذه الطريقة أو المنهج على درجة من الوضوح تسمح له بعد ذلك بالحديث عن منهج الأثر والتأثر .

أحمد المطيلى : أتصور عندما ندرس الآخر و أننا نفكر فى الآخر ، ونفكر فى أنفسنا . . أحيانا نستخدم مقولات الآخر ، نستخدم مفاهيمه ومصطلحاته ، أنت تريد أن تدرس الآخر وتدرس ذاتك، لكن فى النهاية الأمور ليست بهذا الانقسام البسيط فهناك تداخل للآخر على المستوى اللفظى والاصطلاحى . .

حسن حنفى: انظر يا أخى أنت تلعب فى ملعب الخصم ، من أجل هذا أفرق دائما بين العالم والمواطن ، أنت تلعب فى ملعب الآخر وليس فى ملعبك . أنت إسقطت تماما دورك كمواطن .

أحمد المطيلى : لست متفقا معك فى التفرقة بين العالم والمواطن ، التواصل حاصل، لكن إذا كنت تجعل من نفسك عالماً ومواطناً فى نفس الوقت ونفس السياق، هنا يحصل خلط وتداخل وغموض ويمكن أن تظهر فى مظهر مواطن وفى مظهر عالم فتختلط الأمور .

حسن حنفى: فى حالة إذا لم تحصل الوحدة بينهما .

أحمد المطيلى : وهذه هى المشكلة فى الأغلب .

حسن حنفى: إذا استطعت فى الوقت الذى تكون فيه عالماً أن تظهر مواطنتك ، وفى الوقت الذى تكون فيه مواطنا أن تظهر كعالم فلاخوف إذاً من ذلك .

مجدى عبد الحافظ: أريد أن أنقل الحوار إلى مسألة أعتقد أنها هامة وهى: هل يكون الاستغراب بجعل الآخر موضوعاً للدراسة على المستوى الثقافى كافياً دون أن نتطرق أو نملك الجزء الثانى المتعلق بالصناعة والعلم والتكنولوجيا .

أحمد الشيخ : سؤال مشروع

حسن حنفى: نحن نضع الخميرة أما الاختمار فهو عملية طويلة جداً.

حسان عرفاوى: سمعت كلاما عن المواطنة والالتزام بقضايا الوطن، لكن تظل القضية

المطروحة هى قضية معرفية ، ما هى العلاقة بين المواطنة والسياسة من جهة، والمعرفة من جهة ثانية، ومتى يكون العالم مواطنا ومتى يكون عالما ، الشئ الثانى الذى أثار انتباهى عندما نقول إن الاستغراب موجه الى تحجيم الآخر ، فإنه يغيب عن هذا الكلام مسألة الوعى بالذات ، وعندما تكون المسألة موجهة للخارج فقط فأنا أرى ذلك مواصلة للتغريب فى نهاية الأمر، لأنه لم يجعلنا نصل إلى الوعى بأنفسنا، وكيف تتكون المعرفة لدينا؟ ما هى مدارسها ؟ ما هى هياكلها ؟ ما هى العلاقة بين المفكر والسلطة والأيديولوجيا والمجتمع والثقافة الشعبية ؟ هذه التساؤلات ينبغى أن تسبق التساؤلات حول الآخر، ولا يمكن فهم الآخر دون فهم الآليات التى تتكون من خلالها المعرفة لدينا .

حسن حنفى: واضح أنك متأثر بثقافة الحى اللاتينى ، الاستغراب ليس قضية معرفية ، الاستغراب ضد احتقار النفس ، ضد الاختناق .

حسان عرفاوى: فى هذه الحالة لا يمكن تأسيس الاستغراب على مستوى معرفى وإنما نفسى .

حسن حنفى: أنت وقعت فى ازدواجية. إما، أو . . .

حسان عرفاوى: لابد من تحديد العلاقة بين الأشياء .

أحمد المطيلى :أنت بدأت وقلت علم الاستغراب هو محاولة لدراسة الآخر بطريقة علمية ومحاولة تلمس جدلية الانا والآخر، لكن الآن مع تطور النقاش نحصل على وجهة أخرى لم يكشف عنها التعريف الأول . والآن نحن نلمس شيئا آخر ربما حسن حنفى المواطن وليس العالم ! فى هذه الحالة إذا كنت تريد أن تحافظ على قدر من الاتساق بين المقدمة والنتيجة ، ولا أعرف فى الحقيقة الآن أين المقدمة وأين النتيجة، ينبغى القول: المشكل ليس معرفياً بل وجودياً .

جيرجوار ميرشو :لا ينبغى أن نحتقر أنفسنا ، لقد فعلنا أشياء كثيرة بدأت تظهر بوادرها فى السبعينيات والثمانينيات. من قبل لم يكن هناك حديث عن الاستعمار الثقافى ثم بدأت مرحلة جديدة ومجهودات كثيرة هنا وهناك ، والمطلوب، العمل على توحيد هذه المجهودات الفردية .

هاشم صالح: أنا أدعو أحمد الشيخ أن يحدد بوضوح أن الهدف من المركز العربى للدراسات الغربية الذى يريد تأسيسه ، هو القيام بدراسات تاريخية للحضارة الغربية، وننتهى من هذا الغموض الذى يحيط بمصطلح الاستغراب .

إعلان تأسيس

«المركز العربى للدراسات الغربية»

انطلاقاً من حاجتنا إلى تجديد إدراكنا بالثقافة الغربية وبمحيطها الخاص وانطلاقاً من واقع أن معرفتنا بالغرب بصفة عامة هى معرفة محدودة وجزئية وغير دقيقة فى أحيان كثيرة انطلاقاً من ذلك بدأنا التفكير فى تأسيس المركز العربى للدراسات الغربية . فالحاجة إلى تجديد إدراكنا بالثقافة الغربية أصبحت ضرورة أساسية فى نظر الباحثين العرب الذين ينهضون بأعباء هذا المشروع الوليد بهدف إنشاء قناة جديدة للمعرفة فى العالم العربى يكون من مهامها إطلاع القارئ والباحث والمثقف العربى على الجديد - والقديم أيضاً - مما يشكل الملامح الرئيسية للحضارة الغربية المعاصرة ، وبصفة خاصة فى مجال العلوم الإنسانية .

لكن كيف يمكن تجديد وعينا بالثقافة الغربية ثم لماذا فى هذه اللحظات بالذات ؟! فى الواقع، إن اهتمام الباحثين العرب ، فى هذا المركز ، بدراسة الغرب كموضوع للعلم لا يعنى انصرافاً عن دراسة الثقافة العربية كما لا يعنى تغريبا للهوية القومية أو تذويبا للشخصية العربية بل على النقيض من ذلك، يهدف هذا المشروع الجديد إلى تدعيم الثقافة العربية من خلال معرفة أفضل بالثقافات المغايرة لها ، فالجديد فى هذا المركز أنه يتعامل مع منتجات الثقافة الغربية كموضوعات للعلم والمعرفة قبل اتخاذ مواقف التأييد أو الإدانة، والجديد أيضاً فى هذا المشروع أنه يتعامل مع منتجات الثقافة الغربية فى إطارها الشامل والحضارى، وليس كمنتجات من هنا وهناك دون أن يكون هناك عمق حضارى يعطيها معناها الحقيقى . فالتعامل يتم من خلال التركيز على المواقع والأبعاد الحضارية لكل من الثقافة العربية والثقافة الغربية فى خطوطها العريضة . ومن هنا كان إصرارنا على أن مشروعنا هو مركز عربى للدراسات الغربية . أى أنه مركز مكرس للحديث عن آفاق الغرب المعاصر وتطوراته وتقنياته الجديدة وانعكاسات ذلك على واقع المتجمعات العربية ، وإصرارنا على إبراز الأبعاد الحضارية لمثل هذا المشروع لا يعنى بحثاً عن الاختلاف والشقاق مع الثقافة الغربية، بل تمسكا بهذا الاختلاف المثمر الذى ينشأ من التقاء ثقافات وحضارات مختلفة . وهو ما يدعو إليه رجال وقادة الفكر فى الغرب أيضاً . والجديد أيضاً فى هذا المركز هو وعى بعض الباحثين العرب المقيمين فى العواصم الغربية بضرورة الاهتمام أكثر بدراسة الفضاء الثقافى الغربى الذى يعيشون فى أروقته بهدف تقديم رؤية دقيقة وموضوعية ومواكبة لما يصدر فى الغرب فى كافة مجالات الثقافة الغربية . وبهذا يضطلع هؤلاء الباحثون بدور متواضع فى إثراء الحياة الثقافية العربية ورفدها بما هو جديد ومثمر فى إنتاج الثقافة الغربية

لكن يبقى التساؤل المحير وهو، كيف نجسد عملياً ما ندعو إليه بتجديد إدراكنا بالثقافة الغربية وبضرورة دراستها من خارجها أى من خلال رؤية عربية شرقية ؟!

ثم من سيدعم إذن مثل هذا المشروع الطموح ؟ هل تتبناه بعض الجامعات العربية ؟ بعض مراكز الأبحاث ؟ وزارات التعليم ؟ وزارات الثقافة فى العواصم العربية أو الغربية ؟ فى الواقع إنها تساؤلات حيرتنا ولم نصل بعد إلى حسم كامل لها لكننا برغم ذلك نسير فى طريقنا إلى تأسيس هذا المركز والتعريف بأهدافه وبرامجه ووسائل تحقيقها فربما نجد آذانا صاغية ومؤمنة بضرورة إنشاء استغراب عربى - أى دراسة الغرب من خارجه ومن خلال رؤية عربية - يقدم للعالم وجه الحضارة العربية ومساهمتها فى مسيرة التقدم الإنسانى . .

ويطمح المركز إلى :

١- إصدار مجلة «دراسات غربية» كمجلة فصلية إلى حين يتوفر لها إمكانيات الصدور بصفة شهرية .

٢- إصدار سلسلة من الترجمات التى تعبر عن فلسفة المركز وطموحاته على أن تصدر هذه السلسلة عن طريق دار نشر باسم هذا المركز .

٣- إعداد نشرات متخصصة لأهم ما يصدر فى الغرب من كتب فى مجالات العلوم الإنسانية وفى المجالات الأخرى التى تثبت الحاجة إليها .

٤- إعداد دراسات ومقالات باللغات الأجنبية ونشرها فى الصحف والمجلات الغربية فى نطاق فلسفة المركز وأهدافه العامة .

٥- الإعداد لمجموعة من الندوات وحلقات النقاش التى تعبر عن رسالة المركز الثقافية والحضارية ويسهم بها باحثون عرب وأجانب .

٦- دعم الباحثين العرب وتوجيههم ومساعدتهم على إنجاز أبحاثهم الجامعية .

٧- ترجمة الأطروحات التى أعدت لنيل درجة الدكتوراه من الجامعات الغربية ونقلها إلى اللغة العربية وحتى يمكن الإفادة منها.

٨- متابعة النقاشات الثقافية الدائرة فى الغرب والمساهمة بها ونقلها إلى اللغة العربية بصورة دقيقة وفى وقت حدوثها . .

****

المؤلف فى سطور

- ينتمى أحـمد الشيخ إلى هذا الجيل الجـديد من الكتاب والصحفـيين الذين أعلنوا عن وجودهم بصورة ملفتة للنظر فى السنوات الأخيرة.
- وعلى الرغم من إقامته، فى العاصمة الفرنسـية، أكثر من عشرين عاماً، فإنه يمثل أحد الـوجوه البازرة التى حافظت علـى إستقلالها الوطنـى والحضارى، بعيداً عن تيارات وأقنعة التغريب والحداثة الزائفة.
- وتكشف كتاباته ومـواقفه عن إصرار واضح فى الحفاظ عـلى هذا الإستقلال فى زمن تلغى فيه العولمة كل مظاهر الإستـقلال، كما تكشف كتاباته أيضاً عن مواكبة دقيقة لتطورات الحياة الثقافية فى عواصم الغرب الكبرى.
- وهو من الذيـن غاصوا بعـمق، إن لم يكن قـد شارك بالفـعل، فى قضـايا الصـراع الثـقـافى والحـضارى الـدائر منذ سـنوات على أكـثـر من صـعيـد.
- وعمل أحمد الشيخ فى عدة صحف ومجلات عربية أهمها :

اليـسار الـعربـى(١٩٧٩-١٩٨٠) الوطن الكويـتيـة (١٩٨١-١٩٨٦) ومـجلة الفرسـان (١٩٨٦-١٩٨٨) الحياة اللنـدنية (١٩٩٦-١٩٩٨) ويكتب حـالياً فى جريدة الأزهر .

ومن الكتب التى صدرت له:

- من نقـد الاستـشراق إلـى نقد الاسـتغـراب - حوار الاسـتشـراق (١٩٩٩)
- ترجمة كتاب : الشرق والغرب زمن الـحروب الصليبية. كلود كاهن(١٩٩٥)

يصدر عن المركز العربى للدراسات الغربية الكتاب الثالث

من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب

المستشرقون العرب وأزمة المناهج

أحمد الشيخ

فهــرس

شارك بها : حسن حنفى، أحمد الشيخ، أحمد المطيلى، هاشم صالح، محمد العلانى، علاء طاهر، چيرچوارميرشو، مجدى عبد الحافظ، محمد سيف